الدكتور احمد قدري

١٣٧٥ هـ
١٩٥٦ م

مذكراتي
عن الثورة العربية الكبرى



الدكتور احمد قدري

مذكراتي

عن الثورة العربية الكبرى

١٣٧٥ هـ

١٩٥٦ م

مطابع ابن زيدون بدمشق

مقدمة

ايماني بالوحدة العربية قوي كايماني بالله ، لا أتحلحل عنه ولا أميل ، ولا يسعني إلا أن أفكر به كلما فكرت بالعروبة ونجاحها . ذاك ديدني بل مبدئي في حياتي منذ عرفت الحياة وعرفت الجهاد .

ولهذا الايمان أسبابه في حياتي الخاصة ، فقد ولدت ولا أعرف لي وطناً اقليمياً ، ولا معنى لكلمة العروبة عندي إلا انها تنتظم كافة بلدان العرب بأقطارها الناطقة بالضاد ، لا فرق لدي بين أحدها والآخر . كلها أوطاني وبلادي ، وكلها ينبغي أن أستهدفه في جهادي .

كان والدي أحد امراء الجيش العثماني ، وكانت الثورات والحروب قائمة على قدم وساق في ولايات الدولة الاوربية ، في أوائل سني خدمته ، فقضى زهرة عمره فيها . ثم نقل الى دمشق ، ومنها الى بعلبك حاكما ، ثم مفتشاً للجيش في فلسطين ، وكانت بيروت تابعة عسكرياً الى عكا ، ثم عين قائداً للبصرة ووكيلا لواليها .

فكان لي من ذلك أن نشأت وأتممت دراستي الثانوية في ربوع فلسطين وبيروت مع زملاء ربطتني بهم الرابطة المدرسية كمحمد رستم حيدر ورشيد الحسامي وعوني عبد الهادي ورفيق التميمي وعبد الغني العريسي .

وكانت رابطتي بدمشق ضعيفة لأن اخوة والدي لم يكن لهم أبناء ذكور كما انهم لم يعمروا طويلا ، فلم يكن لنا أقارب في دمشق اللهم إلا الذين عرفتهم في الفترات القليلة التي كنت اختلف فيها الى دمشق ، وهم من ناحية بنات عمومتنا فقط .

ومن هـــذا يستبين أنني منذ نشأت لم أعرف لي وطناً خاصاً غير الوطن العربي الشامل الذي عشت تحت أجوائه المختلفة متنقلا كالطير من قطر الى قطر .

وتحت تأثير هذه النشأة التي أحمد الله عليها نهضت بأعمالي الوطنية سواء في استانبول او باريس خلال دراستي الجامعية .

هذا مع العلم بأن الفكرة الاقليمية الضيقة لم تكن يومئذ معروفة بين مثقفي العرب اطلاقاً ، وان كان هذا لم يكن يمنع من أن يزعم زاعم انه بيروتي أو شامي أو عراقي ، على نحو ما نقول اليوم في وطننا السوري : شامي وحمصي وحلبي . أما أنا فلم يكن حنيني الى دمشق أكثر من حنيني الى نابلس مثلا أو بعلبك أو خليل الرحمن .

ومن الغريب أن المرحوم والدي عبد القادر قد اختزل اسمه فدعي في المدرسة الحربية في استانبول باسم قدري ، ثم غدا هذا الاسم كنية لنا من بعده ، لا نعرف إلا بها . ومن الغريب أيضاً أنني بعد أن عدت الى دمشق عام ١٩١٣ كان عليّ أن أثبت في السجلات أنني مواطن دمشقي ، وكذلك بعد أن أصبحت بلادنا اثر انتهاء الحرب مقسمة بمؤامرات المستعمرين ، ولكنني لم أفعل . وهكذا فبعد أن أخرجت من العراق إرضاءً للانكليز عام ١٩٤١ عقب ثورة رشيد عالي ، لم أعثر على أي قيد لي في سجلات النفوس ، وأنكى من هذا كله أن زواجي نفسه الذي

ثم في سنة ١٩١٩ قد أعيد عقده ثانية لأسجل في « خانة » قرينتي باسم أحمد قدري بن عبد القادر قدري الترجمان . وكذا أولادي في مدارسهم وشهاداتهم فكلها كان يردف بكنية قدري لانهم عاشوا مثلي بعيدين عن سورية بعدما أصدر الفرنسيون عليّ حكمهم باعدامي عام ١٩٢٠ ، وليس لهم أي قيد في السجلات السورية .

وكلمة الترجمان ترجع الى انني لما رجعت الى حجج أوقافنا لاثبت دمشقيتي تبين لي أن جدي لدى فتح الترك لدمشق كان يحمل اسم يحيي ، وكان يجيد التركية والفارسية على ما كان متعارفاً لدى أدباء ذلك العصر ، فاصطفاه الفاتحون ، ثم لقب بيحيي الترجمان . وله أوقاف خيرية وذرية كثيرة .

* * *

ولقد رأيت من واجبي ، والعمر قد تقدم ، والصدر مفعم ، والتاريخ العربي يتطوّر مع الايام ، وقد يخشى منه الانحراف والتحيف . . . والاقطار العربية تنحو نحو الوحدة العربية ، وقد اصبح على رأسها مصر العزيزة التي كان لها سبق التحرر من النير العثماني ، ولكنها لبثت بعيدة عن فكرة الوحدة ، الى أن قيّض الله لها من الوعي بفضل أفذاذها الخلّص المؤمنين بالعروبة ، ان تدرك خيرها وخير كل بلد ينطق بالضاد ، في جمع الشمل ، وتوحيد الكلمة ، وتحقيق الغاية المثلى التي ما أطلقت أول رصاصة من الثورة العربية الكبرى إلا وهي تهدف الى انشاء امبراطورية عربية ، ذات راية واحدة ، ورسالة واحدة .

أجل رأيت من واجبي الحتم بعد أن سلخت زهرة العمر في الجهاد الوطني تحت لواء فيصل ، رجل العرب الاكبر ، سواء في سني الحروب

العامة الاولى ، أو ما قبلها وبعدها ، الى أن أخرجت من دمشق عام ١٩٢٠ ، أن أدوّن مذاكراتي عن هاتيك البرهة الحافلة بأجل الاحداث من تاريخنا الحديث المجيد ، لا سيما واني واكبتها عن كثب ، ووقفت على دقائقها وأسرارها وشتى تطوراتها ، فحق عليّ إثباتها وتدوينها علّها تكون كالنبع يرجع اليه الاحفاد يغترفون من معينه الصافي حقائق الاحداث .

ويشهد الله أن لا غاية لي إلا النهوض بالواجب ، وإلا أن أترك للخلف سجلاً من أعمال السلف ، في أيقظ أوقات الوعي القومي والجهاد الوطني .

وأملي الأكبر أن أكون أوفيت على غايتي ، وقدّمت بعض الواجب الوطني ، وتركت للأجيال الصاعدة ما ينفع الباحثين الذين يستقصون الحقائق في مظانها ومراجعها .

والله حسبي ونعم الوكيل .

الدكتور أحمد قدري

توطئة

منذ اليوم الذي بسط فيه العثمانيون سلطانهم على البلاد العربية ، والعلاقات القائمة بين العرب والترك موطدة الاركان ثابتة البنيان ، إذ كان نجم عز العرب قد أفل ، وكان الاتراك ينظرون الى العرب نظرتهم الى عنصر تجمعهم به رابطة العقيدة الدينية ، فلم يثقل حكمهم على العرب .

ودار الزمن دورانه ، وتعاقبت الاعوام تباعاً ، والعلاقات بين العرب والاتراك ، تسير في جو هادىء لا تعكرها نعرة جنسية أو نزعة عنصرية ، حتى اذا ما تولى السلطنة الخليفة عبد الحميد ، تجلت هذه العلاقات واضحة وعلى صورة أقوى وأوثق من ذي قبل ، إذ حرص هذا الخليفة في سياسته على خطب ود العرب واستدنائهم منه ، وتعزيز صلاته بهم ، فكان منهم السيد المطاع ، والرئيس المرموق .

بيد أن الشعور القومي العربي كان ينبثق مومضاً بين الفينة والفينة تحدوه الامجاد العربية التاريخية . ولكنه كان مقتصراً على طائفة بعينها هي طائفة المثقفين . لذلك لم يتعد هذا الشعور حدودهم ولم يتجاوز آفاقهم ، بسبب الجهل الذي كان مسيطراً يومذاك على العالم العربي .

غير أن الثقافة القومية الاوروبية ما لبثت أن تغلغلت في الاقطار العثمانية جميعها ، وبخاصة ما نجم منها عن الثورة الفرنسية الكبرى ، فما كان من الاتراك إلا أن راحوا يتغنون بهذه الثقافة مبشرين بمبادئها ،

متطلعين الى الاخذ عنها ، ولا سيما بعد اعلان الدستور عام ١٩٠٨ ، حتى اذا سيطرت النعرة الطورانية على الشبيبة التركية الاتحادية ، لم يعودوا ينظرون الى العرب كاخوان في الدين ، بل كمستعبدين مستعمرين. وكان لا بد لهذه الروح العنصرية العنيفة من أثر تتجلى فيه . واذا هو السعي لخلع الخليفة . وقد تمكن الاتحاديون من تحقيق حلمهم ، فخلعوا السلطان عبد الحميد وأعلنوا الدستور عام ١٩٠٨ ، وبذلك قضوا على آخر خليفة كان ينظر الى العرب نظرته الى اخوان في العقيدة الاسلامية - وكان ذلك من دواعي سياسته كخليفة للمسلمين - فيذر الرماد على الروح الوطنية الجياشة في صدور مثقفي العرب .

ثم شرع الاتحاديون يناهضون العرب مستغلين حفاوة الشعب باعلان الدستور ؛ وان أنس لا أنس حادثاً مرّ بي في الاستانة ، وهو من أوثق الادلة على الشعور العدائي الموجه ضد العرب . فبينما كنت أسير مع زميل الدراسة عوني عبد الهادي عقب اعلان الدستور ، شاهدت جمهوراً غفيراً من الاهلين أمام ضابط يدعى سري بك وقد قام يخطب فوق عجلة متغنياً بحسنات الدستور وامجاده ، ثم ما لبث أن انتقل الى التحامل على كبار الموظفين العرب السابقين ، كأن يقول : « الخائن عرب عزة والخائن عرب أبو الهدى[1] » الخ ... وقد عجبت أيما عجب لهذا التحامل المغرض ؛ أفلم يكن بين رجال الحكم البائد طائفة كبيرة من الاتراك فلمَ لم يندّد الخطيب بواحد منهم بمثل ما ندد بالشخصيتين العربيتين ؟ واذا كان يندد بهما لشخصهما فلمَ يعمد الى ذكر قوميتهما ؟ .

(١) يقصد عزة باشا العابد وأبو الهدى الصيادي وكان الاول سكرتير عبد الحميد الثاني والثاني شيخه المقرب اليه .

حقاً لقد هزني شعوري القومي وتعاظمتي العزة العربية ، فانطلقت اليه وصديقي عوني عبد الهادي ، ندفع صفوف الجماهير المزدحمة حتى اذا ما وصلنا اليه ، جابهناه باستنكار مزاعمه ، وفي ملامحنا الغضب الشديد ، وفي صوتنا نبرات في مثل النار .

ولدى معادي وزميلي الى مسكننا أخذنا نقلب الرأي فيما سوف تتمخض عنه الاحداث بعد إذ علن لنا بوضوح أن رجال « جمعية تركيا الفتاة » الذين تسلموا مقاليد الحكم في العهد الجديد متعصبون أيما تعصب لقوميتهم التركية ، حاصرون سياستهم في تقوية هذه القومية والنهوض بها على حساب القوميات الاخرى التي كانت تنتظمها الدولة العثمانية . وقد خرجنا من هذه الحقيقة على أن نشكل جمعية عربية سرية على نحو جمعية تركيا الفتاة تنهض بواجب الدفاع عن حقوق العرب ورفع مستواهم ، ولم أكد أفاتح الزميل محمد رستم حيدر الذي أعتمد عليه حتى حبذ الرأي . وكان هذا مبدأ تشكيل الجمعية العربية الفتاة ، أي على أثر اعلان الدستور العثماني بأربعة أيام لا أكثر .

جمعية الاخاء العربي :

واحتفلت بالدستور جميع العناصر المنضوية تحت راية الامبراطورية العثمانية ، لأنها كانت تتوقع أن يعود عليها هذا الدستور بالخير العميم . ونحن العرب لم نكن نتوقع في حال أن يستغل الدستور للتحامل على وطنيتنا وقوميتنا ، لذلك اندفع المثقفون الواعون يفكرون في الطريقة التي تساعدنا على الاحتفاظ بكرامتنا ؛ ولما أن رأوا الى العنصر الارمني يشرع بتأسيس النوادي والجمعيات الخاصة به ويجاريه في ذلك الاروام والارناؤوط وغيرهم ، شعروا بالتبعة التي تحفزهم الى التطريز على منوال

غيرهم ، وترسم آثارهم ، حفاظاً على عروبتهم من جهة ، ثم برهنة على أنهم ليسوا دون غيرهم استعداداً وطموحاً ؛ وقد لاقى هذا الشعور صداه القوي في الاوساط العربية ، فاغتنمه فريق من ذوي المقامات الرفيعة وأهل الرأي من رجالات العرب في عهد عبد الحميد ، وأسسوا جمعية أطلقوا عليها عنوان « الاخاء العربي » ، على أن تكون غايتها عون « جمعية الاتحاد والترقي » في الحفاظ على أحكام الدستور ، وجمع كلمة جميع الملل التي تظللها الراية العثمانية ، دون ما نظر الى الفروق الدينية والجنسية ، والسعي الى تأييد العدل والحرية والمساواة بين جميع هذه العناصر ، وإزالة الضغائن والاحقاد بينها . ومن هذا يتبين أن القائمين على « جمعية الاخاء العربي » قد حرصوا على ألا يظهروا بالمظهر الذي يستشم منه أي عداء للحكم القائم . على انهم لم يغفلوا في برنامجهم أن الجمعية سوف تعمل على اعلاء شأن الامة العربية في كافة مرافقها الحيوية فمن الناحية الفكرية تهتم بنشر العلوم والمعارف بين أبنائها وتأسيس المدارس واصدار الجرائد . ومن الناحية الاقتصادية ستعمد الى رفع المستوى الاقتصادي بين السكان وذلك بالقيام بالمشاريع الاقتصادية وتنمية الثروة القومية .

وكان الطلاب العرب في هذا الدور لا يفكرون إلا بتعزيز قوميتهم على غرار زملائهم الاتراك الاتحاديين ، فيؤيدوا كل من يتقدم لتعزيز هذه القومية ؛ ولذا سارعوا الى تأييد « جمعية الاخاء العربي » كل التأييد ، من غير أن يكلفوا أنفسهم مؤونة استكناه حقيقة شخصيات أعضائها ، والبحث فيما اذا كانوا جديرين حقاً بالاضطلاع بمهمة خدمة العرب . وغاية ما كانوا يشعرون هو أنهم في حاجة قصوى الى تأييد كل

فرد عربي ، مهما تكن صفته ، ومهما تكن نزعته . أما هو عربي ؟ ؟ ان في ذلك لكفاية وغنى .

إلا أن جمعية الاخاء العربي ما لبثت أن انحلت بعد وقوع حادثة ٣١ آذار ١٩٠٩ الشهيرة وملخصها أن أفراد الجيش التركي المرابط في الاستانة لم يكونوا متشبعين بالافكار الحرة التقدمية كزملائهم أفراد الجيش المرابط في « الروملي »[١] الذين كانوا على اتصال دائم مع الغرب وجيوش الدول البلقانية المتشبعة بالروح القومية وبالافكار الحرة . لذلك فانهم قد قاموا بعصيان مسلح بعد أن نحوا ضباطهم وطالبوا باعادة سلطة الخليفة وعدم الاعتراف بالوضع الذي تم بعد اعلان الدستور ، الامر الذي اضطر الجيش المرابط في « الروملي » بقيادة محمود شوكت باشا العراقي الاصل الى الزحف على استانبول ومحاصرة العصاة والتغلب عليهم ثم خلع عبد الحميد واعادة الوضع الى ما كان عليه قبل هذا العصيان .

واتهم عبد الحميد بالمؤامرة وتهيئة هذا العصيان لصالحه الخاص كي يعيد سلطته الفردية التي أضاعها باعلان الدستور سنة ١٩٠٨ . إلا أن الواقع يدل على أن عبد الحميد لم يكن يفكر بما نسب اليه ، وهو الذي يعرف بأن الدستور اعلن بناء على حركة قام بها الجيش المرابط في الروملي وان هذا الجيش هو النخبة الممتازة من الجيش العثماني . فمن الطبيعي أن لا يخاطر عبد الحميد ويحرك القوة العسكرية المرابطة في استنبول لتقدم على ما أقدمت عليه مع وجود الفارق الكبير بينها وبين قوى الروملي . إلا أنه قد يكون داخله الفرح لما وقع ، مع الملاحظة بأن ذلك ربما أودى بحياته . وقد سبب بالفعل خلعه عن العرش . فالدافع الحقيقي للحادثة اذن هو أن أفراد جيش الاستانة كانوا متشبعين

(١) الروملي هي الولايات العثمانية التي كانت في أوربا .

بالافكار الرجعية وبروح التعصب ، والنظر لوضع الاستانة الديني ، وكونها عاصمة الخلافة ، وبتمسك الجميع فيها بالدعايات التي توجب التمسك بأهداب الدين ومكارم الخلافة ، الامر الذي لا يخلو أبداً من التأثير بأفكار واتجاهات الجمهور ولا سيما الجهلاء منه .

ولما كان معظم المنتسبين الى فروع جمعية الاخاء العربي في الولايات العربية من الرجعيين الذين آزروا حركة عصيان ٣١ آذار المشهورة لذلك فان الاتحاديين بعد أن قمعوا هذا العصيان المسلح ، أغلقوا فروع جمعية الاخاء فلم يعد لرجالها منفعة من استمرارها في العمل بعد أن أصبحت الحكومة ضدها فانحلت الجمعية .

المنتدي الادبي :

وبعد اعلان الدستور ودعوة البلاد العثمانية الى الانتخابات النيابية ، أخذ النواب يتوافدون الى الاستانة . وقد أراد الاتحاديون اخراج أحد نواب العرب ممن اتصل بعبد الحميد من مجلس النواب لانهم لم يطمئنوا اليه وكان نائباً عن بنغازي واسمه يوسف شتوان وقد تحايلوا على ذلك بادعائهم أن انتخابه غير صحيح وغير قانوني ؛ فثارت ثائرتي وصديقي محمد يوسف مخيبر ، واتفقنا مع كثير من اخواننا الطلاب العرب على تأييده ، فانطلقنا الى المجلس ، واستطعنا بفضل تضامننا ، بعد أن مهدنا السبيل الى ذلك بتوزيع المنشورات والقاء الخطب ، ان نثبته في المجلس .

وطفقنا لا يتناهى الى مسامعنا نبأ وصول نائب عربي الى الاستانة إلا ازدلفنا الى المرفأ نستقبله استقبالاً حاراً رائعاً .

ومن هذا كله يتبين أن الشعور القومي العربي عمّ جميع الطلاب. والشبيبة هم دعامة المستقبل.

ولكن الاحداث كانت تعلمنا وتثقفنا ؛ فأدركنا أن العمل غير المنظم لن يعود بفائدة ملموسة ، وخاصة بعد أن طالعنا نظم الاتحاديين وتشكيلاتهم ، فأسسنا المنتدى الأدبي عام ١٩٠٩ ، الا انني لم أكن انوي الاقامة في الاستانة طويلاً بعد تأسيسه فغادرتها الى باريس. وكان دعامة هذا المنتدى يوسف مخيبر وسيف الدين الخطيب ورفيق رزق سلوم، وهم من أصدقائي الذين أعتمد عليهم وعبد الكريم قاسم الخليل وجميل الحسيني وأحمد عزت الاعظمي مصدر مجلة المنتدى الادبي. وبقي المنتدي قائماً حتى أوائل عام ١٩١٥ اذ أغلقته الحكومة بعد ذلك. وقد أدى هذا المنتدى للعرب خدمات جليلة فنشر الفكرة العربية، وكان بمثابة موئل للطلاب العرب الذين يؤمون الاستانة. وبالنظر لكونه المؤسسة العربية ذات المكانة الوحيدة في الدولة العثمانية. ولما كان رئيسه عبد الكريم قاسم الخليل طموحاً سهل الانقياد ، فقد بلغ هذا المنتدى مكانة رفيعة وخاصة ابان عقد الاتفاق بين زعماء العرب والاتحاديين عقب مؤتمر باريس.

جمعية الفتاة :

وقد سافر عوني عبد الهادي ومحمد رستم ابباريس لاكمال دراستهما فخابراني بخصوص مواصلة السير بجمعيتنا العربية التي كنا شرعنا بتأسيسها في الآستانة فأجبتهما بضرورة ذلك وبأنني على وشك اللحاق بهما. وهكذا تشكلت أول هيئة ادارية للفتاة سنة ١٩١١ وغايتها النهضة بالعرب وايصالهم الى مصاف الامم الحية.

وكنا نهدف من اطلاق اسم « الفتاة » على جمعيتنا ، اسم « الجمعية العربية الفتاة » ولكننا خشينا أن يلفت هذا الاسم أنظار الاتحاديين فنقع تحت طائلة طغيانهم فيما اذا عثروا على شيء من مراسلاتنا أو أخبارنا لذلك آثرنا اللياذ بالتستر الشديد . أما مركز الجمعية فقد كان في باريس بسبب وجودنا طلاباً فيها ، وقد ضمت كلاً من السادة :

عوني عبد الهادي ، رفيق التميمي ، محمد رستم حيدر ، محمد محمصاني ، عبد الغني العريسي ، صبري الخوجة ، توفيق الناطور ، وكاتب هذه السطور . وكنا أول هيئة ادارية للفتاة .

ثم انضم إليها : جميل مردم بك ، صبحي الحسيبي ، الامير مصطفى الشهابي ، توفيق فايد ، ابراهيم حيدر . وقد تحاشينا ذكر اسم الاستقلال في مضامين برنامج جمعيتنا ، وان كنا في السر نعمل ونسعى وراءه . أما سير أعمالنا فقد كان وفق خطة مرسومة منظمة . فكنا نعقد اجتماعاتنا في باريس بصورة سرية ، ونحتاط لمساعينا بالكتمان الشديد ، ونحرص أيما حرص على محاضر الجلسات أن يتسرب منها ما ينم على حقيقتنا . وكان من شروط العضو المنتمي الى جمعيتنا أن يكون كتوماً مخلصاً ، مؤمناً بالعقيدة القوميــة العربية ؛ مطيعاً لقرارات الاكثرية بدون قيد ولا شرط .

واذا ما آنس أحد الاعضاء في شخص عربي نزعة وطنية عربية نظير نزعتنا ، وجب عليه أن يقدم عنه تقريراً حتى اذا درس الدراسة الوافية ، واستوثقت الجمعية من أهليته ، أصدر القرار بقبول انتسابه مبدئياً ، ثم عهد الى شخصين هما مقدمه وأحد الاعضاء بدراسة كافة أحواله وملابساته ، ونزعاته في مبادئه الوطنية ثم صلابة أخلاقه . ومتى

تمَّ هذا كله دعي الى تأدية القسم أمامهما فقط وهو لا يعرف من أعضاء الجمعية غيرهما .

وكان القسَم الذي أشرت اليه يتلخص في الطاعة لقرارات الجمعية ، والحرص على الكتمان الشديد ، وبذل النفس والنفيس في سبيل إعلاء شأن الامة العربية وايصالها الى مصاف الأمم الحية - كما قلنا من قبل - .

لم تكن أعمال الجمعية في بادىء الامر لتتعدى نشر الدعاية الوطنية في الصحف وغيرها ، والتحري عن أعضاء جدد . ولما كنت وأنا في باريس على اتصال دائم بأصدقائي في المنتدى الادبي باستانبول ، وهم سيف الدين الخطيب ورفيق رزق سلوم ، ويوسف مخيبر ، فقد قدمت أسماءهم الى هيئة جمعية الفتاة الادارية ، فاحرزوا التزكية ، وقبلوا في عداد أعضائها وقد أقسموا اليمين أمام السيد توفيق الناطور وهو في طريق عودته الى بيروت عن طريق استنبول وبذلك أصبحت أعمال المنتدى المذكور في استنبول مرتبطة بجمعية الفتاة بباريس .

وخابرت كذلك رشيد الحسامي الذي كان موظفاً عدلياً في الكرك لينضم إلينا . وبعد أن تمت مخابرته ومخابرة توفيق البساط والامير عارف الشهابي وعمر حمد ومحمد الشريقي ، وبعد دراسة مبادئهم ، ضُموا الى حلقة أعضاء جمعيتنا . ولما كان صيف عام ١٩١٣ فاتحتُ توفيق السويدي في استنبول وأنا عائد الى دمشق بالانضمام الينا وقدمت اسمه للمركز ، فقبل حسب الاصول المرعية . وعقب وصولي لدمشق أطلعت شكري القوتلي على قانوننا في دارنا بالقنوات ثم زُكّيَ وقبل بعد أن حلف اليمين حسب المعتاد .

وانضم الينا أيضاً كثير من الاعضاء الجدد في العطل الصيفية ،

أي في الاوقات التي نعود فيها الى بلادنا . وما مرّت بنا فرصة سانحة من الدعاية لقضية وطننا وخدمته إلا اغتنمناها .

جمعية العهد :

لم يكن وضع البلدان العربية خافياً على مثقفي الضباط العرب أيضاً . فأخذوا بدورهم يفكرون بواجبهم نحو وطنهم وانتهوا الى تأليف « جمعية العهد » عام ١٩١٣ وهي جمعية سرية كان من خيرة رجالها عزيز علي المصري ، وياسين الهاشمي ، ونوري السعيد ، ومولود مخلص ، ومحمد اسماعيل الطباخ ، وسليم الجزائري ، وعلي النشاشيبي الخ . . . وسأذكر بعد قليل كيف اتصلت جمعية الفتـاة بهذه الجمعية . وكان عزيز علي يرى ضرورة لقلب ادارة الدولة العثمانية لتدار كولايات متحدة لكل منها برلمانها ولها برلمان اتحادي في الاستانة حتى يمكن انقاذها من الانقراض .

مؤتمر باريس :

ثم جاء مؤتمر باريس كأحسن وأفضل فرصة للدعاية الى الاهداف التي تستشرفها « جمعية الفتاة » . وقد كلفت الجمعية اخواننا السادة : عوني عبد الهادي وجميل مردم بك ومحمد محمصاني وعبد الغني العريسي بمهمة السعي لعقد مؤتمر في باريس غايته تحقيق أهدافها ، فضموا إليهم السادة : ندره المطران ، شكري غانم ، شارل دباس ، جميل معلوف ، حتى يشمل المؤتمر المسلمين والمسيحيين معاً ، وكلف دباس والعريسي ومردم بأمانة سر المؤتمر . وبذلك تأسست لجنة (مؤتمر باريس) في أوائل نيسان ١٩١٣ . فاتصل أعضاء هذه اللجنة فوراً بحزب اللامركزية في مصر

وبكل من آنسوا فيهم امكان التعاون معهم . وكان حزب اللامركزية يضم السادة : رفيق العظم ، رشيد رضا ، شبلي الشميل ، اسكندر عمون ، حقي العظم ، محب الدين الخطيب الخ . . . وهدفه أن تحصل البلدان العربية وهي جزء من الدولة العثمانية ، على شكل النظام الاداري اللامركزي ، كيما تتمكن من استصلاح شؤونها ومواكبة سير المدنية . وكان للحزب مكانته الكبرى بالنظر لمكانة أعضائه وصلتهم بالصحافة المصرية . وكانت الغاية من اتصالنا بهذا الحزب اللامركزي تعميم الحركة العربية ونشر فكرتها ، كما أن لجنة مؤتمر باريس اتصلت بالجمعية الاصلاحية في بيروت وكانت جمعية الفتاة متصلة بها بواسطة أعضائها الموجودين في بيروت .

وقد تأسست الجمعية الاصلاحية في بيروت عقب هزيمة الدولة العثمانية في الحرب البلقانية في خريف سنة ١٩١٢ وترديد الاندية الاوربية تقسيمها لمناطق نفوذ . وخشي العرب مغبة ذلك فتنادى مفكرو بيروت في شهر كانون أول ١٩١٢ للعمل على درء الخطر عن بلادهم ، وكان والي الولاية أدهم بك سياسياً معتدلاً عينته حكومة الاستانة الائتلافية التي يرأسها كامل باشا ، فاستجاب لطلباتهم ، فاجتمع مندوبو بيروت في دار البلدية وقرروا طلب تطبيق اللامركزية في ادارة البلاد ، وأن يكون للولاية مجلس عمومي يشرف على الادارة المحلية ، وله حق استيضاح الوالي وطلب عزله من حكومة الاستانة المركزية ، وأن تكون اللغة العربية رسمية كالتركية في البلاد العربية ، ويستعان في الامور الفنية بمستشارين أجانب تعينهم الحكومة المركزية ، فلم تمانع حكومة الاستانة في ذلك ، إلا أن اغتيال الاتحاديين لوزير الحربية ناظم باشا واقالة كامل باشا من

الحكم في ٢٣ كانون الثاني ، واستلام أنور باشا وزارة الحربية ، وجمال باشا البحرية غيّر الوضع ، فعزل الوالي وعين مكانه حازم بك ، فحل الجمعية الاصلاحية في شهر مارس . وقد احتجت بيروت وظهرت صحفها بيضاء مجللة بالسواد ، ولم يتوقف نضال رجال الإصلاح إلا بعد اتفاق الاتحاديين مع المؤتمرين في باريس .

وانعقد مؤتمر باريس في ١٨ حزيران ١٩١٣ مؤلفاً من السادة : عبد الحميد الزهراوي رئيساً ومندوباً عن حزب اللامركزية في مصر مع زميله اسكندر عمون ، وأحمد مختار بيهم ، وسليم علي سلوم ، والدكتور أيوب ثابت وأحمد حسن طبارة ، عن الجمعية الاصلاحية في بيروت . وتوفيق السويدي وسليمان عنبر عن العراق ، ومحمد حيدر وابراهيم حيدر عن بعلبك ، وعبد الكريم الخليل عن جالية الاستانة ، وعباس بجاني عن المهاجرين السوريين في أميركا الجنوبية ، ونجيب دياب ونعوم مكرزل والياس مقصود عن المهاجرين السوريين في الولايات المتحدة ، وندرة مطران وجميل مردم بك وشكري غانم وعوني عبد الهادي وعبد الغني العريسي وشارل دباس وخير الله خير الله ومحمد محمصاني عن الجالية العربية في باريس .

وقد أقرّ هذا المؤتمر المقررات الآتية :

١ ـ ان الاصلاحات الحقيقية واجبة وضرورية للمملكة العثمانية فيجب أن تنفذ بوجه السرعة .

٢ ـ من المسلم به أن يكون تمتع العرب بحقوقهم السياسية مضموناً وذلك بأن يشتركوا في الادارة المركزية للمملكة اشتراكاً فعلياً .

٣ — يجب أن تنشأ في كل ولاية عربية ادارة لامركزية تنظر في حاجاتها ومتطلباتها للرقي .

٤ — كانت ولاية بيروت قدمت مطالبها بلائحة خاصة صودق عليها يوم ٣١ كانون الاول ١٩١٣ باجماع الآراء وهي قائمة على مبدأين أساسيين وهما توسيع سلطة المجالس العمومية وتعيين الدولة العثمانية لمستشارين أجانب كموظفين لدى الحكومة ، فالمؤتمر يطلب تنفيذ وتطبيق هذين المطلبين .

٥ — اللغة العربية يجب أن تكون معتبرة في مجلس النواب العثماني ، ويجب أن يقرر هذا المجلس كون اللغة العربية لغة رسمية في الولايات العربية .

٦ — تكون الخدمة العسكرية محلية في الولايات العربية إلا في الظروف والاحيان التي تدعو الى الاستثناء الاقصى .

٧ — يتمنى المؤتمر من الحكومة السنية العثمانية أن تكفل لمتصرفية لبنان وسائل ماليتها .

٨ — يصادق المؤتمر ويظهر ميله لمطالب الارمن العثمانيين القائمة على أساس اللامركزية ويرسل لهم تحياته بواسطة مندوبيهم ويحيي العراق .

٩ — يجري تبليغ هذه القرارات للحكومة العثمانية .

١٠ — وتبلغ هذه القرارات أيضاً للحكومات الاوربية ، ويشكر المؤتمر الحكومة الفرنسية شكراً جزيلاً لترحابها الكريم بضيوفها .

ملحق لهذه القرارات

١ — اذا لم تنفذ القرارات التي صادق عليها هذا المؤتمر فالاعضاء المنتخبون في لجان الاصلاح العربية يمتنعون عن قبول أي منصب كان

في الحكومة العثمانية إلا بموافقة خاصة من الجمعيات التي ينتمون إليها .

٢ ــ تكون القرارات برنامجاً سياسياً للعرب العثمانيين ولا يمكن مساعدة أي مرشح في الانتخابات النيابية إلا اذا تعهد من قبل بتأييد هذا البرنامج وتنفيذه .

٣ ــ المؤتمر يشكر مهاجري العرب على وطنيتهم في مؤازرتهم له .

وفي يوم ٣٠ حزيران زار وفد مؤلف من السيد عبد الحميد الزهراوي رئيس المؤتمر وشكري غانم نائب الرئيس واسكندر عمون وسليم علي سلام والشيخ أحمد طبارة وأحمد مختار بيهم وخليل زينية ، قصر السفارة العثمانية في باريس ، فقابل الوفد السفير وسلمه نسخة من قرارات المؤتمر مع الكتاب الآتي :

« انفاذاً للقرار الصادر من المؤتمر العربي في ٢٣ حزيران ١٩١٣ نتشرف بأن نرسل لدولتكم مع كتابنا هذا نسخة من القرارات التي صادق عليها المؤتمر راجين أن تتفضلوا باطلاع الحكومة العثمانية عليها واقبلوا فائق احترامنا » .

كما زار الوفد المسيو بيشون وزير الخارجية الفرنسية لشكره على ضيافة فرنسا التي انعقد المؤتمر في عاصمتها . وفي أثناء الحديث أفهم المسيو بيشون ان الاصلاح المطلوب ليس عملاً عدائياً ضد الدولة العثمانية بل هو لغاية نبيلة ترمي الى اصلاح شؤون البلاد العربية والدولة العثمانية التي تشكل تلك البلاد جزءاً كبيراً منها .

وبذلك لم يعد مجال لمن لهم ميول لا تتفق ومبادئنا الوطنية من الاستفادة من انعقاد هذا المؤتمر .

وبينما كان مؤتمر باريس منعقداً سعى محمد باشا العظم وعبد الرحمن باشا اليوسف بوصفهما من ذوات بلادهما، مدعيين بأنه يجب أن يكون لهما المقام الاول في شؤونها ـ لتأليف حزب في دمشق باسم حزب الاصلاح لمناوأة مؤتمر باريس وليتقربا بتأسيسه من الدولة العثمانية تأميناً لمنافعهما على حساب الشعب وانضم إليهم الامير شكيب أرسلان والدكتور حسن الاسير والشيخ أسعد الشقيري وقصدوا الاستانة وزاد عددهم بأن انضم اليهم الشريف علي حيدر وأخوه جعفر والشيخ عبد العزيز الشاويش من أقطاب الحزب الوطني المصري الذي كان يعمل لمقاومة الانكليز ويسعى لتأمين مساعدة الدولة العثمانية لحزبه والسيد عبد العزيز الثعالبي من وطني تونس والشيخ سليمان الباروني من وجهاء الوطنيين المجاهدين في طرابلس الغرب وقد نزح عنها بعد الاحتلال الايطالي ويوسف شتوان نائب برقة السابق . وبذلك قويا دعاية القائلين من الاتراك بأن مؤتمر باريس يعمل بوحي الدول الاجنبية .

الحكومة العثمانية وموقفها من العرب بعد المؤتمر :

وعقب نشر قرارات مؤتمر باريس التي ترمي الى اصلاح أساسي في البلاد العربية ، أرسلت الحكومة التركية الى باريس مدحت شكري بك للاتفاق مع أعضاء مؤتمر باريس وتحديد مطالبهم على أساس يتفق مع وجهات نظر الحكومة العثمانية . وبعد جهد جهيد تم الاتفاق بين الفريقين على الشروط الآتية :

١ ـ يكون التعليم العالي فقط باللغة التركية وما عداه فيكون باللغة العربية في جميع البلاد العربية .

٢ ـ يجب على جميع الموظفين في البلاد العربية باستثناء الولاة أن يعرفوا اللغة العربية ويجري تعيينهم من قبل السلطات المحلية ما عدا القضاة الشرعيين الذين تعينهم العاصمة .

٣ ـ توسع سلطات الادارة المحلية فتشمل النافعة والتعليم والاوقاف الخ...

٤ ـ يكون في الوزارة مبدئياً ثلاثة وزراء من أبناء البلاد العربية وتضم وظائف الدولة الكبرى عدداً كافياً منهم يتناسب مع عدد العرب في الدولة .

٥ ـ لما كان أعضاء مجلس الاعيان يعينون تعييناً من قبل السلطان وجب تعيين اثنين من العرب عن كل ولاية عربية .

وقد أعلنت الحكومة العثمانية عزمها على تحقيق تلك الاصلاحات ، إلا أنها لم تحقق ما تم الاتفاق عليه ، بل رأت أن تنفذ خطة التقارب التركي ـ العربي بالاكتفاء بتعيين كل من السادة : عبد الحميد الزهراوي ومحمد بيهم ويوسف سرسق وعبد الرحمن اليوسف ومحي الدين النقيب وأحمد كيخيا في مجلس الاعيان . وعينت السادة شكري العسلي وعبد الوهاب الانكليزي وناجي السويدي وأمين التميمي في مناصب رفيعة . ثم أسست مدرستين ثانويتين عربيتين الواحدة في دمشق والثانية في بيروت وعهدت الى كل من السيدين رفيق التميمي ورستم حيدر بأن يدير كل واحد منهما مدرسة ، وصار في مقدور الحاكم في البلاد العربية سماع المرافعات باللغة العربية . وقد خيل للحكومة التركية أنها ترضي أبناء البلاد العربية بهذه الحلول المحدودة ، ولكن جمعيتنا رأت في هذه الحلول مسائل ثانوية بالنظر لمطالبنا الاولية ، اذ ان تعيين بعض ارباب النفوذ من العرب في مجلس الاعيان وتعيين بعض الموظفين في وظائف مرموقة

ليس هو ما ينشده العرب ، وانما ينشدون حياة حرة تكفل لبلادهم تقدمها وازدهارها ؛ لذلك اتخذت جمعيتنا قراراً بأن التدابير التي اتخذتها الحكومة التركية يجب أن لا تشغلنا عن مطالبنا الرئيسية ، وعلى العرب إظهار شعورهم الحقيقي بعدم قبولهم لكل حل لا يتفق مع مقررات مؤتمر باريس . فالزهراوي لم يكن على علم بوجود جمعية الفتاة وخططها فلم يُدخلها في حسابه وان خطته المعتدلة هذه واتجاهه لماشاة سياسة الحكومة الاتحادية لم تنجه من أن يحكم عليه بالاعدام في المجلس العرفي في عاليه .

وعلى الاثر أبلغت الجمعية القرار الآنف الذكر لعضويها في الاستانة سيف الدين الخطيب ورفيق رزق سلوم وهما قوام المنتدى الادبي في الاستانة ، ليعملا على تحقيق ما قرره المؤتمر .

ولما كان الشعور القومي العربي آخذاً بالانتشار والامتداد ، فقد لاقى قرارنا تأييداً وتشجيعاً من أحرار العرب . فاتصل شبان العرب في الاستانة بالسيد عبد الحميد الزهراوي باعتباره أبرز شخصية عربية في مجلس الاعيان وأبلغوه عدم قبول العرب لتلك الحلول ، وأبرقتْ له من دمشق باسم شبابها الوطني راجياً منه التمسك بمقررات مؤتمر باريس كما اتصلوا هم بعبد الكريم الخليل رئيس المنتدى الادبي الذي كان همزة الوصل بين الاتحاديين وأعضاء مؤتمر باريس للتقريب بين وجهتي نظر العرب والترك ، وأبلغوه عدم قبول العرب للحلول التركية ، فعمل عبد الكريم الخليل على تهدئة الخواطر كما ان السيد عبد الحميد الزهراوي قال انه على استعداد تام للاستقالة فيما اذا كان العرب يرون في ذلك فائدة ، ولما كان السيد عبد الحميد الزهراوي من أعضاء حزب اللامركزية فقد كان عليه أن يتصل بحزبه ليأخذ رأيه فيما يجب عليه أن يعمله . فأقره على خطته .

وهذه صورة ما كتبه الزهراوي الى صديقه الاستاذ السيد رشيد رضا صاحب مجلة المنار الاسلامية وأحد أركان حزب اللامركزية في مصر وضمنه كل آرائه السياسية وأعرب فيه عن ثقته التامة بالاتحاديين ووجوب الاخلاص لهم :

« كنت قد فصلت لكم إذ جئت باريس كيف وجدت أمر مؤسسي فكرة المؤتمر فوضى وكيف تعبنا في ستر الامر وايجاد المؤتمر ، وبعد انقضاء المؤتمر تفرق الجمع الذي لفق تلفيقاً ، ثم بعد قليل نفد صبر البيروتيين فذهبوا الى بلادهم عن طريق استانبول ، وبقيت يا عزيزي وحدي أمثل الفكرة ، وبقي خليل زينية وأيوب ثابت وهما لم يرشفا من مشرب الجامعة العربية ولا قطرة واحدة ، حتى ولا من الجامعة السورية ، وانما همهما بيروت وحدها لا شريك لها .

« لو عجلت تلك الايام ورجعت على الفور الى مصر لبقيت المسألة مقطوعة بتراء ، فيكثر استهزاء الأفراد والجماعات والاقوام بأشخاصنا وبجماعتنا وقومنا ، لكن الله عز وجل سلمني من هذا ، وقدرني على الصبر هناك ممثلا للفكرة مدة خمسة أشهر - وما هي بالقليلة ولا الكثيرة - ونعمت المدة كانت ، وفقت فيها كثيراً وعظم فيها اختباري لاوربا ، وما أحوجنا الى مثل هذا الاختبار .

« جئت بعد ذلك الى استانبول لأرى جدّ فيها لأن المعرفة بالقديم لا تغني ، والمعرفة عن بعد كثير من مآخذها غير صحيح ، وما أضر العلم المبني على مأخذ غير صحيح .

« بعد وصولي بقليل عرفت كثيراً من الاحوال الحاضرة هنا ، وبعد مدة أخرى عرفت أكثر وكدت أظنني اكتفيت وأحطت كل الاحاطة ،

ولكن الآن تبين لي انه لولا الصبر والتأني اللذان مكنني الفاطر سبحانه منهما لرجعت بمعرفة غير كافية ، ولذلك أصبحت لا أجسر أن أقول تمت احاطتي وانما أقول أصبح يجوز لي أن أفصل بشيء من الطمأنينة ، وان تأخير هذا التفصيل والشرح كان أنفع وجاء اليوم في وقته .

والشرح هنا يتعلق بثلاثة مواضيع « أو موضوعات » :

١ — اوروبا العثمانية .

٢ — الاتحاديون وغيرهم .

٣ — رجال الاصلاح الحقيقي وابناء العرب هنا وفي الجهات الاخرى .

واني أبدأ بالاول لقصر البحث فيه ، واشفع بالثاني ، وأخرت الثالث لطوله وطوّلته لتوقف التفاهم وكثير من أعمالنا على الاحاطة بهذه الحقائق المشروحة فيه .

اوروبا العثمانية : لقد كشفت اوروبا آخر ستار من ستر السياسة في المسألة العثمانية وقررت التدخل في سائر شؤونها وانما لا يزالون مختلفين بعض الاختلاف في كيفية هذا التدخل وكميته وصورة توزيعه فيما بينهم ، وليس في اوروبا اليوم موضوع مقرب على هذا الموضوع ، ولا تمضي ثلاثة أشهر حتى تمخض الليالي فتلد ذلك الشكل الجديد الذي يتفقون عليه ، والذي أظنه ان الدولة ستبقى معه وتعيش أحسن مما كانت عائشة لأن بعض التدخل طب ، ولست مغالياً اذا ذهبت الى أن الموت أقرب اليها مع عدم التدخل البتة منه مع شيء من ذلك ، فانا اذا قلنا بعدم التدخل البتة فحينئذ تخلق كل واحدة سبباً لانشاب الحرب عليها فتؤخذ بداء السكتة دفعة واحدة .

الاتحاديون وغيرهم :

الاتحاديون معروفون فمن غيرهم ؟

لا يوجد الآن حزب سياسي آخر الا أن يكون خفياً ولم اشتمّ شيئاً من هذا ، وحينئذ لا تجد مقابل الاتحاديين إلا جماعات الاجناس كجماعات الروم وجماعات الارمن وجماعات العرب .

نعرف أن للروم جماعات وللارمن جماعات فهل للعرب مثل هذا ؟ هلمّ ننظر :

الروم كلهم جماعة واحدة يرأسهم البطرك ولكيلا يستبد ربطوه بمجلسين روحاني وجسماني ، وهكذا الارمن ، أما العرب فليس لهم مثل ذلك ، وثانياً : الروم والارمن لهم جمعيات سياسية منظمة مرتبة غنية وليس للعرب مثل ذلك ، اللهم إلا جماعتنا في مصر وجماعتنا في بيروت ، اذن غير الاتحاديين هم الروم والارمن وجماعتنا في مصر وجماعتنا في بيروت .

فالاتحاديون هم أولياء الامر مباشرة ، وهم اليوم يتسلحون بعزائم شديدة ماضية وناوون نية قاطعة أن يجددوا شباب الدولة بقدر ما تسمح الظروف ، ويشتهون أن يخلص اليهم العرب ويساعدهم فضلاؤهم في هذا السبيل ، ويعترفون بخطيئاتهم الماضية ويودون أن لا يعودوا الى مثلها بقدر الامكان ، أنا مؤمن بنياتهم وأقوالهم هذه كل الايمان لادلة كثيرة ظهرت لي ، ولكنني مرتاب من جهة قابليتهم لتطبيق العمل على النية ، وعلى كل حال أرى أن عدم تركهم وحدهم خير من تركهم ، ويرجى به أن تقوى قابليتهم فان شئتم أن تخطئوني بتحسين الظن الى هذه الدرجة ـ كما أشرتم الى ذلك في كتاب . . . ـ فاني لا اخطئكم بالتخطئة

لاني اجل رأيكم أكثر من رأيي ، وانما أرجو أن يكون في خطئي شيء من البركة ، أرجو ذلك من مصداق قوله سبحانه : « فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » .

هذا وصف الاتحاديين بما هم عليه اليوم . أما الروم فقد قلوا في المملكة وقصاراهم أن يحافظوا على ما بيدهم من امتيازات البطركية وحق المبعوثية وسيقل الالتفات اليهم ، وأما الارمن فهم آلة بيد روسية وسيتم لهم في المبعوثية حظ قريب مما يأملون . وأما نحن معشر العرب فان اخاكم الآن يعتبر ممثل جماعتنا ، وقد فصلت ما تم على يدي في الكتاب الذي ارسلته الى الاخ الرفيق في البريد الماضي وهنا سأزيد .

رجال الاصلاح الحقيقي وابناء العرب هنا وفي الجهات الاخرى :

ما أظنكم ـ أستغفر الله ـ ما أعتقد انكم في حاجة الى بيان ان رجال الاصلاح الحقيقيين غير كثيرين ، وما أعتقد انكم تعرفون منهم أكثر من ثلاثة أو أربعة ، وأعني برجال الاصلاح الحقيقيين من جمعوا في موضوع الاصلاح بين صدق النظر وصدق العمل ، من كثرت تجاربهم ومرنت رويتهم وصحت عزيمتهم وشهد لهم ماضيهم ، من كثر اختلاطهم بمختلف الطبقات ، ووقوفهم على متباين النزعات ، وصبرهم على متنوع العقبات ، من امتزجت روحهم بحب النظام الذي يحبه الله وكره الفساد الذي يكرهه الله وامتزجت سيرتهم باخبار معامع الجهاد الاصلاحي ومن اشربت أفكارهم فهم معنى الرابطة وأفئدتهم محبتها وتعشقها فنحن اقلة هؤلاء واقعون أمام حاجتين عظيمتين : الحاجة الى تكثيرهم ، والحاجة الى اشتغال هؤلاء مع من ليس من جنسهم وطبيعتهم ، ثم نحن مع

قلتهم وصعوبة اشتغالهم مع غيرهم أمام مشكلين عظيمين : الاول السبات الذي فيه الامة ، والثاني الجشع الذي اوروبا فيه .

اترك تفصيل هذا الاجمال لحكمتكم وحسبنا هي في كل موضوع ، وآخذ الآن بحكاية حال أبناء العرب هنا لانكم علقتم الامل على صنف منهم ههنا .

العرب هنا ثلاثة أصناف : متاجرون ومتعلمون ومأمورون ، فالصنف الاول لا في العير ولا في النفير من جهة السياسة والاصلاح ثم هو في غاية القلة ، والصنف الثاني اولاد في ناشئة العمر لا يليقون للسياسة ولا تليق لهم ، والصنف الثالث أربعة أقسام : الضباط والمأمورون المنصوبون في بعض الوظائف والمأمورون المتقاعدون المقيمون هنا والمأمورون المعزولون الذين جاءوا لينصبوا .

فاما الضباط فلا تجربة لهم في هـذه المسالك البتة والاولى عدم دخولهم فيها ، فان هذه التجربة القليلة التي سأقصها الآن زهدتني في كل سياسة يشترك فيها الضباط منا ، ذلك ان (. . .) ناقم اليوم على الحكومة فيشتهي لاجل هذا زعزعة الدولة ونسفها نسفاً ، وهو لاجل ذلك ناقم على ائتلافنا مع الحكومة ومضاد له لانه على زعمه يؤخر حركات العرب ، ولا أدري ما هي حركات العرب وأين تسير وأين ترسي ، وهذا يجتهد أن يجمع حوله بعض اولئك الاولاد وينفرهم منا ومن صنيعنا ولكن لا ينجح بحوله تعالى ، ومن جهة أخرى فهو يحافظ على ظاهر الصداقة بيننا ، وقد أردت اختباره فرأيته يجنح الى مصالحة أولياء الامور وحينئذ يرضى عن كل شيء ، فانظر يا عزيزي الى الذين يعدون أنفسهم في مصاف رجالنا .

وأما المأمورون المتقاعدون فمثلهم كمثل العجائز لا يرضيهن شيء ولا يستطعن عمل شيء .

وأما المأمورون المنصوبون فلا همّ لهم إلا حفظ المنصب .

وأما طلاب المأموريات فجياع مساكين لا يفهمون من الاصلاح إلا المأمورية ، إن جاءت فقد جاء الاصلاح وان لم تجيء فقد منع الاصلاح .

ومن هذا التفصيل يظهر لك أن العاصمة في حالتها الحاضرة ليس فيها عرب تستطيع جماعتنا أن تعتمد على أحد منهم ، أو أن تعمل صلة ورابطة مع أحد منهم ، اللهم إلا أن يكون « فلان وفلان » وكل ما أخبركم عنه « فلان » وهو سراب بقيعة جاءه أخوكم الظمآن فلم يجده شيئاً . وبعض اولئك الاولاد يحسدون الشاب عبد الكريم ، وبعضهم لم يتمكن من انالتهم ارباً لابيهم أو أخيهم أو ابن عمهم مثلا ، ومن هنا أكثروا عليه من قيل وقال وكله هواءٌ وهواء .

وأما العرب في الجهات الاخرى فهم أهل سورية وأهل العراق وأهل الجزيرة الخلّص . فالسوريون والعراقيون حضرٌ قد ألفوا الذل وتعودوا الاستجداء والاستكانة ، لا يفهمون ولا يريدون أن يفهموا ، لا يساعدون ولا ينوون أن يساعدوا ، لا يهبّون ولا يروق لهم أن يوقظوا . وأما أهل الجزيرة الخلص فهم الاهل وقّاهم الله الخير وشد سواعدهم ، اولئك يجب وصل الرابطة بهم من غير أن نقطعها مع الحضر على قلة غنائهم .

قد فهمت من كتاب الاخ « فلان » كثيراً واستنبطت كثيراً ، ولو كان في وسع البشر أن تتوزع أرواحهم على أمكنة متعددة لكانت

روحي أوزاعاً على اليمن وعسير والحجاز ونجد وحضرموت ولكن نظرية الصوفية في هذا الباب لا يمكن تطبيقها .

انظر يا عزيزي أنا لازم لهناك كما تشير ولازم الى هنا ، فان هنا محل عمل ليس بقليل ، فاني أرجو أن يكثر بوجودي هنا عدد رجالنا الذين يعتمد عليهم ، فان رضيت عن هذا الرأي فعليك عملان معجلان وعمل يمشي مع الزمان وأنا معك فيه على بعد المقر ، فالاول من المعجلين تبشيري بتلغراف عن رضائك خاصة وهو الأهم ، ورضاء الرفاق عامة وهو مهم . والثاني منهما حملك الرفاق على تقديم تلغراف للصدارة يحبذون فيه هذا التعيين ويجعلونه دليل إقدامهم على تنفيذ الرغائب كلها بعبارات رقيقة تشويقية . أما الثالث فهو ما بيننا من أمر ايجاد الرجال الذين يعتمد عليهم وتوزيعهم بقدر ما يساعد الزمان والمكان لبث الاصلاح العلمي والعملي . . .

وان لم ترض عن هذا الرأي فاكتب إليّ مفصلا ومبيناً من كل جهة من جهات الموضوع ، وأنا من عهدتَ من يدع رأيه أسيراً الى رأي وليه .

هذه هي الخلاصة المفصلة واليك خلاصة الخلاصة ، وهي : ان اليأس لا يجوز في حال من الاحوال ، ولكن الامة في كل أطرافها ليست بحالة يعتمد عليها في شيء وانه مع هذا لا يجوز اهمالها ، وكذا لا يجوز اهمال من بيدهم أمر المملكة وتركهم وحدهم ، وانه لا بد لنا ههنا من رجال ، وان أكثر ما يتصرف به الرواة غير صحيح ، واني منتظر أمركم بسرعة ، وان شوقي عظيم . . . »

ومع ذلك لم ينج الزهراوي من طغيان جمال باشا فأمر باعدامه رغم أنه عرّض نفسه لنقمة أمته بحسن نيته .

وبينما كانت المخابرات تجري بين الهيئات العربية لاتخاذ موقف حازم حيال الحلول التركية ، كان السيد عبد الكريم الخليل رئيس المنتدى الادبي ومن الرجال الذين طلبوا الانضمام الى جمعيتنا فرفضنا قبوله نظراً لنزعته في حب الظهور ، يستمر محاولاً تهدئة الخواطر بحجة ان البلاد بحاجة الى الاستقرار ، وليس في الامكان تحقيق ذلك إلا بالعدول عن الشغب ، إذ يحمل الشغب الحكومة العثمانية على عدم تنفيذ مقررات مؤتمر باريس ألبتة ، وما قامت به الحكومة العثمانية في الوقت الحاضر ليس إلا مقدمة للاصلاح المنشود .

وحيال هذا الامر لم نجد مندوحة عن العمل ، وبخاصة بعد أن أصبحت الحلول التي أقرتها الحكومة العثمانية أمراً واقعاً ، فرحنا نواصل الجهود لتحقيق ما يمكن من مطالبنا .

والغريب ان الدولة العثمانية كانت كلما ازدادت قوة بعد خروجها منهوكة القوى من الحروب البلقانية ، كلما نكصت على أعقابها تراجعاً في تنفيذ مطالب العرب وتعسفاً في أخذهم بالشدة .

وعدتُ الى دمشق قبيل انعقاد مؤتمر باريس كما عاد معظم أعضاء هيئة جمعية الفتاة المركزية في باريس الى بيروت ، فانتقل مركز الجمعية الى المدينة المذكورة .

وفي هذه الاثناء طفقنا نضم كل من نأنس فيه الميول الخيرة للمساهمة معنا في جهادنا . فدخل في الجمعية كل من فخري البارودي وفائز الغصين

والامير طاهر الجزائري والشيخ كامل القصاب . وقد حلّفت القسَم فخري البارودي بحضور المرحوم الامير عارف الشهابي .

وهكذا أصبحت بيروت مركز العمل ؛ وكان على السيد محمد المحمصاني وأخيه محمود أن يتصلا بالجمعية اللامركزية في مصر توثيقاً للصلة بيننا وبينها . وبذلك أصبحت قضيتنا تسير سيراً منظماً متّسقاً .

وفي هذه الاثناء افرج عن عزيز علي المصري فعاد من الاستانة الى مصر بعد أن اعتقل بسبب نشاطه القومي بين الضباط العرب رفاقه في السلاح ، وكاد ينفذ فيه حكم الاعدام لولا تدخل رجالات العرب وأعضاء حزب اللامركزية في مصر الذين توسطوا لدى السلطات البريطانية والمصرية العليا لاجل الافراج عنه ؛ وكانت نفسه مفعمة بالغضب والحقد على حكومة الاستانة لما تحيفه من الظلم وهو الذي طالما اختص الجيش العثماني بخدمات مشكورة طوال أعوام مديدة . وما أن حل بمصر حتى اتصل بحقي العظم في القاهرة وقرر الاثنان اذاعة منشورات شديدة ضد الحكومة العثمانية ودعوة العرب للاستقلال باسم ما سماه « بالجمعية الثورية العربية » ، وكانا يوزعان هذه المنشورات في جميع البلاد العربية في الدولة العثمانية ، ثم انفرد حقي العظم أحد أعضاء حزب اللامركزية في ذلك وكان يرسل كثيراً من المناشير دون أن يطلع الحزب على فحواها بصورة رسمية بل يكتفي أحياناً باطلاع زملائه في الحزب عليها ومن ثم يرسلها الى السيد محمود المحمصاني عن طريق البريد الافرنسي . وقد شاءت المقادير أن يقع قسم من هذه المناشير في يد السلطة العثمانية فاعتبرت هذه المناشير صادرة عن حزب اللامركزية واتخذت منها أعظم وثيقة للحكم على أحرار العرب في

(المحكمة العسكرية العرفية بعاليه) فيما بعـــد بحجة انتسابهم الى حزب اللامركزية .

الحكومة العثمانية وامارة الحجاز :

وتنفيذاً للخطة التي وضعتها الحكومة العثمانية بسلوك سياسة الشدة مع العرب قبيل اعلان الحرب العامة الاولى ، فقد أرسلت وهيب بك قائداً الى الحجاز بعد أن زودته بتعليمات صريحة لاضعاف سلطة شريف مكة (الحسين بن علي) ، ثم نزع السلطة من يده (كما سيأتي بيانه) ولتحقيق هذه السياسة زادت من قوة فرقة الحجاز ، كما زادت من تعزيز مركزها في ولاية البصرة وكان مركزها فيها ضعيفاً . وما هو إلا القليل حتى ظهرت هذه السياسة واضحة ، اذ طفقت الحكومة تخضد شوكة المنفذين العرب في البصرة وعلى رأسهم طالب باشا النقيب ، الذي كان يطالب بالاصلاح في البلاد العربية .

النفير العـــام

او

الحرب العالمية الاولى (اول آب ١٩١٤)

مما لا شك فيه ان تركيا لم تدخل غمار الحرب العظمى (في منتصف تشرين الثاني ١٩١٤) إلا بوحي من ألمانيا وتأثيرها .

إلا أن ثمة سؤالاً يطلب جوابه . وهو هل ترامت تركيا في أحضان ألمانيا دفعة واحدة من غير أن تصطلح على هذه البادرة عدة عوامل أدت إليها ؟ .

والواقع أن العلاقات التركية ـ الالمانية ليست حديثة ، وانما ترجع الى أمد بعيد ، أي الى ما قبل الحرب . فقد كانت تركيا تعلم علم اليقين أن عدوها الحقيقي هو روسيا ، وهذا العدو لا يتورع في بذل قصارى الجهد في سبيل القضاء على الكيان العثماني ، وبحسبه أنه هو الذي استثار الارمن ، وهو الذي يتحين أية فرصة لتحقيق ما ينشده من بسط سلطانه على الدردنيل .

وقد أدركت تركيا هذه الحقيقة التي لا تقبل أي جدال ، وبخاصة عند إبرام الاتفاق بين روسيا وايطاليا في الرابع والعشرين من تشرين الثاني عام ١٩٠٩ ، حيث أطلقت الاولى يد الثانيـة في الاستيلاء على

طرابلس وبرقة كما أطلقت الثانية يد الاولى اذا ما حاولت الاستيلاء على الدردنيل .

فلما أن انقسمت أوروبا قبل الحرب الى معسكرين ، راحت الدولة العثمانية تفكر في أيهما أرجح كفة لصالحها كيما تميل اليه وتنضوي تحت رايته ، وبخاصة انها تحققت من أن الحياد مستحيل .

ولقد تشعبت الآراء في هذه الاثناء واختلفت الاتجاهات ، ولكن الاحداث ما لبثت أن رجّحت فكرة الانضمام الى ألمانيا وحلفائها على فكرة الانضمام الى فرنسة وحلفائها . ونستطيع أن نحدد ذلك ببدء الغزوة الايطالية لطرابلس وبرقة إذ طلبت تركيا من بريطانيا التدخل لتسوية مشكلة الغزوة الايطالية ، فما كان من بريطانيا إلا أن أبدت اعتذارها معربة عن عدم استعدادها لمثل هذه المهمة .

وكان جمال باشا معروفاً بصداقته لفرنسة ، فسافر الى باريس قبيل مقتل الارشيدوق فرنسوافرديناند ، واجتمع هناك الى وزير الخارجية الفرنسية ، وبحث معه الموقف الدولي وهل اذا كانت فرنسا تضمن للدولة العثمانية كيانها اذا ما سارت الى جانبها ، وهي ملتزمة الحياد اذا نشبت الحرب ، فما كان من الوزير الا أن أجاب : « لا سبيل الى الجواب قبل استفتاء حليفتنا روسيا في هذا الشأن » .

ثم أحاله على مدير الشؤون السياسية في وزارة الخارجية الفرنسية وكان جمال باشا في خلال حديثه مع المدير المذكور يحاول غاية جهده أن يقنعه بانضمام تركيا الى صفوف فرنسا لقاء مساعدة الحكومة الفرنسية وحلفائها لتركيا كيما تنهض من كبوتها وتسترد قوتها بعد الوهن الذي

اعترها من جراء الحرب البلقانية ، وتأمن غائلة المطامع الروسية . وكان في جملة ما قال :

« اذا أنتم وقيتمونا عواقب الاخطار التي تهددنا من روسيا ، فاننا نصبح لكم حلفاء أمناء في الشرق . وان جناية سيراجيفو قد تؤدي الى حرب عامة ، فمن المهم البت في ذلك بسرعة » .

ولما عاد جمال باشا الى الاستانة ، حسر لاخوانه عما كان بينه وبين وزير الخارجية الفرنسية ، فكان ذلك من أهم العوامل التي أدت الى انضمام تركيا الى ألمانيا .

وهكذا عقدت معاهدة تحالف سرية ما بين الدولتين التركية والالمانية في الثاني من آب ١٩١٤ .

ومن هذا يتبين انه لم يكن سبب اتفاق تركيا مع ألمانيا سوى خشية الدولة العثمانية من مطامع روسيا التوسعية ، ولا سيما نزوعها الدائب الى الاستحواذ على الاستانة والدردنيل .

ولما وقعت معركة المارن الشهيرة علنت الحقيقة ، وتبدى بما لا يقبل الشك أن مزاعم القواد الالمان لاقطاب تركيا بأن نصر ألمانيا محقق ، غير صحيح . ومع ذلك فقد بذلت ألمانيا غاية الجهد لحمل تركيا على تنفيذ الاتفاقية السرية بينهما التي تقضي عليها بالنزول الى ميدان الحرب العظمى الى جانبها ، أملاً بأن تخفف الضغط الموجه اليها في الساحات الغربية .

وفي هذا الظرف العصيب ، أي في منتصف شهر تشرين الثاني عام ١٩١٤ دخلت تركيا غمار الحرب العظمى .

وعلى الاثر استقال سليم البستاني الوزير العربي في الوزارة من وزارة الزراعة والتجارة لانه كان من المعارضين في دخول الدولة العثمانية الحرب .

وهنا لا بد من التساؤل عما اذا كان خليقاً بتركيا أن تدخل الحرب العظمى قبل أن تدرس الموقف درساً دقيقاً وبخاصة وضع الجيش الالماني ومقدار قوته على مجابهة الاخطار التي تعترضه .

ومن البدَهي ان دراسة الموقف من كافة وجوهه كان من أوجب الواجبات على تركيا قبل الانزلاق في الحرب ، ولكنها لم تفعل . ولم ترجع عن رأيها سيما بعد أن عاينت توقف الزحف الالماني عقب معركة المارن .

نعم كان الجيش الالماني غاية في النظام والاستعداد ، وقوة البأس والشكيمة ، إلا أنه كان يعوزه التحرر من سلطة غليوم الثاني المستبد برأيه والذي طالما تدخّل في شؤون الجيش تدخلا مباشراً دون أن يدع للقواد القديرين الخبراء رأيهم وحريتهم في العمل ، فأفسد بذلك على الدولة قوة جيشها وفوّت عليها ظفرها . ومن الممكن اتخاذ صورة واضحة عن استبداد الامبراطور الالماني ، بل غطرسته التي بلغت غايتها من الغرور ، من تصريحه عقب معارضة أقطاب ألمانيا العسكريين في تعيين « مولتكه الصغير » رئيساً لاركان حرب الجيش الالماني ، إذ قال في تأبهه المعروف :

« أنا الرئيس لاركان حرب الجيش في الحرب ، أما في السلم فحسبي منه الاسم » .

وان مثل هذا القول يصدر عن رجل مغرور بنفسه ، لا شك في أنه يشل يد القواد الخبيرين ويصرفهم عن حمل عبء مقاليد الامور الجليلة ؛ ثم هو بالتالي يعقب أسوأ العواقب . وقد جزم الخبراء العسكريون في أن غرور الامبراطور واستبداده برأيه هما علة العلل في

عدم نجاح ألمـانيا بتوجيه الضربة القاصمة الحاسمة الى فرنسا واحتلال باريس أسرع ما يكون .

تلك هي حقيقة وضع الجيش الالماني . فـكان على تركيا ألا تخفى عليها هذه الحقيقة بعد الدراسة الواسعة العميقة . وكان عليهـا كذلك أن لا تزج بنفسها في الحرب العظمى قبل سبر غور قوتها وقوة حليفتها . نعم ان الجيش التركي كان قد بلغ درجة حسنة من حيث القوة والتنظيم بفضل الجهود العظمى التي بذلها أنور باشا وزملاؤه في انقاذ هذا الجيش من استبداد السلطان عبد الحميد ، هذا الاستبداد الذي امتد زهـاء ثلاثين عاماً والذي أصبحت الدولة العثمانية بسببه صورة كالحـة للتأخر والاضطراب ؛ ثم ما تلا ذلك من انقسام في الرأي ، لتدخل الجيش بالشؤون السياسية بعد ثورة الجيش في مكدونيا ودخوله استانبول واعلان الدستور العثماني عام ١٩٠٨ ثم خلعه عبد الحميد حيث أدى هذا التدخل الى خسارة تركيا الحرب البلقانية ، وولاياتها الاوروبية ؛ ولكن البدء بتقوية وتنظيم هذا الجيش يجب ألا يؤخذ مقياساً وحده دون أن تعار أوضاع الجيوش الاخرى الاهمية اللازمة سواء أكانت هذه الجيوش محالفة أو معادية . وهكذا أفضى تدخل الامبراطور غليوم الثاني ، ذلك الرجل الاناني المستبد برأيه ، بشؤون الجيش الى ضياع ألمانيا ؛ كما ان وجود رجل نظير أنور باشا عرف بالحزم وقوة الشكيمة على رأس الجيش التركي ادى الى انقاذ هذا الجيش من وباء الفوضى والاضطراب ، إلا ان رعونة انور وزملائه الاتحاديين وعدم تبصرهم في الامور كانت اكبر عامل في دخول تركيا الحرب وضياع الامبراطورية العثمانية .

جمعية الفتاة في دمشق

كان علينا إثر دخول الدولة العثمانية الحرب العظمى سنة ١٩١٤ وبعد أن أصبح مستقبل بلادنا في خطر أن نفكر في موقفنا ، وندرس الوسيلة الى تحقيق ما نصبو اليه من أهداف وطنية وآمال قومية . وقد كان قائد الجيش التركي في سورية خلال هذه المرحلة الدقيقة زكي باشا الحلبي ، وهو قائد الجيش الرابع الذي عرف بالمقدرة وبعد النظر . فلما قضت الحرب بتجنيد كل قادر على حمل السلاح ، جند الطلاب كضباط احتياط ، الأمر الذي ساعد على جمع خيرة شباب العرب في دمشق ، وبذلك انتقل مركز الجمعية من بيروت الى العاصمة الاموية ، وعند اعلان النفير العام قررت الجمعية الاستنارة برأي الوطنيين السوريين العرب في مصر قبل أن تنقطع طرق المواصلات ، فأوفدت الاستاذ الشيخ كامل القصاب لاستتمام هذه الغاية ، فقام بها . وعند عودته أوقف من قبل جمال باشا الذي تسلم مقدرات البلاد في سوريا وبدأ باظهار نواياه نحو العرب ، إلا أن الشيخ كامل نجا بنفسه لان جمال لم يكن قد بدأ بتطبيق سياسة البطش ، ثم التجأ الى مكة ومنها سافر الى مصر حيث قضى فيها طيلة أيام الحرب العظمى الاولى . ثم انطلقت الجمعية في بث أفكارها القومية العربية بين صفوف الضباط الاحتياط حتى أذكت كوامن مشاعرهم . ولا أزال أذكر هاتيك الاجتماعات التي كنا نعقدها في دارنا ، فيرسل الضباط الطلاب حناجرهم بترتيل الاناشيد العربية الحماسية ، متغنين بالامجاد والمفاخر القومية . وكان بينهم أخونا المرحوم جلال البخاري الذي كان يشنف أسماعنا بصوته العذب مثيراً في نفوسنا بالغ الحماس .

بيد أن هذا كله لم يمنع الجمعية من اصدار قرارها بأن غاية العرب هي الاستقلال حفاظاً على كيان البلاد العربية ، لا عداء الاتراك ، أما اذا كانت البلاد العربية عرضة لخطر الاستعمار الاوروبي فالجمعية تعمل مع أحرار العرب كافة للدفاع عن البلاد العربية جنباً الى جنب مع الأتراك .

ويرجع معظم الفضل في عوننا على العمل الى تلك الحرية التي كنا نستمتع بها في عهد قائد الجيش الرابع زكي باشا الحلبي ؛ ولكن هذا القائد ما لبث أن استبدل بجمال باشا مغادراً سورية الى ألمانيا ممثلاً للجيش التركي لدى الامبراطور غليوم الثاني ، وذلك في ٥ كانون الاول ١٩١٤ وهو اليوم الذي وصل فيه جمال باشا الى سورية .

أما الاسباب التي حدت بالحكومة العثمانية الى نقل زكي باشا القائد الركن المثقف فترجع الى معارضته الشديدة في ارسال حملة الى مصر ، اذ كان يعلم أن هذه الحملة لن يكتب لها التوفيق في مهمتها الشاقة نظراً للعراقيل الكأداء التي ستلاقيها في الصحراء ، وخاصة اذا كانت الحملة حملة جيش عصري . وكان لا بد لهذه الحملة من أن تسلك الطريق عبر صحراء سينا لعدم تمكنها من سلوك الطريق المتاخمة للبحر وهي طريق غزه ـ العريش نظراً لقوة بريطانيا البحرية وسيطرتها على البحر المتوسط . ولما كانت الاستانة خاضعة للنفوذ الالماني ، هذا النفوذ الذي لم يرم من ارسال الحملة العثمانية الى مصر إلا الى مناوأة انكلترا في هذا القطر ، أو على الاقل عرقلة سير السفن في قنال السويس ، فقد نقلت الحكومة التركية زكي باشا من سورية الى المانيا واستبدلته بجمال باشا ناظر البحرية ، قائداً للجيش الرابع .

جمال باشا في سورية

ومنذ اليوم الذي غادر فيه جمال باشا الاستانة الى دمشق طفق يشير بخطبه وشتى تصريحاته ، الى ضرورة تعزيز الصلات بين العرب والترك ، والى حسن نوايا الحكومة العثمانية تلقاء البلدان العربية . وقد وقعت هذه التصريحات وتلك الخطب موقعها الطيب في نفوس العرب . ولذا ما كاد جمال باشا يصل الى دمشق حتى استقبلناه بقلوب ملؤها الحماس ، مأخوذين بمظاهره الودية حيال قضيتنا من ناحية ومخافتنا على بلادنا من ناحية اخرى أن تذهب فريسة الاستعمار الغربي فيما اذا كتب النصر للحلفاء .

وقد جاء في أول خطاب ألقاه في العاصمة الاموية ما جعلنا نركن الى حسن نواياه اذ قال : « أؤكد لكم أن الاماني التركية والاماني العربية لا تتعارضان مطلقاً ، فالترك والعرب ليسوا سوى اخوان في غايتهم الوطنية ، وان هذين الشعبين مقضي عليهما بالفناء في اللحظة التي يتخاذلان فيها » . ولما انتهى من خطابه أنشد الشباب العربي بعض الاناشيد الوطنية الحماسية كنشيد « نحن جند الله شبان البلاد » ، فاستاء جمال باشا من هذه المظاهر العربية وتناسى ما كان قاله في خطابه ؛ ورغم اضطراره الى السفر مع حملة قنال السويس وتوجيه معظم جهوده لانجاح هذه الحملة ، فقد أصدر أمره بحل كتيبة تدريب الضباط العرب ، أي كتيبة ضباط الاحتياط في دمشق .

ولما أن باءت الحملة بالفشل ، ونزل بها ما نزل ، وأصبح مقر قيادة الجيش الرابع في القدس ، حل محله في دمشق فخري باشا قائد الفيلق (١٣) « الموصل » باسم وكيل قيادة الجيش الرابع . وكان رئيس أركان

حربه ياسين باشا الهاشمي وهو من خيرة الضباط العرب النابهين ، فقررت الجمعية الاتصال به ودرس اتجاهاته توطئة لادخاله في عداد أعضائها وكلفت بذلك السيد عبد الغني العريسي . وقد تمكن السيد العريسي من الاتصال بضابط من ضباط أركان حربه ، وهو مجيد بك وعقد معه أواصر الصداقة . فكان هذا الضابط واسطة الاتصال مع ياسين باشا . وعلى الأثر قررت الجمعية قبوله عضواً فيها ، وقد حلفتُه اليمين مع عبد الغني العريسي وجعلناه همزة الوصل بين جمعية الفتاة وجمعية العهد التي كان ينتسب اليها معظم ضباط العرب القوميين ، وعقب ذلك انضم رضا باشا الركابي للجمعية فتوسعت بذلك أعمالهـا ممتدة ، حتى لقد دخل في عـداد أعضائها نسيب بك الاطرش ونواف الشعلان نظراً لسمعتهما الوطنية الطيبة والاستعانة بقوى البر عند الاقتضاء . وقد أبلغت الجمعية الركابي والامير طاهر الجزائري ان يتقدما الى فائز الغصين بالسفر لمضارب الشعلان والعودة بالامير نواف لدمشق . فلبى فائز الغصين الطلب وسافر الى مضارب الشعلان قرب تدمر وقوبل مقابلة حسنة . وعلى اثر ذلك وشى الواشون بسفره الى تدمر ، فما كان من السلطات التركية إلا أن اعتقلته بعد عودته في ٢٣ تموز سنة ١٩١٥ وسيق الى عاليه ومنها نفي الى ديار بكر . ولقد قدمت له الجمعية مبلغاً من المال ليستعين به ، بواسطة أحد أعضائها القدامى السيد رشيد الحسامي ، وذلك عند مقابلتهما في القطار أثناء السفر من بعلبك الى حلب . إلا انه تمكن من النجاة بنفسه من ديار بكر فقصد الى البصرة سيراً على الاقدام ومنها سافر الى الحجاز حيث عين سكرتيراً خاصاً لسمو الامير فيصل . وقد اجتمعت الهيئة الادارية للفتاة عقب توقيف فائز الغصين ورأت أن الخطر اصبح يهدد

الأمير عارف الشهابي وعبد الغني العريسي ، كما أن صدور الأمر بارسال توفيق البساط وابراهيم هاشم من ضباط الاحتياط مع زملائهم العرب الى جبهة الدردنيل يعني خسارتها لنشاطهم ، فقر القرار على تكليفهم بأن يتواروا عن الأبصار ثم يواصلوا سفرهم الى الحجاز ، وقد اتصلت لهذه الغاية بواسطة سليم بن يوسف عبيد من قرية جرمانا وهو أحد أقارب الدكتور عبد العزيز كنفاني والمعروف جيداً من قبل نسيب بك البكري بالمغوش شيخ خلخلة ، واتفقنا على أن يؤاويهم بالقرية المذكورة بادىء بدء ، وكان أخي ذكي اذ ذاك قائمقام السويداء ، الأمر الذي سهل مهمتي هذه ، فغادروا دمشق الى خلخلة في ١٩١٥/٧/٢٣ وكنت على اتصال دائم بهم أكفل لهم جميع حاجاتهم ، وكان ختمي عند عبد الغني العريسي يوقع به بعض أوراق الجمعية عوضاً عن ختم الجمعية بصفته سكرتير هيئة الادارة ، وذلك زيادة في الاحتياط ، فسها عن اعادته إلي قبل سفره حيث تركه في جيب بذلته عند تغيير ملابسه بالملابس البدوية ، فوقع بيد الشرطة وأرسل لديوان حرب عاليه مع ما وجد من المستندات عند عبد الغني العريسي ، فكان عليّ أن أسافر لتدارك الأمر . ولما كنت طبيباً للدرك برتبة رئيس لم يصعب عليّ ذلك ، وقد تمكنت بواسطة أحد أصدقائي الضباط من استرداده وبذلك أمنت شر هذا الخطر الذي كان يترصدني .

وجاءني بعد حين عمر حمد أحد اخواننا في الجمعية من بيروت ينوي الهرب تخلصاً من ملاحقة السلطات له بسبب انتسابه للجمعية اللامركزية . فسهلت له سبيل الوصول الى اخواننا في خلخلة . وبعد أن مكث الجميع فيها مدة دبروا أمر سفرهم للحجاز للعمل مع الحسين بن علي . ولما

كان ابراهيم هاشم مصاباً بالملاريا لم يتمكن من مرافقتهم بل قصد متنكراً بلدته نابلس وبقي مختفياً فيها الى انتهاء الحرب .

أما الباقون فسلكوا طريق الصحراء الى أن وصلوا الى تبوك فزين لهم شيخ عرب الفقير سلوك طريق السكة الحديدية فأخذوا برأيه وركبوا القطار الا أنهم بدلاً من أن يتواروا عن الأنظار جلسوا أمام نوافذ القطار ، وحدث أن ضحك الأمير عارف الشهابي فرآهم طبيب في المحطة كان يعرف الأمير عارف ، لكنه اشتبه بسن الأمير الذهبية ، وهي من غير المتعارف به في تلك الجهات ، فسعى الى أن تعرف عليه ، ثم أخبر السلطات الحكومية ، فألقوا القبض عليهم وساقوهم الى ديوان حرب عاليه العرفي .

وحمل إليّ هذا الخبر خفية نسيب البكري في احدى الليالي وعندي نخبة من ضباط أركان حرب جمال باشا يسهرون ويسمرون ، وأصانعهم بغية الحسر عن نوايا جمال باشا وخططه نحو العرب ، فكان لهذا الخبر أثره العظيم في نفسي .

ولم يلبث موقف جمال باشا من العرب أن تبدى واضحاً جلياً إذ كشف النقاب عن حقيقة نواياه نحوهم ، رغم اعترافه الصريح في مذكراته بأنهم أظهروا عظيم التضحية والاخلاص خلال الهجوم على قنال السويس ، ولكن هذه التضحية وهذا الاخلاص لم يجديا شفيعاً لديه ، بل راح يكيد كيده للايقاع بالعرب من غير هوادة أو رحمة .

وكان أول ما فعل أنه أمر باعتقال عبد الكريم الخليل وذلك في أواخر حزيران ١٩١٥ بعد أن استدعاه من الاستانة ليساعده على تعزيز الروابط بين العرب والترك . وقد تم هـذا الاعتقال بحجة أنه تآمر

مع رضا الصلح على نفخ نار الثورة في جبل عامل ، وكان ذلك اثر وشاية لا تستند الى حقيقة ؛ ثم أمر باعتقال رضا الصلح وصالح حيدر ومسلم عابدين ونايف تللو ومحمد المحمصاني ومحمود المحمصاني وعبد القادر الخرسا ومحمود العجم وسليم الاحمد عبد الهادي ونور الدين القاضي وعلي الارمنازي ، فأحيلوا جميعاً الى ديوان حرب عاليه العرفي . وفي ٢١ آب ١٩١٥ سيقوا الى المشانق ما عدا الصلح (وسليم العبد الهادي المتواري) فكانوا أول قافلة من قوافل الشهداء ، بأمر من جمال باشا ودون مصادقة الارادة السلطانية الواجبة في مثل هذه الأمور ، ولم يكن من ذنب لجميع الذين شنقوا الا انهم ينتمون الى حزب اللامركزية ، هذا مع العلم بأنه لم يكن في برنامج الحزب المذكور ما يوجب تعويض المنتسب اليه للمسؤولية ؛ واذا اعتبرنا أن سبب شنقهم هو انتسابهم للجمعية اللامركزية بمصر — وقد أيد جمال باشا حجته بنشر المنشورات التي كانت تصدر عن حقي العظم — فان حزب اللامركزية بمصر كان حزباً معترفاً به من الدولة ، وهذه المنشورات كانت تصدر عن حقي العظم نفسه لا عن الجمعية اللامركزية ، فعلى مَ يتحمل اذن اعضاؤها تبعات ما لم يقوموا به ؟

وعلى أثر هاتيك المأساة الدامية لم يرعني ذات ليلة الا أن بابي يقرع ثم طُلب الي مقابلة سيدة محجبة ، فخرجت اليها فاذا هي سيدة محترمة تجلببت بالسواد ، جاءت تخاطبني بصوت راعش حزين قائلة انها شقيقة المرحوم صالح حيدر . وكنا مرتبطين بصلة الجوار حينما كان والدي قائداً لمنطقة بعلبك في عهد طفولتي ، وتربط عائلتينا صداقة حميمة ، فأثر بي موقفها أيما تأثير ولا سيما حين فاجأتني بأن أخاها قد ذهب

ضحية الواجب ، وهي تود أن تكون هذه المأساة خاتمة المصائب ، ولذلك ترجو أن نعمل على ابادة الاوراق التي من شأنها ادانة أحد من شباب البلاد . وبالنظر لثقتي بشرفها وشرف عائلتها فقد قابلت طلبها بكل ارتياح ورجوتها أن تقصد الى بيروت لتتصل بشقيقة المرحومين محمد ومحمود المحمصاني كيما تأخذا اوراق الجمعية ومستنداتها من المكان المودعة فيه ، وهو قبر ولي بالقرب من بيت المحمصاني ، ثم احراق هـذه الوثائق وإنبائي بنتيجة الامر . ولم تتأخر عن الشخوص ليلا الى بيروت وانفاذ ما رجوتها به بكل دقة ، وقد لمست من شقيقة المرحومين محمد ومحمود المحمصاني كل مساعدة وعطف . ولو وقع أي تقصير في هذه المهمة ، لكان الشنق بلا ريب نصيب معظم الاعضاء العاملين في الحقل الوطني . إلا أن شجاعة هاتين السيدتين المشكورتين وحسن نيتهما كان من أشرف الاعمال الوطنية وآية رائعة من الاخلاص والقيام بالواجب .

وقد كان لهذه المآسي القاسية والسياسة الطاغية التي لجأ اليها جمال باشا دوي وأي دوي في العالم العربي ، اذ ثارت الخواطر واضطربت الافكار وأدرك العرب أنهم تلقاء سياسة جائرة ترمي الى القضاء على جميع أمانيهم والتعسف بهم لاخفات صوتهم .

ولما كان القضاء اعداماً على أمثال هؤلاء الشهداء الذين يمثلون صفوة شباب العرب ونخبتهم ، ومنهم من ينتمي الى جمعيتنا أمثال محمد المحمصاني ومحمود المحمصاني وصالح حيدر ، ولما كان هذا الحكم قد أظهر النيات التركية نحو العرب ، فقد قررت الجمعية القيام بدعاية واسعة النطاق لاطلاع العالم العربي على حقيقة نوايا الاتحاديين ، فسعينا جهدنا وبكل ما أوتينا من حول وقوة لتحقيق هذه الغاية . ولقد انتهت تفاصيل هذه

الفجائع الى مسامع شريف مكة الحسين بن علي ، فوقعت من نفسه موقعاً أليماً وحزن لها حزناً عظيماً ، وكان ابنه علي قد عثر على وثائق كان يحملها وهيب باشا قائد الجيش العثماني في الحجاز وهو يرافقه مع متطوعة الحجاز في طريقهما الى القنال للاشتراك في الحملة ، فوقف الامير من محتوياتها على ما ينبيء بالقضاء على امتيازات والده تدريجياً ثم الغاء الامارة ؛ فاعتذر إذ ذاك عن مرافقة وهيب باشا في الحملة قبل اعداد عدته ، عائداً ادراجه الى مكة حيث أطلع والده على كنه الامور ، فأيقن شريف مكة أن الخطر محدق بامارته وبالعرب جميعاً . وكانت قد اتصلت بمسامعه دعايتنا فصادفت أرضاً خصبة من لدنه وتألف من هذه الاسباب مجتمعة ما ألّف في ضميره خطوط السياسة الجديدة التي ينبغي أن يسير عليها .

ولما كانت البلدان الحجازية تعتمد في معاشها على طريق البحر الاحمر وطريق الخط الحجازي ، وكانت الحرب قد أفضت الى أن يفرض الانكليز الحصار البحري على بلاد الدولة العثمانية . ولما كانت سورية لم يعد في مقدورها امداد الحجاز بالمؤن لان الحكومة العثمانية وضعت يدها على كافة المنتجات الزراعية لاعاشة الجيش ، كما ان الحج قد توقف وهو مورد هام للحجاز . من أجل هذا كله ، أصبحت حالة الحجاز مهددة بخطر المجاعة ؛ فراح شريف مكه يجهد الفكر في استنباط مخرج من هذا المأزق الحرج . وقد وجد في مراجعة الانكليز إياه بدعوته للانضمام الى صفوف الحلفاء منفذاً لمجانبة الخطر الداهم ، ثم الوسيلة الوحيدة للخروج ببلاده من الموقف الدقيق الذي آلت اليه ، فرضي ، على كره ، بمفاوضة الانكليز في شهر يوليو ١٩١٥ ؛ الا ان إبنه الامير فيصل كان على جانب عظيم من الحذر والتيقظ ، لا يطمئن الى نوايا الحلفاء ، ولذا

التمس من والده السماح له بالسفر الى الأستانة علّه يجد من رجال الدولة العثمانية ما يضمن الحفاظ على حقوق العرب وكيان الحجاز المهدد .

توجه الامير الى دمشق فوصلها في ايلول ١٩١٥ . وكنا ، أعضاء الفتاة ، نبذل قصارى الجهد لمجابهة الخطر الداهم ، فأجمعنا الرأي على الافادة من الفرصة السانحة لنا بوجود الامير فيصل بين ظهرانينا . ولما كان قد حل ضيفاً على عطا باشا البكري ، وكان ابنه نسيب من اخواننا ، اتصلنا به بسهولة ، ودرسنا فكرة ادخاله في عداد أعضاء الجمعية ، فوجدنا فيه تربة خصبة ، وهو ما كنا نتمناه . فسلكناه في عقد اعضاء الجمعية ورجونا منه التوسط لدى السلطات العليا للافراج عن المعتقلين الوطنيين العرب في عاليه .

وقد رغب الامير فيصل معرفة مدى قوة الحركة العربية في سورية ، فاجتمع أولاً بالشيخ بدر الدين ، ثم بياسين باشا الهاشمي رئيس أركان حرب وكالة قيادة الجيش الرابع ، ورضا باشا الركابي ، وسأل عن المساعدة التي تحتاجها سورية لتشترك بالحركة التحريرية العربية عند الاقتضاء ، فما كان من ياسين باشا الهاشمي إلا أن أجابه بأن سورية لا تحتاج إلا الى عزم الحسين على ترؤس الحركة التحريرية العربية ؛ فكان لهذا الموقف الحازم ، موقف الهاشمي ، أثر عميق في نفس فيصل ، لأنه موقف شخص يملك صفة التكلم باسم قوى الجيش المرابط في سورية وهو الذي يتألف بأكثريته من العرب . وقد سلمته الجمعية المصوَّر الذي يعين حدود البلاد العربية الجغرافية في آسيا ، وهي التي يجب أن يدور السعي على أساسها لنيل الاستقلال . وسرعان ما أرسل بجميع ما وقف عليه الى والده الحسين ، ثم توسط

لدى جمال باشا كي يعدل عن سياسة البطش برجالات العرب على غير جدوى .

وتابع السير الى الاستانة حيث اجتمع بالصدر الاعظم وأنور وطلعت وكشف لهم عن الوثائق التي عثر عليها مع وهيب باشا ، وأضاف فأبان لهم بصراحة مضار سياسة الضغط التي ينحوها جمال باشا تلقاء العرب ، فكان لحادثته صداها وأثرها ، وقد وعدوه خيراً ، وبعثوا للحال الى جمال باشا يوصونه بفيصل ، كما انهم حوّلوا وهيب باشا عن الحجاز بعد أن بعثوا مكانه غالب باشا . على أن هذا كله لم يفد في تغيير الخطة التي كان يتبعها جمال باشا في سورية . واذا كان قد جامل الامير فيصل لدن عودته الى دمشق فما ذاك إلا أملاً بأن يرافقه على رأس فرقة حجازية في حملته الثانية على القنـال .

وفي هذه الاثناء كان في عاليه فريق جديد من المعتقلين العرب وهم : شفيق المؤيد والأمير عمر ورفيق رزق سلوم وعمر حمـد وعبد الغني العريسي وعارف الشهابي وتوفيق البساط وسيف الدين الخطيب والشيخ احمد طبارة وسليم الجزائري وجلال البخاري وأمين لطفي وسليم الاحمد عبد الهادي وفايز الخوري ورضا الصلح ورياض الصلح ، وقد سعى الأمير ما استطاع للافراج عنهم باذلاً كل ما لديه من الوسائل الفعالة سواء في الاستانة أو في دمشق ، ولـكنه خاب سعياً وذهبت مجهوداته أدراج الرياح ، فاضطر لمراجعة والده ، فأبرق الحسين الى أنور باشا ينذره بأن الحرب الحاضرة تستلزم مساهمة العرب فيها بكل قواهم ، لأن بلادهم من أهم ميادين القتال ، وان ارضاء الشعب العربي يستلزم منح سورية النظام اللامركزي الذي تنشده ، واعلان العفو العام عن المتهمين السياسيين

الموقوفين في عاليه ، وابقاء امارة مكة كما هي ، اذ أن الوثائق التي عثر عليها مع وهيب باشا تجعل مستقبلها في خطر ، فاذا اتبعت الحكومة العلية هذه الخطة الرشيدة ، فجميع العرب بدواً وحضراً لا يتأخرون عن حشد قواهم للدفاع عن الوطن . وقد تعهد الحسين في هذه البرقية بأن يكون أولاده قادة للقوى العربية في ميادين العراق وفلسطين ، الا ان أنور باشا لم يوافق على هذه المطالب ، وأسرع فأبلغ الشريف بأن لا بد أن ينال الموقوفون في عاليه عقابهم .

وعلى الأثر غادر فيصل دمشق الى الحجاز في كانون الاول ١٩١٥ ليرفع الى والده نتائج مساعيه في الاستانة وما وقف عليه في دمشق ، وفي كانون الثاني ١٩١٦ عاد الى دمشق على رأس كوكبة يبلغ عددها الخمسين من المتطوعين حلوا بالقابون في دار عطا باشا البكري ، وهذه الكوكبة مقدمة لفرقة متطوعي الحجاز الى حملة القنال .

وفي شباط ١٩١٦ رافق فيصل جمال باشا وأنور باشا الى المدينة المنورة لتفتيش قوى الجيش المرابطة فيها وقوى المتطوعين ، ثم عاد معهما الى دمشق . وقد كلفه بعض الاشراف القبض على أنور وجمال وهما في معسكر المتطوعين الا أن فيصل أبى ذلك وقال انهما في ضيافتنا ، وعاد معهما إلى دمشق . وبعد برهة قصيرة طلب منه جمال باشا أن يكتب لأخيه كي يضع حداً لاعتداءاته على سلطة محافظ المدينة المنورة وليدعوه للقدوم الى دمشق للسفر على رأس حملة متطوعي الحجاز الى القنال ، وبذلك يكون الأخان رهينتين في يد جمال باشا .

ولما لم يعد في الامكان القيام بثورة منتجة في دمشق بعد أن شتت جمال القوى العسكرية العربية التي كانت معسكرة فيها ، فقد أصبح هم

فيصل أن ينجو بنفسه الى الحجاز . وعندما طلب منه جمال باشا استقدام أخيه ، اتخذ من ذلك ذريعة فطلب من جمال باشا أن يسمح له بالسفر للمدينة ليعود مع أخيه والمتطوعة إلى دمشق ومنها الى جبهة القنال . وقد تألف وفد للقيام بهذه المهمة وهي استقبال المتطوعين الحجازيين ، برئاسة فيصل وعضوية كاظم بك مفتش منزل الجيش الرابع وآصف بك المستشار العدلي والشيخ عبد القادر الخطيب والسيد نسيب البكري ، وقصد الجميع المدينة المنورة بالسكة الحديدية في منتصف شهر مايس واستقبلوا بكل حفاوة وانضم فيصل الى أخيه واعتذر الى أعضاء الوفد عن تعذر عودته معهم لأنه لم يعطَ قرار بعد بسفر المتطوعين عن طريق السكة الحديدية الى دمشق او عن طريق الصحراء الى القنال . وبذلك نجا بنفسه .

وفي تلك الأثناء وصل فخري باشا وكيل قائد الجيش الرابع الى المدينة للاشراف على الحالة وقيادة القوى الموجودة فيها وهي من خيرة القوى التركية وقد عززت بقوى أخرى بحجة ارسالها الى اليمن . وخشي الشريف حسين توالي وصول النجدات الى المدينة ثم احتلال الحجاز عسكرياً وسلبه امتيازاته ، فأنهى محادثاته مع انكلترا بسرعة وأعلن الثورة العربية بتاريخ ٢ حزيران ١٩١٦ .

وقد أعقب توقيف عبد الكريم الخليل اعتقال أمين لطفي قائد الحامية في الاسكندرون ، وهو من المتصلين بعبد الكريم إذ اشيع انه اتفق معه على قطع الاتصال بين الاناضول وسورية اذا ماقامت حركة تحريرية فيها . وقد اتخذ جمال باشا من هذه الحوادث ذريعة لاتباع سياسة البطش القاسية ، فراح يبعد المثقفين والضباط والقطعات العربية في

الجيش العثماني الى جهات أخرى . فأرسل جميع ضباط الخدمة المقصورة من خريجي المدارس العالية الى جبهة جناق قلعة ، وفيلق الموصل الى القفقاس ، وياسين باشا الهاشمي الى جبهة الـكاربات ، فلم يعـد بامكاننا القيام بأي عمل يذكر بعد تشتيت قوانا بسبب ما عثر عليه من المنشورات الصادرة عن حقي العظم باسم الجمعية الثورية العربية ، وعدم احتياط عبد الكريم الخليل .

ولما كان اسمي قد تردد كثيراً على ألسنة بعض الموقوفين في عاليه من غير أن يذكر أحد حقيقة أعمال جمعيتنا ، فقد قرر استدعائي رئيس الهيئة التحقيقية بديوان حرب عاليه ، فاوقفت يوم الاثنين في ٣ كانون الثاني ١٩١٦ وكان ذلك من قبل قائد درك المركز طاهر افندي واودعت غرفة ضابط الدرك في سراي دمشق يومين كاملين . ولما جاء والدي يزورني عامله القائد المذكور معاملة فظة ، قاسية . فأثر ذلك فيه كثيراً ، وكان من أمراء الجيش القدماء ، فوقع عن سلم السراي ، وكان هذا الحادث سبباً في مرضه ثم انتقاله لدار البقاء بتاريخ ١٥ شباط سنة ١٩١٦ وانا في سجن عاليه . وقد أبلغت وفاته بعد حين بواسطة جميل الالشي رفيقي في السجن .

ولما كنت برتبة يوزباشي في الجيش فقد نقلت الى عاليه بعد يومين مصون الكرامة . وأودعت الغرفة المجـاورة لغرفتي شفيق بك المؤيد وسليم بك الجزائري ، وكان الاول قد أرسل لحيته ووقف أوقاته على تلاوة القرآن وحفظه ، والثاني وهو النحيف جسماً ، لا يفتأ يوقد الفحم في مدفأة من طين اتقاء للبرد القارس . وقد أبلغت لدن وصولي الى

السجن أن من المحظور على السجين أن يتحدث مع غيره من السجناء ، وكل من تسول له نفسه خرق هذا الحظر تعرض للرمي بالرصاص . فلما ولجت غرفتي كان همي الوحيد الاتصال باخواني الموقوفين وخاصة من كان منهم ينتمي الى جمعيتنا علّنا نتمكن من ايجاد مخرج من الموقف الذي انتهينا اليه ، ولئلا تكون افاداتنا متضاربة .

وحدث إذ ذاك أن أصيب شقيق جمال باشا بمرض ضمن اختصاصي وكان الاطباء الاختصاصيون نادرين إن لم يكن في حكم المفقودين ، فدعيت لحسن الحظ الى معالجته والطب لمرضته ، فكان لا بد من تحويلي من غرفتي الى مكان آخر ، فنقلت الى مقر قيادة سرية المحافظة على المسجونين ، وقواد هذه السرية وجندها من خيرة الرجال الذين يعتمد عليهم جمال باشا ، لانهم من متطوعي اتراك بلغاريا ، وكان القائد عليهم نوري بك مناط ثقة جمال باشا ، وهو في الوقت نفسه من أعضاء ديوان الحرب العرفي ، ومساعده حسني بك من الروملي الشرقية . وهكذا مهدت لي الظروف سبيل الاجتماع برئيس الهيئة الاتهامية شكري بك إذ شاء هو أيضاً أن أعالجه بعد النتيجة الحسنة التي انتهت إليها معالجتي لشقيق جمال باشا . وقد خصص لي سرير في غرفة منام نظيف بك مترجم ديوان الحرب العرفي ، وهو شاب أديب لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره ، تخرّج من المدرسة السلطانية في استانبول ، إلا أنه مولع أيما ولع باللهو شأن أمثاله في سنه من الشباب الطائش . ولا أكتم أني جاريته في مجرى هواه على ما اقتضاني ذلك من نفقات كنت أدفعها راضياً اتقاءً للمغبة السيئة التي تترصدني واخواني المتهمين . وكانت

جلساتنا الطويلة المستمرة تدور في الاغلب حول أعماله وما يتصل بشؤون المسجونين مما يهمني الوقوف عليه .

وكان من هذه المناسبات ان هيأت لي سبل اكتناه نوايا جمال باشا نحو المعتقلين ، كما افدت الاطلاع على التهم الموجهة اليهم ، وعلى الافادات التي كانوا يتقدمون بها . فتوفيق البساط لم ينبس ببنت شفة برغم تعذيبه وضربه . ومثله عارف الشهابي لم يستطيعوا أن يعرفوا منه شيئاً . أما عبد الغني العريسي فقد كتب صفحات مستفيضة ، فوجب عليّ الاتصال به تحذيراً وتنبيهاً . ولكن كيف السبيل للوصول اليه ودون ذلك موانع كثيرة ؟ . لقد اصطنعت الحيلة ، فذهبت الى البناء الذي يحتويه ، متذرعاً بحجة وجود حمام جيد هناك ، وبعد رشوة الخفير قابلته وأطلعته على ما انتهى إليّ عنه ، فكان جوابه بانه لم يكتب شيئاً له صلة بأعمال جمعيتنا ، وكل ما كتبه وقف على مؤتمر باريس والجمعية الاصلاحية في بيروت ، مما هو مدون ومنشور في الصحف . وانه لم يعمد الى ذلك إلا بغية تضليل المحققين واستمناح شفقتهم لا سيما وانهم استشاطوا غضباً أمام تكتم توفيق البساط . وقابلت على الاثر توفيق رزق سلوم وسيف الدين الخطيب وهما قد ذكرا اسم جمعيتنا مؤولاً ، وعلى هامش افاداتهما . ولكن المحقق ـ ولله الحمد ـ لم يعر هذا الذكر اية اهمية بعد أن استروح من كلامهما ان الجمعية إن هي إلا جمعية للطلاب في باريس ليس لها اثر سياسي في الاعمال التي يحققون عنها . ولا شك في ان افادة العريسي قد كان لها أثرها القوي في ابعاد الظنون عن جمعيتنا . إلا ان المحققين استغلوا اقواله وحكموا عليه بالأعدام ، نظراً لجهلهم ما كان منشوراً منها في بطون الصحف . ولما كان توفيق الناطور قد أصيب بقذيفة نارية

اثر محاولته التحدث الى أحد المعتقلين ، فقد خشيت أن يؤثر هذا الحادث على أعصابه فيبوح بما يعلمه عن جمعيتنا ، ولذا عزمت على الاتصال به رغم العقبات التي تعترض سبيلي في هذا الاتصال . وكانت حيلتي أنني اتصلت بنقيب الخبراء مظهراً الشوق الى مشاهدة المستشفى العسكري. وسرعان ما قبل طلبي ملبياً وبخاصة بعد أن شاهد بين يديه بعض القطع الذهبية التي رضخت بها اليه . وهكذا توجهت برفقته الى المستشفى في الصباح الباكر لنكون في منجاة من رقابة الضباط . ولما دخلت الى غرفة توفيق الناطور أمسكت بصحيفة معالجته متظاهراً بأنني أدقق فيها ، موهماً بذلك من حولي ، وقلت له : ان عقبى من يبوح بأسرار الاعمال الوطنية هو الشنق لا محالة ، ولن ينجيه البوح من الموت ، فحذار حذار من الضعف . ثم خرجت من غير أن يعلق بي أثر من الريبة .

واتصل بي أيضاً — من خلال محادثاتي مع من كنت بينهم من أعضاء ديوان الحرب — ان الامير عادل أرسلان ، وكان في ذلك الحين قائمقام عاليه ، عرضة لخطر الانتقام من الترك ، لاتصاله السابق برجالات العرب العاملين لقضيتنا . ولكن تأخير اعتقاله كان بسبب وجود شقيقه بالقرب من جمال باشا ، فأسرعت اليه متخذاً نفس الطريقة التي اتخذتها لدن زيارتي لتوفيق الناطور — الصباح الباكر والرشوة — ووقفته على الحقيقة ، كما رجوت منه اتخاذ الحيطة والحذر ، وتبليغ ذلك الى أخيه .

وفي هذه الاثناء — أي في شباط ١٩١٦ — وصل أنور باشا الى دمشق كيما يعدّ العدة لحملة يمد بها القوى العثمانية التي تقاتل الانكليز في العراق ، ولتفتيش القطعات المحاربة في سورية والحجاز . ولما كان أخي تحسين ملحقاً بأركان حرب فخري باشا وكيل قائد الجيش الرابع

فقد مرّ بعاليه مع هيئة أركان الحرب ، وزارني خلسة ، وهذه الزيارة هي الوحيدة من نوعها إذ لم يسأل عني أحد منذ اعتُقلت ، لأن أخي زكي الذي كان قائمقاماً في السويداء قد اقصي الى الاناضول مع جميع العائلة ، ولان والدي انتقل الى دار البقاء . ولقد علمت من أخي تحسين أن « شوبان أوغلو زكي » أحد الضباط المتنفذين في هيئة أركان حرب جمال باشا ، ومن الذين كانوا يترددون عليّ فيما مضى بصورة مستمرة سيوصي بي خيراً أعضاء ديوان حرب عاليه . وهكذا تمت جميع اجراءات ديوان الحرب من غير أن أدعى للتحقيق . وحدث انني اجتمعت بكمال بك مستنطق ديوان الحرب ، وذلك قبل يومين من الافراج عني ، فكان مما قال لي :

« إننا نحكم بالشنق على كل من يؤتى به الى هنا كي لا يبقى في بلاد العرب من يفكر بالانتقاض على الدولة العثمانية . أما أنت فقد غدوت صديقنا ، وأعتقد أنك من الذين سيفرج عنهم إذ لا خطر منك ، فاذا ما دعيت للسؤال ، فعليك أن تتظاهر بالبساطة واستنكار كل ما يعزى اليك » . وعلى هذا الاساس جرى استنطاقي صورياً بتاريخ ١٩١٦/٣/١٤ وبعد يومين لا أكثر بلغت قرار منع المحاكمة فغادرت عاليه الى دمشق عقب الافراج عمن لم يحكموا بالاعدام ، ورحت أسعى جهدي لانقاذ من أستطيع ممن سيحكم عليهم بالاعدام . وأول من قصدت كان واصل المؤيد حيث طلبت اليه العمل على انقاذ شفيق المؤيد الذي أبعدت أسرته الى الاناضول كما أبعد من سورية عدد كبير من الاسر النافذة الكلمة لاضعاف الحركة الوطنية .

وعلى أثر الافراج عني حضر شكري بك رئيس ديوان حرب عاليه

الى دمشق ، فلم أجد بداً من دعوته الى حفلة ساهرة . وقد استثمرت عواطفه رحمةً وعطفاً لانقاذ اخواني ، ولكنه أجابني ، والدمع يترقرق في عينيه ، بأن ليس في وسعه تلبية طلبي لأن جمال باشا مصر كل الاصرار على شنق أكبر عدد ممكن من المعتقلين ، وبخاصة اولئك الذين يخشى أن يقوموا بحركة من الحركات في سبيل قضية بلادهم ، وانه لم يتمكن من حمله على العدول عن رأيه رغم المحاولات الكثيرة في هذا السبيل .

وهكذا قضي على هاتيك النفوس البريئة أن تمضي الى بارئها ضحية طغيان جمال باشا . فلم تشرق شمس ٦ مايو سنة ١٩١٦ حتى كان حكم الاعدام قد نفذ بالقافلة الثانية ؛ فسيق من كتب عليهم أن يعدموا في بيروت من عاليه تواً الى دائرة شرطة المدينة المذكورة وكانوا ينشدون الاناشيد الوطنية ، وأول من حملته أعواد المشنقة كان سعيد عقل وبترو باولي وجرجي حداد . ثم أعقبهم من اخواننا الاكرمين عارف الشهابي وعبد الغني العريسي وعمر حمد ، وكانوا يرددون أنشودة :

نحن أبناء الألى　　شادوا مجداً وعُلى
نسل قحطان الأبي　　جد كل العرب

وعندما صعد عمر حمد منصة المشنقة صاح في وجه السلطة الحكومية ان هذا الذي ترتكبه الحكومة الآن سيقوض أسس الدولة ويكون سبباً في خرابها . ثم خاطب الحاضرين قائلا : انني أموت فداء الامة العربية غير خائف ولا وجل ، فليسقط الخونة وليحيا العرب . وصاح عبد الغني العريسي والحبل يوضع في عنقه قائلاً : ان الدول تبنى على

الجماجم ، وان جماجمنا هي أساس استقلال بلادنا . ثم أعدم الشيخ أحمد طبارة ومحمد الشنقيطي . وعندما جاء دور توفيق البساط التفت نحو المشنوقين وكان عددهم أحد عشر شاباً ، ثم صاح بصوت جهوري ، وعلى محياه ابتسامة مرة : ألا مرحباً بارجوحة الابطال ، مرحباً بارجوحة الشرف ، مرحباً بالاعمدة التي يستند اليها استقلال الامم ، مرحباً بالموت في سبيل الوطن . ثم رفس كرسي المشنقة برجله وفاضت روحه الطاهرة الى باريها . وكانت خاتمة المأساة شنق سليم الجزائري وأمين لطفي .

أما الذين سيقوا من عاليه الى دمشق فهم شفيق المؤيد وعبد الوهاب الانكليزي وشكري العسلي وعبد الحميد الزهراوي والامير عمر الجزائري ورفيق رزق سلوم . وقد أعدموا جميعاً في ساحة الشهداء صباح ٦ مايو أي في اليوم الذي اعدم فيه اخوانهم في بيروت .

وأبت علي السلطة العسكرية إطالة الاقامة في دمشق ، فأمرتني بالسفر الي بئر السبع لأكون بعيداً عن سوريا . وبعد أن لبثت في بئر السبع مدة قصيرة قابلت الرئيس في فوج سكة حديد الحجاز السيد مغربية ، فكلفني بأن أنتقل الى طبابة الفوج المذكور على أن يكفل لي جميع أسباب الراحة . وسرعان ما قبلت . ولما كان رئيس الاطباء في بئر السبع ألمانياً ولا علم له بخطط جمال باشا فقد وافق على نقلي ، وهكذا أصبح مركزي في وادي الصرار إذ كان العمل قائماً لتمديد السكة الحديدية حتى القنال تحت رئاسة المهندس الالماني الكبير مايسنر باشا . وقد كان بين المهندسين الذين يعملون هناك المهندس المصري أحمد عبود ، فتوثقت ما بيننا عرى الصداقة . وفي خلال وجودي

في هذه المنطقة ، وكانت الحرارة فيها شديدة تـكاد لا تطاق ، هاجمتنا الطائرات البريطانية ملقية علينا حمم قنابلها . ولما لم تجد أدنى مقاومة فقد تهابطت الى مسافة قريبة من الارض ثم أصلتنا من رشاشاتها نيراناً حامية ، وقد أصابتني شظيـة في ذراعي الايمن ، فنقلت على الاثر بصالون رئيس المهندسين الخاص الى المستشفى بدمشق . وبعد أن تماثلت للشفاء واستوفيت بعض الراحة علمت بأن السيد شكري القوتلي قـد أوقف في خان الباشا ، فـكان لهذا النبأ مثل وقع الصاعقة عليّ ، إذ كنت أعلم بأن شكري باشا الايوبي بطل قضية الخان المذكور ، الذي اوقف في يونيو ١٩١٦ ، كان غاية في السذاجة ، ولذلك لم تقبل جمعية الفتاة ادخاله بين أعضائها رغم الحاح السيد نسيب البكري ، كما كنت أعلم بأن السيد نسيب البكري رضي العمل معه وأوصاه بالالتجاء الى السيد شكري القوتلي اذا ما اضطرته الحـال الى الفرار من دمشق . ومن أجل هذا قوي لديّ الاعتقاد بأن سبب توقيف شكري القوتلي انما هو اعترافات الايوبي بعد تعذيبه تعذيباً لا يطاق .

ثم عدت وفي نفسي من الاسى لا يعلمه إلا الله ، الى قطعتي ، وكانت تعسكر يومئذ في (بيربيرين) بعد (عوجة الحفير) باتجاه القنال مواصلة العمل لايصال سكة الحديد الى القنال .

وفي أثناء ذلك زار جمال باشا وأركان حربه تلك المنطقة ، فاجتمعت بأحد ضباطه المقربين ويدعى جوبان اوغلو زكي . وكان في جملة ما أخبرني أنهم عثروا بين أوراق عبد الحميد الزهراوي ، بعد أن أخلي سبيلي من عاليه ، برقية بتوقيعي نيابة عن شباب دمشق المثقف راجياً تمسكه بمقررات مؤتمر باريس مع التهنئة بعضويته في مجلس الاعيان وهي العضوية التي

ستكون ولا شك مقدمة لنا على تحقيق مطالبنا الوطنية . وقد عزموا على استئناف توقيفي ، لولا انه قال للقائمين على شؤون ديوان الحرب : « اذا كنتم تجدون ما يدعو لاعدامه فأوقفوه ؛ أما أن تأتوا به ثم تخلون سبيله فليس هذا بالرأي المصيب » . ولذا عدلوا عن استعادتي الى عاليه .

وعلمت كذلك وأنا في بيربيرين أن عزة دروزة وفوزي القاوقجي ، وكان من ضباط الجيش ، موجودان في عوجة الحفير . وكانت هيئة ادارة جمعية الفتاة قررت قبولهما عضوين فيهما ، فقصدت الحفير وحلفتهما اليمين المعتادة . وبالنظر لتمكني من الحصول على كمية كبيرة من الديناميت إذ كان لدى قطعتنا الشيء الكثير منها ، فقد رأيت أن أسلمها لفوزي القاوقجي علنا نحتاج اليها في يوم من الايام . وفي تلك الآونة كان الوقود الذي تحتاجه قاطرات السكك الحديدية مفقوداً فاضطرت السلطات للاستعاضة بحطب الاحراش ، وجاءنا الامر بالانتقال الى (الشوبك) على مقربة من « وادي موسى » لنمدّ فرعاً للسكة الحديدية من أحراش الشوبك الى معان . ولم يمض إلا القليل على وصولنا الى مقر عملنا الجديد حتى أرسل في طلبي قائد فوجنا ثم أسرّ إليّ بأنه تلقى الأمر بالقاء القبض عليّ ومصادرة جميع أوراقي ، فما عليّ إلا أن أحتاط للأمر قبل التحقيق . ولما لم يكن لديّ شيء مما ذكر فقد أجبته بانني أشكره على لطفه ولكنني بريء ، ولست بحاجة الى ابادة شيء من أوراقي . وهنا أمر بتوقيفي ، فأوقفت في ١٩١٦/١٠/٩ ثم نقلت محروساً بشدة الى معان ، ومنها الى دمشق حيث وصلتها في ١٩١٦/١٠/١٤ ؛ وبينا أنا في طريقي مع الضابط المكلف بحراستي ، رأيت في السنجقدار في مدخل الفندق المسمى « فندق دار الفرح » إذ ذاك ، صديقي وأحد

أعضاء جمعية الفتاة مصطفى برمدا . فعزمت على الضابط أن نتناول طعام العشاء معاً ، قبل أن يسلمني الى آمر الموقع . فوافق ولم يمانع . وبينا نحن على المائدة سألت الأخ برمدا عما اذا كان حقاً ما اتصل بي من أن والي دمشق قد توسط لدى السلطات العليا في الاستانة للحد من مظالم جمال باشا وان الوضع قد تغير بسبب ذلك ؟ فكان جوابه بأن الحالة ويالالأسف لم تزل على ما كانت ، وان مظالم جمال باشا وأوامره لا تزال نافذة لا راد لقضائها . ولم يكن محدثي يعرف حقيقة أمري ، فلم أشأ إزعاجه أكثر من ذلك . وبعد أن تم العشاء مضيت برفقة الضابط المكلف بالمحافظة عليَّ ، الى قائد الموقع الذي أمر بنقلي الى سجن الضباط حيث أصبت قسطاً من الراحة مدة ساعتين ، ثم تحوّلوا بي الى دائرة الشرطة حيث أخبرت بأن مديرها توفيق بك يرغب في مقابلتي . ولبثت في غرفة الكتّاب حتى الساعة الثالثة بعد منتصف الليل ، وكانت الغاية من ذلك التأثير على أعصابي .

وأخيراً أرسل في طلبي مدير الشرطة واذا هو يفاجئني بقوله : « لدينا معلومات أكيدة عن انك رئيس جمعية تهدد كيان الدولة ، ولما كانت النجاة بالصدق وجب أن تخبرني بكل ما تعرفه عن ذلك » . وللحال وبدون اكتراث أجبته بأن سوق الوشايات أصبحت رائجة ، فيجب أن لا يؤخذ بما يتقوله المغرضون . . . وظل الرجل فوق الساعة يحاول انتزاع ما يمينه على اداتي ، ولكن على غير جدوى . وهنا ما راعني إلا أنه يسألني عما اذا كنت مشاركاً للسيد شكري القوتلي في الاعمال السياسية ؟ فنفيت ذلك البتّة . ثم استتلى يقول : وهل تنكر أيضاً صداقتك له واتصالك الدائم به ؟ فأجبته بأن ما يقول حق ،

ومرجعه صلتنا العائلية ، إلا انني في المدة الأخيرة قطعت ما بيني وبينه لاختلافنا في وجهة النظر . ومنذ ذلك العهد زال ما بيننا من صداقة . وتمسكت بهذه الكلمات لا أزيد عليها حرفاً . ولما تبلج الليل عن الصباح وهبَّ الناس من رقادهم ولم أكن قد ذقت للكرى طعماً ، أمر المدير بأن احمل الى خان الباشا . وهناك أودعت في احدى الغرف بالطابق العلوي ، موصداً عليَّ ، محالاً بيني وبين الاتصال بأحد . ولما كان البناء قديماً وليس للباب قفل محكم وانما يقفل بسلسلة من الحديد عليها قفل فقد كنت أتمكن من خلال الباب أن أرى ما يجري خارجاً ، فرأيت شكري باشا الايوبي وعبد الغني الرافعي وفارس الخوري وعمر الرافعي وسعدي المنلا وحميد باشا القلطقجي واخانا في الجمعية شكري القوتلي . وكنت جدّ تواق الى الاجتماع به ، وكانت الرغبة ذاتها تحفزه الى ذلك . ولما انتصف الليل ، وتفقد ضابط الحرس جنوده ، عمدت الى الحارس ، وكان من جنود بلوك القادرية ذوي العمائم الخضراء ، فرشوته على أن يهيىء لي مقابلة شكري القوتلي الذي كان على نحوي يترقب الاجتماع بي فلم يجد الحارس أية صعوبة في عقد اجتماعنا . فتقابلنا هو في الممر ، وأنا داخل الغرفة ، وابتدرته بقولي : « لقد قلت لمدير الشرطة في التحقيق الابتدائي انه حدث مؤخراً عداء عائلي فيما بيننا مما قسرنا على الانفصال ، فرجائي اليك أن تؤيد هذا القول . ولما كنا نحن الاثنين فقط من اعضاء الجمعية ، فعلينا أن نلقى وجه ربنا من غير أن تبدر منا كلمة عن جمعيتنا وأعمالها . ولا شك بأن موتنا شرفاء خير من أن نجبن وندك صرح اعمالنا الوطنية ونكون سبباً في اعدام غيرنا . فأيد رأيي . الا انه قال : « والضرب والتعذيب والقسوة ؟ كيف يمكننا

تحملها ؟ » فأجبته : « نتحمل كل ما يمكننا تحمله ، ثم علينا بالانتحار عندما نستوثق من التخاذل وتحمل ما فوق الطاقة . ولنا بأخينا توفيق البساط اسوة ومثال . فقد انزلوا به من العذاب ما يزلزل الجبال ومع ذلك ظل قوياً مستمسكاً لا يتحلحل عن نفي التهم واعلان البراءة » . ثم أخبرته بانني محتفظ بموسى حلاقة في طيات معطفي وسأستخدمه لقص شرابيني عند مفصل اليد ، فأقر هذه الخطة وطلب أن أعطيه هذه الموسى ، فأجبته بأنها مدّخري لا غنية عنها . فسألني : فكيف السبيل اذن الى الانتحار ؟ فأجبته : اذا أعجزك الحصول على موسى حلاقة فما عليك إلا أن تصعد فوق درابزون المشى وتلقي بنفسك الى ارض الخان . فقال : واذا تهشمت أعضائي من غير أن أموت ، ثم استمروا في تعذيبي ، فتلك ولا شك الطامة الكبرى . فقلت : ثق بأن ذلك أبعد مما تظن . ثم افترقنا على هذا الرأي ونمت ليلتي ملء جفوني بعد أن استوثقت من انني قمت بواجبي ، وما عليّ إلا أن أنتظر مصيري في اللحاق بغيري ممن سبقني من الاخوان لنيل الشهادة في ساحة المرجة . ولما استيقظت وأرسلت النظر خارج غرفتي ، رأيت الدم يخرج من تحت باب الغرفة التي احتوت شكري القوتلي ، فهالني الأمر ، وأيقنت للحال بأنه استعمل ما اتفقنا عليه .

واني لأخفق الباب خفقاً متداركاً فيفتح الحارس فألفت نظره الى أن الدم يسيل من الغرفة المجاورة وانني كطبيب لا بدّ من أقوم بواجبي اسعافاً للجريح . وهنا حصل هرج ومرج في السجن ، وارتبك ضابط الحرس ، فلم يمانعني أحد في اسعاف شكري القوتلي الذي كان قطع شرايين يده ، فوضعت عليها قطعة كبيرة من القطن وربطتها باحكام

رباط الحرب الذي يدّخره كل ضابط وجندي ، فاستعاض ببعض وعيه .
ونصحت له بأن يتظاهر بمثل المشرف على الموت ليمكن انقاذه من سجنه .
فلبى وهو يقول لي بانه كتب ورقة تركها تحت الوسادة يذكر فيها انه ماض للقاء ربه لا خوفاً على حياته بل خوفاً من اهانته بالتعذيب كما جرى لغيره وانه هو بريء والله على ما ذكره شهيد . . . فتركت الورقة مكانها . وبعد ساعة وصل طبيب البلدية فؤاد الساطي وجراحها أبوه محمد علي الساطي ، فربطنا له الشرايين المقطوعة وتحمل ذلك دون أن يظهر عليه أي أثر للحياة ، وبعد ذلك نقل الى المستشفى .

وكان لهذا الحادث أثر سيء عند جمال باشا لانه ادرك أن الحراسة غير كافية ، فأمر بنقل (سرية) القادرية القائمة على الحراسة في خان الباشا ، وجعل مكانها السرية الخاصة المرتبطة به والتي كانت مكلفة بحراسة موقوفي عاليه . وقد تفقد قائدها حسني بك المسجونين واحداً واحداً عند تسلمه العمل ، الى أن رآني فحياني تحية الصداقة القديمة .
وفي المساء دعاني الى غرفته حيث تناولنا معاً الطعام . وكان مما قال لي :
أنا واثق من براءتك . إلا انني أستغرب كيف أدخلوا اسمك في جميع القضايا السياسية العربية . وعلى كل فلن يكون عليك بأس ان شاء الله .
وبعد بضعة أيام دعيت ثانية لغرفته ، وكان هناك شقيق جمال باشا الذي عالجته وأنا في سجن عاليه ، فاستشارني بأمر مرضه ، وأكد لي بأنه سيوصي رئيس ديوان الحرب العرفي فخر الدين بك بي خيراً . وعند استجوابي كان التحقيق يدور معي على محاولة السيد القوتلي الانتحار ، وكيف وقع في الصباح الذي تلا دخولي الى السجن . وكانت أجوبتي منحصرة في انني أجهل كل شيء ، إذ كنت مسجوناً سجناً منفرداً

وغير مسموح لي الاتصال بأحد . وحمدت الله على أن التحقيق لم يطل . وكان مستشار الجيش العدلي في دمشق إذ ذاك جودت البغدادي ، وهو جاري أعرفه ويعرفني جيداً ، فبذل غاية وسعه لمعاونتي .

وفي ١٠ كانون الاول صدر القرار بتخلية سبيلي ، فحرصت على البقاء في دمشق مركز الحركة العربية بعد أن أعلن الشريف حسين الثورة . وقد فاتحت بذلك الدكتور كنعان من شبان نابلس النابهين وكان مساعداً لمدير الصحة العسكرية في دمشق اذ ذاك ، الدكتور حسن ابراهيم باشا ، فوافقت القيادة على أن أعين طبيباً لمستشفى الامراض الزهرية في دمشق . ولما كان الامير فيصل قد احتل العقبة في آب فقد أصبح اتصالنا به ميسوراً عن طريق جبل الدروز لأن قوافل المهربين كانت لا تنقطع عن العقبة بسبب قلة بل انعدام وجود السكر والارز وما شاكلها من المواد الغذائية وغيرها من المنسوجات الضرورية في البلاد . ومما ورد في الاحصاءات أن سورية والعراق فقدتا سنة ١٩١٧ وحدها ما لا يقل عن مئة وخمسين الف نسمة بسبب المجاعة والامراض مما دفع بعض النساء الى التهام جثث الاطفال ، فحكم على إحدى النساء بالموصل واخرى في طرابلس الشام بالاعدام بسبب ذلك ، ولم يشفع لهما بؤسهما الذي كان العامل الحقيقي على ما أقدمتا عليه .

وبعد أن استقر بي المقام في دمشق كان همي الوحيد تبين الخطط التي تضعها السلطة العسكرية في محاربة الامير فيصل ، وارشاده اليها كيما يتحاشاها . وقد اضطررت في احدى الليالي الى السفر للدرعا بقطار عسكري فوق أكياس ، والبرد قارس ، لاستلام رسالة أرسلها لنا الامير فيصل . فقطعت الطريق وقد استغرق اثنتي عشرة ساعة اذ كان

وقود القطار من الحطب . وقد حظيت بكل مساعدة لمعرفة خطط السلطة العسكرية من ياسين الجابي أحد أفراد هيئة أركان حرب جمال باشا الصغير الذي خلف جمال باشا الكبير في سورية بعد مغادرته لها في خريف ١٩١٧ . وبعد استقرار فيصل في (أبي اللسل) وضبطه مرتفعات سمنة التي تشرف على معان وتخريب رجاله الكثير من محطات سكة حديد الحجاز ، غدا الاتصال بين سورية والامير أسهل منه قبلاً . وفي تلك الاثناء نقلت القطعة التي يترأس عليها ياسين باشا الهاشمي الى جبهة فلسطين قرب عمان ، الا أنها أصبحت تركية ، فأرسلت له الملازم المكلف بالخدمة سليم عبد الرحمن لاستشارته فيما يمكن عمله ، فأبدى غاية التحفظ ولم يزد على القول بأن الامر أصبح بيد فيصل ، فقررنا آنئذ استشارة فيصل بالالحاق به ، فجاءني الرد بأنه اذا لم يعد بامكاننا القيام بأي عمل ايجابي في دمشق فلنلتحق به في (أبي اللسل) . وهكذا عمدت الى تهيئة أمر حملة لتلك الغاية وكان كل ما بقي معي من مال اذ ذاك ألفي ذهبة عثمانية ، فوضعتها تحت أمر اخواني لتنظيم الحملة المذكورة ، وهي مؤلفة مني ومن قائدها أخي تحسين قدري الذي طلبت اليه العودة لدمشق من جبهة فلسطين ، فوافاني متنكراً ونزل من القطار بين الكسوة والقدم واختفى في بيت مربية أولاد أحمد مختار مردم بك (والد صديقي خليل بك) الى يوم سفرنا ، ومن رفيق التميمي وسليم عبد الرحمن ورستم حيدر والملازم الاول محمود المغربي وخليل السكاكيني وسعيد الباني والمسلية الثلاثة الذين كانوا في انتظارنا بالجبل واستعنت بسليم ابن يوسف عبيد من جرمانا لتهيئة الخيل والسلاح والعتاد والمتطوعين الذين نحتاج اليهم . وبلغت التكاليف التي تكبدناها حداً باهظاً بسبب

سرية العمل . وفي أواسط يونيو قصدنا متفرقين بساتين جرمانا بغوطة دمشق . . . وبعد حين جمعنا شملنا وغيرنا زينا ، وغادرنا مكاننا تحت جناح الليل قاصدين الى خلخلة ، مارين بغير اكتراث بالمخفر الذي يعترض طريقنا اذ كان في وسعنا الاستيلاء عليه ولكننا لم يعترضنا أحد .

ولبثنا يومين في خلخلة ندعو الى ضرورة انضواء العرب تحت راية الامير فيصل . ومنها قصدنا في طريقنا الى القرية المجاورة (الحلبية) . ولما كان شيخها يتظاهر بالصداقة للسلطة التركية ، فقد تحاشى الاجتماع بنا ولم يضفنا ، فأوجس زملائي أن يتكاثر علينا أهل القرية فيتعذر علينا الدفاع ، ثم يسلمونا للحكومة التي كانت قد أعلنت على انها تمنح لمن يأتي بأحدنا حياً أو ميتاً مكافأة قدرها (٥٠٠) ليرة ذهبية . فرأيت أن لا خلاص لنا إلا بالاقدام ورباطة الجأش ، وهنا تقدمت من ابن الشيخ زاعماً انني صديق حميم لسليم الاطرش ، وكان بحكم حاكم الجبل في نظر أهاليه ، كما انني أخ لنسيب الاطرش ، ولم أقم بهذه الرحلة إلا بعد الاتفاق معهما ، وانني على استعداد لمغادرة القرية واخبارهما بهذه المعاملة الشاذة التي لا يليق أن يعامل بها الضيوف . فتغير الوضع آنئذ ، وذبحت لنا ذبيحة ، وأتانا منشد القرية ينشد على ربابته أناشيد في تمجيدنا . ولما لاح الصباح غادرنا القرية قاصدين عنزة ، قرية حسين الاطرش ، إلا اننا بتنا ليلة في الطريق قبل الوصول إليها ، وكنا نلقى كل ترحاب ممن نصادفهم ، كما ان لقاء حسين لنا كان لقاء كريماً ، ثم واصلنا السفر الى (القَرَيَّة) مقر سلطان الاطرش ، ورغم تغيبه يومئذ ، فاننا بتنا في المضافة ، وأصبحنا آمنين على أنفسنا . ومكثنا

هناك بضعة أيام لاستكمال عدتنا ، واستأجرنا بعض الادلاء والمتطوعين من عرب السردية . واجتمعنا بعبد اللطيف العسلي ولطفي العسلي وحكمة العسلي . ولما أن استوفينا ما أردنا من العدة وكان عديدنا قد غدا وفيراً بانضمام الكثير ممن يرغب الالتجاء الى مصر ، الى أقاربهم من اللبنانيين ، ومن الارمن ممن كانوا مختبئين في جبل الدروز والذين أعلن فيصل أخذهم تحت حمايته ، وكان بينهم عدد من النساء أيضاً . فسارت القافلة بتنظيم عسكري بطريق البادية ، وبتنا بالخلاء ، ثم حللنا بالازرق للارتواء ، فباغتنا عن بعد غزو ، إلا انه لم يجرؤ على مهاجمتنا . وفي أثناء انحدارنا نحو أحد الوديان أراد سعيد الباني أن يسرع ويتقدم غيره ، فمنعته راجياً أن تكون النساء في المقدمة . ولم أكد أتم كلامي حتى انطلقت علينا عدة طلقات نارية ، فاتجه عندئذ نحوي وقال لي : هذا هو السبب الذي كنت من أجله أود الاسراع في النزول . وللحال اتخذت حاميتنا خطة الدفاع ، وفتحت النار بشدة على المهاجمين ، وأحضرت أنا آلات الاسعاف ، وكان رستم حيدر مكلفاً بجلب الماء للجرحى اذا ما اصيب أحد ، الا ان تنظيمنا شبه العسكري ووفرة النيران التي قابلنا بها المهاجمين إذ كان لدينا رشاش ، كل اولئك جعلهم يرتدون بسرعة . ثم واصلنا السفر بعدها الى بير بيرين مقر (عودة ابو تايه) شيخ الحويطات وهناك رأينا على بئرها قطعة Buxton العسكرية الانكليزية معتلية الجمال ، عائدة بخيبة من التجربة التي أرادت القيام بها لتخريب خط السكة الحديدية بين جبهة فلسطين ودرعا ، وغاية ما وسعها عمله هو الاستيلاء على محطة المدورة شمال معان بحماية رجال فيصل . ولقد بتنا ليلتنا هذه ضيوفاً على ابو تايه حتى اذا اشرق الصباح سرنا نجتاز السكة الحديدية

قرب معان قاصدين « أبا اللسل » أمام معان مقر الامير فيصل . وكان اول من صادفنا من قواد جيشه النظامي جودة الايوبي ، وكنا آنئذ ننشد الاناشيد الحماسية التي نظمها ولحنها لنا خليل السكاكيني ومطلعها :

أيها المولى العظيم فخر كل العرب

ملكك الملك العظيم ملك جدك النبي الخ ...

وبعد أن تناولنا عنده المرطبات ودعناه قاصدين مقر الامير ، وكان وصولنا اليه عند المساء عقب الغروب . فاستقبلنا سكرتيره الخاص فايز الغصين ونسيب السكري وهما من اخواننا في الجمعية ، وفايز المؤيد وأخوه أحمد ، وللحال نصبت الخيام لمبيتنا . وما هي إلا استراحة قصيرة حتى طلب فيصل مقابلتي ، ورحب بي ببشاشته المعهودة ثم رأى أن يعين رستم حيدر رئيساً لديوانه ، ورفيق التميمي رئيساً لديوان أخيه الامير زيد ، وتحسين قدري مرافقاً خاصاً له . ولقد حدثته عن الحالة الاليمة التي انتهت اليها سورية ، ونفور الاهلين من مظالم جمال باشا وسوء الادارة في البلاد ، وتحينهم الفرص للانضمام تحت لوائه ، الامر الذي لم يعد خافياً على الحكام في الاستانة ، فسحبوا جمال باشا لتخفيف حدة التوتر في سورية وتخفيف شدة انتقاد حلفائهم الالمان على سوء تصرفهم في البلاد العربية . وفكروا بتكليف المارشال ليمان فون ساندرس الذي كان قد عين قائداً عاماً لجيوش تركيا في سورية ، بالاشراف على شؤون سورية الادارية ايضاً . فاعتذر بسبب الانحلال الذي بدأ يظهر في الادارة التركية في هذه البلاد ، ونفور الاهلين من الحكم القائم . وبعد اجتماعات متعددة علمت أن هناك تذمراً بين

قادة فيصل بعد أن اتصلت بهم أخبار عقد اتفاق سيكس - بيكو الذي تمت مذاكرات توقيعه في ١٦ مايس سنة ١٩١٦ والذي يتنافى مع العهود المعطاة الى الشريف حسين . وقد نشر الروس نصه بعد انسحابهم من الحرب ، وهاهي أهم بنوده :

المادة الاولى — ان فرنسا وبريطانيا العظمى مستعدتان أن تعترفا وتحميا دولة عربية مستقلة أو حلف دول عربية تحت رئاسة رئيس عربي في المنطقتين (أ) [داخلية سورية] و (ب) [داخلية العراق] المبينتين في الخريطة الملحقة بهذا ، ويكون لفرنسا في منطقة (أ) ولانكلترا في منطقة (ب) حق الاولوية في المشروعات والقروض المحلية ، وتنفرد فرنسا في منطقة (أ) وانكلترا في منطقة (ب) بتقديم المستشارين والموظفين الاجانب بناء على طلب الحكومة العربية او حلف الحكومات العربية .

المادة الثانية — يباح لفرنسا في المنطقة الزرقاء [سورية الساحلية ويدخل ضمنها لبنان] ولانكلترا في المنطقة الحمراء [شقة العراق الساحلية من حدود بغداد حتى خليج فارس] انشاء ما ترغبان فيه من شكل الحكم مباشرة او بالواسطة او من المراقبة بعد الاتفاق مع الحكومة او حلف الحكومات العربية .

المادة الثالثة — تنشأ ادارة دولية في المنطقة السمراء [فلسطين] يعين شكلها بعد استشارة روسيا وبالاتفاق مع بقيـــة الحلفاء وممثلي شريف مكة .

المادة الرابعة — تنال انكلترا ما يأتي :

١ — ميناء حيفا وعكا .

٢ – تضمين مقدار محدود من ماء دجلة والفرات في المنطقة (أ) للمنطقة (ب) ... الخ

من أجل هذا راح فيصل يفكر بمفاوضة رجال الدولة العثمانية ثانية بغية توحيد العمل الحربي معهم اذا ما ضمنوا للعرب، بالاتفاق مع حلفائهم، ما وعد الانكليز به الشريف حسين، فيبقى العرب دوماً حلفاء للدولة العثمانية وعلى اتفاق تام معها، كل ذلك فكر به فيصل ولو انه لم يكن يعتقد بان الحكمة ستكون رائد رجال الاتحاد والترقي. هذا ومع انه كان من المرجح لديه انهم سيرفضون مطلبه، فلم يكن بد من الاقدام على هذه الخطوة ارضاءً للمتذمرين من أنصاره بعد أن اتصل به ان جمال باشا الصغير الذي خلف أحمد جمال باشا في قيادة الجيش الرابع، رغب في اتباع خطة المسالمة مع العرب. ولم أر بدأً من مماشاة الامير في رأيه لانني لم أكن مطلعاً على حقيقة الوضع السياسي إذ ذاك، فأرسل فيصل اقتراحاً بما تقدم الى جمال باشا الصغير الذي كانت القوات التركية المحاربة لجيش فيصل في معان تابعة له طالباً منه الجواب بسرعة إذ أن هجوم البريطانيين العام قد قرب ميعاده، فرفعه هذا بدوره الى القائد العام، فحبذه ليمان فون ساندرس، إلا انه لم يحرز رضى السلطات العليا في الاستانة. فرفع فيصل نتيجة مساعيه الى والده الذي أراد أن ينتهز الفرصة ليحصل من بريطانيا على تأكيد أكثر صراحة بتعهدها تأمين استقلال العرب بالحدود المرسومة، وهي المقدمة له من الفتاة. وقد هدد بالانسحاب من المعركة اذا لم يوافق البريطانيون على ذلك، فكان جوابهم المماطلة والتسويف.

وبالنظر لقرب قيام الانكليز بهجومهم العام في جبهة فلسطين وعدم

تمكنهم من عرقلة خط رجعة الجيش التركي بقواهم الخاصة فانهم أناطوا هذا الامر الهام بالامير فيصل الذي كان يتشوق الى سورية ونجدة مواطنيه فيها ، فرحب بالأمر ، وأعد حملة من خيرة جنوده المدربين تحت قيادة نوري السعيد على أن يرأسها بنفسه . وهكذا غادرت الحملة أبا اللسل في ٣١ اغسطس ١٩١٨ قاصدة الازرق وفي طريقها ارسلت مفرزة دمرت جسر السكة الحديدية الكائن بين المفرق والزرقاء بقصد عرقلة تموين الجيش العثماني المرابط في جبهة السلط وعمان . فبلغت الازرق في ١٢ ايلول . وقد بارح الامير فيصل أبا اللسل بالسيارة وكنت في معيته . وتوقفنا في مضارب الحويطات ليستصحب شيخها عودة أبو تايه ورجاله ، ولكن الشيخ تردد كثيراً بحجة احتياج أهله للزاد ، وقاسى فيصل كثيراً من الصعوبة حتى تمكن من تدبير المبلغ الذي رضي به . فأخذناه وابنه محمد معنا الى الازرق وعكف الامير على مخابرة مشايخ جبل الدروز وحوران معلناً قدومه لسورية لتخليص البلاد من المظالم والاهوال التي حلت بها طالباً اليهم الانضمام اليه . وكنت أقوم بوظيفة كتابة المخابرات . وقد حدث أثناء ذلك حادث غريب إذ أن محمد بن عودة أبو تايه عطش فلم ير أحد أليق مني ليأتيه بالماء لان الفقيه وهو الوحيد الذي يعرف القراءة والكتابة بين البدو هو أقل شأناً من الجميع . فأسرعت وأجبته الى طلبه لأن الوقت كان وقت عمل لا وقت ارشاد الجهلاء ، لكن فيصل لم يوافق على ذلك وقال لي : « على هؤلاء أن يعلموا بانك لست فقيهاً لدى قبيلة بدوية بل انني اعتبرك كأخٍ لي » . وأفهم ذلك من كان حاضراً .

وفي اليوم التالي وصلت الحملة العسكرية الى الازرق . ثم وصلت

الى الازرق بيارق وآل نوري الشعلان لتكون تحت امرة الامير .
وبعد استراحة الحملة يومين في الازرق اتجهت الى حوران . وبعد سفرها تحرك ركاب الامير في السيارات من الازرق ونزلنا في حوران قرب (أم السراب) وقد تجمعت جموع الرولة والحويطات بأطراف مقر الامير ووافته مشايخ حوران مسلمة ، إلا انهم التزموا خطة الحذر . وقد اندفع من بينهم بوطنية جائشة شيخ قرية طفس طلال حريدين يشجعهم ويلقي الحماس بين صفوفهم . وفي ١٦ سبتمبر ١٩١٨ وصلت الحملة الى حوران فرجوت الامير أن يسمح لي بمرافقتها مع نوري السعيد فوافق على ذلك .
وخربت الحملة في ١٧ منه مخفر تل عوار الكائن على بعد ثماني كيلومترات شمالي درعا ، ثم خربت طريق السكة الحديدية ، واتجهت الى المزيريب حيث خربت محطتها واتصلت بطلال حريدين بغية تسهيل تخريب جسر السكة الحديدية الكبير الكائن قرب تل شهاب . وكاد هذا الامر الخطير يتم لولا أن قطاراً وصل في اللحظة الاخيرة وبه قوة كبيرة مسلحة بالمدفعية والرشاشات المحافظة عليه . لذلك عادت الحملة باتجاه درعا قاصدة محطة نصيب جنوب درعا لعرقلة تموين وقطع خط رجعة الجيش المرابط في جبهة السلط ـ عمان ، فدمرتها وواصلنا السفر الى أم السراب واستمرت أعمال تخريب قضبان السكة الحديدية . وفي ٢٤ منه علمت قيادة الحملة ان الهجوم البريطاني الكبير على جبهة فلسطين قد نجح وتمزق الجيش التركي وأخذت كل قواته تتراجع فخفت الحملة لقطع خط رجعتها وأسرت ما عثرت عليه من القوات المتراجعة من عمان . وبعد أن تركت قوة في نصيب لمنع اصلاح خط السكة الحديدية ، قررت قيادة الحملة قطع خط رجعة القوى الاساسية التركية المتراجعة عن طريق سكة

حديد حيفا ، فاتجهت نحو الشمال فوصلت في صباح ٢٧ منه الى الشيخ سعد ، واجتمعت فيها بالقوى البدوية التي تجمعت حول نوري الشعلان وعوده أبو تايه وكان يرأسها الشريف ناصر . ولم يطل مقامنا فيها حتى أتانا رسل أهل قرية طفس يستجيرون بالحملة لتصد عنهم اعتداء الترك الذين مروا بقريتهم ، وكانت القوة المعتدية عظيمة ولديها قيادة منظمة تحت رقابة فنية ألمانية ، وهي تود سلوك طريق طفس ، نوى ، دمشق . ولما كنا نجهل امكانيات هـذه القوة ولم نسترح من عناء السفر ، فلم يقابل طلب قرية طفس بحماس ، بل ان نوري الشعلان ندد بالحورانيين لعدم قيامهم بواجبهم أمام طلال حريدين قائلاً : « على مشايخ حوران أن يدافعوا عن أموالـكم وأعراضكم وأن يعملوا مثلما نعمل نحـن » . فارتد طلال الى قريته مع بعض المتطوعة البدو الذين رافقوه وقاوم المعتدين بكل حمية وشجاعة حتى سقط شهيداً في ساحة الشرف . ثم خف قسم كبير من قوتنا لتخليص أهل القرية من القتل والتمثيل وصبت نيران مدافعها الرشاشة على المعتدين الذين هالتهم هذه المفاجأة ، فأسرعوا بالاتجاه نحو درعا ـ شيخ مسكين ـ دمشق . وعندها عدنا الى الشيخ سعد . ثم علمنا أن القوى البريطانية تتجه نحو درعا فقصدناها قبل طلوع فجر يوم ٢٨ ايلول وكنت مع لورنس أول من دخل البلدة . واتصلت الحملة في درعا بالقوات البريطانية . ثم غادرنا درعا قاصدين دمشق حيث بتنا في قرية غباغب وقبل فجر أول تشرين الاول دخل الشريف ناصر دمشق مع رجال القبائل الذين كانوا تحت لواء نوري الشعلان ومتطوعي الدروز الذين انضموا الى الشريف ناصر بقيادة سلطان باشا الاطرش . وأعقب ذلك دخول الحملة النظامية بقيادة نوري السعيد ثم الخيالة الاسترالية .

وبلغ مجموع القوات التركية التي أسرها العرب أكثر من (٢٥) الف جندي ، كما ان عدداً قد يزيد على هذا أخرج من صفوف القتال بسبب المرض وانهاك القوى والاصابة أثناء المعارك . فلو أن جمال باشا وحكومة الاتحاديين سلكا مسلكاً حكيماً مع العرب لكان تعذر على الانكليز اختراق جبهة فلسطين بقوة لا تزيد كثيراً على الـ (٢٥) الفاً يقابلها عدد لا يقل عنها من الجنود الاتراك ، ولكان في الامكان أن ينضم الى القوى التركية أيضاً ما لا يقل عن هذا العدد من خيرة الجنود الاتراك الذين كانوا يقاتلون العرب ما بين المدينة ومعان ، ولما كان بامكان الجيش الانكليزي الهجوم وجناحه الايمن غير مؤمن . ولقد أظهر العرب كل ما في وسعهم من نية حسنة لتفادي هذا المصير المشؤوم ، لكن تعنت الاتحاديين أوصلهم الى هذه النتيجة . هذا ولا شك أن العرب لو لم يقوموا بثورتهم المباركة لما أمكن الحيلولة دون انتصار الحلفاء وتسليم الاتراك وحلفائهم بدون قيد أو شرط ولكانت بلادهم مسرحاً لاستعمار أشد هولاً مما عانوه بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى .

وعندما دخلنا دمشق كانت الاعلام العربية ترفرف على مؤسساتها الرسمية إذ اننا كنا كلفنا رضا باشا الركابي وشكري باشا الايوبي بتشكيل حكومة وطنية في دمشق دون انتظار دخولنا بعد أن لم يعد في امكان القوى التركية المقاومة . إلا أن رضا باشا لم يكن في دمشق إذ عينته القيادة العثمانية قائداً عاماً للاستحكامات التي فكروا باقامتها حول المدينة للدفاع عنها . فاضطلع بذلك شكري باشا الايوبي ورفع العلم العربي بعد ظهر ٣٠ سبتمبر على دار الحكومة وكان طيب القلب فوحد مساعيه مع الامير سعيد الجزائري وأخيه عبده وقبل تقدمهما عليه . وعندما بلغت

السراي كان لورنس قد وصل إليها فدهشنا من ذلك لأن المذكورين لم يكونا من الوطنيين الذين يعملون مع فيصل وانما كانا يعملان مع رجال الحكومة العثمانية ولهما صلة بفرنسا . فلم نتحمل هذا الوضع بعد الانتصار الباهر الذي نلناه ورغب لورنس في تنحيتهما عن التدخل في شؤون الحكم فوافقته على ذلك ، فدخلنا بهو السراي الكبير لمفاتحة الشريف ناصر بما تقدم ، إلا اننا فوجئنا بصياح وعربدة بالغرفة المجاورة بين عودة أبو تايه وسلطان الاطرش فخرجنا حالاً لاصلاح ذات البين فما كان من الامير سعيد إلا أن كلف الشريف ناصر بأخذ قسط من الراحة في داره وغادر السراي . وكانت تلك خطة مدبرة لتفادي العاصفة إذ لم يكن من الحكمة أن يترك الشريف ناصر السراي في الوضع الحرج الذي كانت دمشق مسرحاً له في تلك الساعات العصيبة ورغب بأخذ قسط من الراحة ، عوضاً عن الاضطلاع بمهام ترتيب شؤون الحكومة ، وكانت قوات الحملة العربية قد استلمت المباني الرسمية كما ان مقدمة الجيوش البريطانية قد وصلت اليها . فألح العقلاء على الشريف ناصر بالعودة حالاً الى السراي فعاد ومعه الامير سعيد وأخوه فتفاهمنا مع الشريف ناصر وابلغ الامير سعيد لزوم التزامه بيته إلا أنه لم يرتدع بسهولة فحنق عليه لورنس وقال له : ان هذا ما يرتأيه من بيدهم الامر ، وان لم ترعو فان الشريف ناصر سيأمر القوى التي بامرته بالقاء القبض عليك ويجب أن تعلم بان القوى البريطانية أيضاً مستعدة لمساعدة القوى العربية لتأمين الهدوء والنظام في المدينة . فخرج حانقاً . وفي هذا اليوم السعيد كان الفرح يغمر سكان مدينة دمشق والاعلام العربية التي كنا أعددناها من قبل ترفرف في انحائها . وكان همنا الوحيد في ذلك

اليوم تأمين الأمن ومنع رجال القبائل الذين رافقونا من أن يعمدوا الى السلب والنهب اللذين تعودوا عليهما في حياة البادية ، فطلبت الى كبير مراقبي الشرطة ان يبلغ جميع أفراده بالاستمرار على أعمالهم كالسابق وان يقوموا بواجباتهم فأجابني بان ذلك يتطلب سرعة تنقله وليس لديه ما يركبه فسلمته حصاني وقام بهذه المهمة على أحسن وجه ، لكن الحصان المسكين بعد أن أعيد إليّ قضى نحبه من شدة الارهاق . وكانت دوريات الجند في الشوارع الرئيسية تسهل مهمة الشرطة وقد وصل رضا الركابي بالوقت المناسب للسراي واستلم رياسة الحكم وفقاً للقرار الذي كان تبلغه . وفي ١١/٣ غادر فيصل حوران ودخل دمشق فاستقبل بحفاوة لا نظير لها وحل ضيفاً في دار محمود بك البارودي في الشابنكلية .

وبعد دخول فيصل دمشق استأذنه لورنس بالسفر وعاد الى بلاده . وكانت الحرب لم تزل قائمة ، لذلك صدر أمر الجنرال اللنبي قائد قوات الحلفاء باحالة ادارة سوريا الى سموه بصفته قائداً من قواد الحلفاء . وكان رضا باشا الركابي بالاتفاق مع هيئة ادارة الفتاة قد تسلم الادارة فيها لتخليصها من الفوضى بعد عودته لدمشق ، عقب دخول الجيش العربي ثم الانكليزي لها وانسحاب الجيش العثماني . وكان أول ما قام به اعلانه بان الجيش العربي بقيادة الامير فيصل العليا سيعدم كل من يجرؤ على الاخلال بالأمن ، وأمر بنصب مشنقة أمام دار الحكومة ، فاستتب النظام في دمشق للحال إذ كان أول واجب نسعى لتحقيقه ، هو استتباب الأمن وعودة أمور الدولة الى مجاريها الطبيعية .

وفي ٥ تشرين الثاني ١٩١٨ أصدر الامير بياناً عيّن بموجبه الركابي

حاكما عسكرياً لسوريا وأقر آلنبي هذا التعيين الذي كان قائماً . وهذا نص البلاغ المذكور :

الى أهالي سوريا المحترمين :

أشكر جميع السوريين على ما أبدوه من العطف والمحبة وحسن القبول لجيوشنا المنصورة والمسارعة للبيعة باسم مولانا السلطان أمير المؤمنين الشريف حسين نصره الله ثم ابلغهم المواد الآتية :

١ ـ تشكلت في سورية حكومة دستورية عربية مستقلة استقلالاً مطلقاً لا شائبة فيه باسم مولانا السلطان حسين شاملة جميع البلاد السورية .

٢ ـ قد عهدت الى السيد رضا باشا الركابي بالقيادة العامة للحكومة المذكورة نظراً لثقتي باقتداره ولياقته .

٣ ـ تتألف ادارة عرفية لرؤية المواد التي يحيلها القائد اليها . بناء عليه أرجو من الاهالي الكرام المحافظة على الهدوء والسكون والطاعة للحكومة الجديدة والانقياد لأوامرها والاصغاء لتبليغاتها . وأبلغكم بأني سأكون تجاه جميع الافراد المنضوين تحت لواء الحكومة العربية كأب شفوق كما اني سأكون شديد العقاب على من يجرأ على مخالفة أوامرها والعبث بقوانينها وايقاع العراقيل في سبيل سيرها ورقيها . لذلك فاني آمل من أهالي سوريا الذين برهنوا على محبتهم لنا بترحيبهم بنا أن يكونوا مثالاً حسناً للطاعة والسكون حتى يثبتوا للعالم أجمع أنهم أمة لائقة للاستقلال قادرة على ادارة شئونها بنفسها . وليعلم جميع الناس أن حكومتنا العربية قد تأسست على قاعدة العدالة والمساواة فهي تنظر الى جميع الناطقين بالضاد على اختلاف مذاهبهم وأديانهم نظراً واحداً

لا تفرق في الحقوق بين المسلم والمسيحي والموسوي فهي تسعى بكل ما لديها من الوسائل لتحكيم دعائم هذه الدولة التي قامت باسم العرب وتستهدف اعلاء شأنهم وتأسيس مركز سياسي لهم بين الأمم الراقية .

والله نسأل أن يوفقنا جميعاً الى ما فيه خير العرب واعلاء كلمتهم والسلام .

في ٢٧ ذي الحجة سنة ١٣٣٦ الشريف فيصل

وصدر الامر بعودة جميع الموظفين الى أعمالهم كالمعتاد . إلا أن عدد رجال الأمن لم يكن كافياً فصدر الأمر بتعيين محمد علي التميمي أحد موظفي العدلية الاداريين بدمشق لمديرية الشرطة . وعينت لجنة لانتقاء أفراد الشرطة من المشهود لهم بالخلق الحسن والسمعة الطيبة . فانضممت الى تلك اللجنة لأن المصلحة كانت تقضي بالاسراع في العمل وتعيين عدد كاف من رجال الأمن إذ ان فيصل كان يرغب في أن يطارد الجيش العربي الجيش العثماني المنهزم لاخراجه من حدود سورية قبل أن يتمكن من جمع فلوله في الشمال ، وفي تنظيم فرقة بدوية محلية تنضم الى الجيش النظامي العربي فتواصل حركاتها في الشمال . وقد علمنا في تلك البرهة أن ياسين الهاشمي قد وصل الى دمشق مع فلول جيشه المنهزم في السلط ، وجرح في الطريق جرحاً بسيطاً في وجهه ، والتجأ الى أحد المنازل في الميدان ، فأسرعنا الى زيارته ، وانضم الى هيئة الفتاة الادارية التي كانت تجتمع بانتظام ، وتقرر الخطة الواجب اتباعها وجميع الأمور الهامة ، وتنفذها بواسطة الأمير والركابي اللذين هما من أعضائها .

وفي ٦ تشرين الاول عين الامير شكري الايوبي حاكماً للساحل

السوري بعد أن أخلى الترك بيروت في ١ تشرين الاول ١٩١٨ وأعلنت المدينة انضمامها للحكومة العربية وحذت حذوها المدن الساحلية الأخرى فقصد شكري الأيوبي الى بيروت مع معاونه رفيق التميمي الذي عين ليساعده في تسيير الأمور السياسية والادارية ، وكان جميل الالشي رئيس اركان حربه ، فرفع الايوبي العلم العربي على السراي في بيروت في ٧ تشرين الاول وكان الاتراك قد جلوا عنها باتجاه رياق ، ومنهـا الى حمص وأخلوا حمص في ١٢ منه ليشكلوا خط دفاعهم في حلب .

ثم قصد الى لبنان وأعلن في بعبدا باسم فيصل اعادة امتيازاته التي ألغاها الاتراك الى سابق عهدها ، وعين حبيب باشا السعد متصرفاً على لبنان . إلا ان فرنسا احتجت على ذلك احتجاجاً شديداً ، وطالبت بريطانيا بتنفيذ اتفاق سيكس ـ بيكو الذي يطلق يدها في ادارة الساحل السوري ومن ضمنه ولاية بيروت ولبنان . وأسرعت فأرسلت القوة العسكرية التي كانت اعدتها ، وانزلتها في الثامن من تشرين الاول ١٩١٨ في بيروت التي كانت محتلة بقوى بريطانية فقط . فأصدر الجنرال آلنبي في ٩ منه أمراً بتعيين (الكولونيل دى بياباب) الافرنسي حاكماً على المنطقة الغربية من بلاد العدو المحتلة بالنيابة عن الحلفاء ، كما اصدر امره بانزال العلم العربي عن دوائر الحكومة فانزل باحترام عسكري ، ولم يرفع مكانه علم آخر . وقيل ان هذه الاجراءات ليست أكثر من تدابير عسكرية الى ان يبت في مصير البلاد بعد انتهاء الحرب . وبقي الالشي ورفيق التميمي ضابطي ارتباط للجيش العربي في بيروت بعد أن عاد الايوبي لدمشق .

وقد زار الجنرال آلنبي فيصـل في دمشق وأطلعه على الخطة التي

ستتبع في ادارة البلاد الى ان يعقد الصلح مع الترك ويتقرر مصيرها نهائياً . وخلاصة هذه الخطة هي انشاء حكومة عسكرية عربية تبدأ من حدود الحجاز وتضم شرقي الاردن ودمشق وحمص وحماه وحلب ويكون على رأسها الأمير فيصل باسم القيادة الحليفة ومرجعه اللورد آلنبي . وعين الكولونيل كورنواليس ممثلاً لآلنبي والكولونيل كوس ممثلاً للفرنسيين لدى الامير لتأمين حسن التفاهم معهم .

أما الساحل السوري فسيديره باسم الجيش الحليف ضابط فرنسي وفلسطين ضابط بريطاني وهو الميجر جنرال ارثر موني . وقيل ان هذا الوضع لن يطول كثيراً وسينتهي بعد عقد الصلح مع الترك . لكن وضع الساحل وفلسطين الذي ابلغ للأمير لم يرضه فوجد الامير نفسه امام مصاعب عظيمة في سورية بسبب اشتباك المصالح الدولية بشأنها وعزم فرنسا وانكلترا على تنفيذ ما تم الاتفاق بينهما بخصوص الساحل السوري وفلسطين .

وكان الامير فيصل وأهل البلاد جميعاً لا يقبلون بغير الاستقلال والوحدة ولا يريدون بهما بديلا ، الأمر الذي جعل مهمة الامير شاقة مترعة بالمصائب والاشواك ثم ان هذه الخطة لم تترك للسوريين أي ميزة في الوظائف والاعمال العامة على غيرهم من اهل بقية البلاد العربية كالفلسطينيين والعراقيين . هذا ولم يتأخر الاقطاعيون واكثر من ينعتون انفسهم بأبناء الذوات الذين يستندون على التزلف للحكام عن استغلال هذا الوضع لتأمين منافعهم وتقوية نفوذهم على حساب الشعب ، فسعوا سعيهم لتفريق وحدة الامة احوج ما تكون اليها للوقوف في

وجه التيارات والمطامع الاجنبية التي تتجاذب الوطن متذائبة لاستعماره بعد تمزيق وحدته .

وكان الجنرال فون ساندرس باشا يبذل قصارى الجهد لجمع شتات ما تبقى من الجيوش التركية المتراجعة بادىء ذي بدء في ريّاق فلم يتوفق . لكنه توصل بعد ذلك الى تأليف قوتين كل منهما تعد خمسة آلاف مقاتل ، وأمر احداهما وكانت بقيادة مصطفى كمال باشا بصد القوى الحليفة في مشارف المعرة ، وتجمعت الثانية في شمال حلب . وفي ١٩ تشرين الاول دخلت القوات الانكليزية وفي مقدمتها قوة عربية غير نظامية الى حماه ولكنها لم تتمكن من التقدم إذ لاقت مقاومة عنيفة من القوات التي تحت قيادة مصطفى كمال ، فاستنجدت قوة العقيب البريطانية بفيصل ، فأسرعت الحملة العسكرية العربية بقيادة علي جودة لمعاونتها مع جموع المتطوعين العرب ، فدخلت حماه ثم تمكنت القوى العربية بمساندة السيارات المدرعة الحليفة في ٢٣ منه من التغلب على القوى التركية في تلول المعرة وابو الضهور بقيادة تحسين علي بسبب مرض علي جودة واضطراره للبقاء في حماه ، وزاد عدد القوة العربية بما انضم اليها من عرب الشمال . وفي ٢٤ تشرين الاول كانت حلب تعج بالعرب المسلحين الذين ينتظرون الهجوم ليشتركوا به . وفي ٢٥ منه هاجمت قوى الامير التي استلم قيادتها نوري السعيد حلب وبرغم المقاومة التي أبدتها قوى مصطفى كمال فقد تغلبت عليها القوات العربية واستولت على دار الحكومة مساء ٢٥ تشرين الاول بعد أن انضم اليها كل من تمكن من حمل السلاح من أهل المدينة ، الأمر الذي اضطر مصطفى كمال الى اخلاء مدينة حلب ومشارفها بسرعة فدخلتها على الاثر القوى البريطانية أي في ٢٦ منه . وكانت

الدولة العثمانية قد عقدت الهدنة مع الحلفاء وساد الاعتقاد بأن حالة الحرب قد انتهت مع الترك ولم يكن احد يعتقد ان الصلح معهم لن يتم إلا بعد أربع سنوات . وفي هذه المدة ظلت سوريا معتبرة جزءاً من اراضي العدو المحتلة . وقد استلم الجيش العربي زمام الامور في حلب . وفي ٣٠ منه كان استلم مصطفى كمال القيادة من الالمان في كليكيا . وعين الامير شكري باشا الايوبي حاكما موقتاً لحلب .

وهكذا تم الاستيلاء على سوريا ، وانضم لخدمة الحكومة كافة الموظفين العرب الذين وجدوا فيها أو تمكنوا من الوصول اليها من سوريين وفلسطينيين وعراقيين وكل الضباط العرب الذين كانوا في خدمة الجيش التركي وانسحبوا منه ، فارتأى ياسين باشا بالاتفاق مع رضا باشا تحت ضغط الظروف ، حل جيش الشمال الذي دخل دمشق ظافراً بقيادة فيصل بعد جهاد مرير ، واجراء تشكيلات جديدة للجيش ، فعين الامير ياسين باشا الهاشمي رئيساً للشورى العسكرية ، ودخل جميع الضباط في خدمة الجيش ، وشكلت ثلاث فرق : فرقة في حلب ، وواحدة في دمشق ، واخرى في درعا . وعين جميع الموظفين العرب القادمين الى سورية في وظائف الدولة التي شغرت بمناسبة نزوح الموظفين الاتراك من البلاد . ولما لم يبق وظيفة لقائد الجيش الشمالي جعفر باشا العسكري الذي حارب بامرة فيصل من الحجاز الى العقبة الى قبيل دخول دمشق اذ كان مجازاً في مصر في تلك الايام للتداوي والاستجمام ، فقد صدر الامر بعد وصوله لدمشق بتعيينه حاكما لحلب محل حاكمها الموقت وسمي نوري باشا السعيد رئيساً لمرافقي الامير بعد أن تتوج جهاده ورفاقه

بالتوفيق باستلامه زمام الامور في حلب وعمله لتعود أعمال الدولة فيها الى حالتها الطبيعية .

وان انتهاءنا لهذه النتيجة السعيدة جعلنا نخفف من قيود قبول الاعضاء في الفتاة . وارتأينا أن كل من كان يليق لاستلام عمل هام في الدولة الناشئة يستحق أن يكون عضواً من أعضائها . وبذلك أصبح أكثر المتربعين في الوظائف الرئيسية في الحكومة من أعضائها . وبالنظر لكثرة الاعضاء رؤي أن يقسموا الى قسمين : فمن دخل في الفتاة قبل دخول الجيش العربي لدمشق اعتبر عضواً أساسياً ، وله الحق بمعرفة جميع الاعضاء ، وان ينتخب الهيئة الادارية في كل سنة وقوامها سبعة أعضاء وكانوا اذ ذاك ياسين باشا الهاشمي وشكري القوتلي ورستم حيدر وعزة دروزة ورفيق التميمي وتوفيق الناطور والدكتور قدري . ومن دخل في الفتاة بعد دخول الجيش العربي دمشق اعتبر عضواً عادياً . ثم لم نكتف بذلك بل رأينا أن يكون لنا مظهر خارجي يعمل كحزب سياسي في البلد . فأسسنا حزب الاستقلال ، وأنيط أمر الاشتغال به حسب توجيهات الهيئة الادارية ، بتوفيق الناطور ، وانتخب سكرتيراً مساعداً للحزب المحامي سعيد الغزي ، فنتج عن حسن التفاؤل الذي ساد الموقف نتيجة لم تكن مفيدة للوطن سيما بعد أن تقوض الحكم الوطني في سورية سنة ١٩٢٠ . إذ لم تعد هنا أي رابطة قوية تربط أعضاء الفتاة في الوقت الذي كان يجب أن يستمر نضالها بتضحية واتحاد كالسابق . فأثر هذا الوضع على من لم يكن منتسباً للجمعية ممن اعتادوا الوجاهة من أهل الشام وعلى من كان يرغب في الوظائف ولم ينلها بسبب العهدة بها لمن هو أحق منه من شباب العرب فتشكلت جبهة ضعيفة تناوىء الحكم القائم ،

لكن فيصل وجد في المثقفين من أبناء الشعب تقديراً ومساعدة . وفي ٧ تشرين الثاني ١٩١٨ صدر تصريح انكليزي - فرنسي يطمئن أهل البلاد على مستقبلهم بعد القلق الذي ساورهم نتيجة لعدم تحقيق رغباتهم وهـــذا نصه :

« ان السبب الذي من أجله حاربت فرنسا وانكلترا في الشرق تلك الحرب التي أهاجتها مطامع الالمان ، انما هو التحرير الشعوب التي رزحت اجيالاً طوالاً تحت مظالم الترك تحريراً تاماً نهائياً واقامة حكومات وادارات وطنية ، تستمد سلطتها من اختيار الاهالي الوطنيين لها اختياراً حراً . ولقد أجمعت فرنسا وانكلترا على أن تؤيدا ذلك بأن تشجعا وتعينا على اقامة هذه الحكومات والادارات الوطنية في سورية والعراق المنطقتين اللتين أتم الحلفاء تحريرهما وفي الاراضي التي ما زالوا يجاهدون في تحريرها ، وأن تساعد هذه الهيئات وتعترف بها عندما تؤسس فعلاً ، وليس من غرض لفرنسا وانكلترا ان تنزلا أهـالي هذه المناطق الى الحكم الذي تريدانه ولكن همهما الوحيد أن يتحقق بمعونتهما ومساعدتهما المفيدة عمل هذه الحكومات والادارات التي يختارها الاهلون من ذات أنفسهم ، وأن تضمن لهم عدلاً منزهاً يساوي بين الجميع ويسهل عليهم ترقية الامور الاقتصادية في البلاد باحياء مواهب الاهالي الوطنيين وتشجيعهم على نشر العلم ووضع حد للخلاف القديم الذي قضت به السياسة التركية . تلك هي الاغراض التي ترمي اليهـا الحكومتان المتحالفتان في هذه الاقطار المحررة » .

وقد أراد بعض من لا يفقهون المعاني المستترة خلف البيانات السياسية

الرنانة العذبة من مدّعي الوجاهة أن يعدوا هذا التصريح مستنداً رسمياً واعترافاً بنيل البلاد العربية المنفصلة عن تركيا استقلالها . الا اني ، نظراً لاقامتي مدة طويلة في باريس واطلاعي على طراز المساعدات التي يعلنون انهم يسدونها للمغرب الاقصى والجزائر وتونس والتي لم يكن من شأنها إلا استعباد أهالي تلك الاقطار ، فقد اعتبرت هذا التصريح كارثة قاصمة ، لانه اشتمل على المعونة والمساعدة من انكلترا وفرنسا للحكومة العربية التي وضعنا أسسها في دمشق لا الاعتراف باستقلالها التام . وقد ذكرت في هذه الاثناء ذلك الاعلان الذي نشر في جميع محطات السكك الحديدية والترام في باريس يوم كنت فيها . وقد جاء فيه وجوب استصلاح الاراضي الزراعية في الجزائر من واردات الحكومة المحلية ، وكان من شروط شراء هذه الاراضي أن يكون الراغب افرنسياً مستعمراً ، أي لا يحق لاحد من الجزائريين أن يتملك ما هو بحاجة اليه من هذه الاراضي . فأين العدل ؟ وهل هذا نمط المساعدة التي يعلنون عنها ويعنون باسدائها على أهل تلك البلاد ؟ لذلك بحثت « الفتاة » هذا الأمر وقررت أن تعلن أن البلاد متمسكة باستقلالها التام ووحدتها وفقاً للأسس التي قامت عليها ثورة الحسين العربية الكبرى ، وأيدتها البلاد كلها في قرارها هذا رغم تقولات الجبهة المعارضة الضعيفة .

وكان الأخ شكري القوتلي يعضدني بشدة لاسكات صوت جبهة الذوات المعارضة ، إذ كنا نحن الاثنان من هيئة الفتاة الادارية اللذان يسعهما الاضطلاع بذلك بنجاح .

☆ ☆ ☆

وبعد أن استقرت الامور في العاصمة رغب الامير في زيارة حلب

عاصمة الشمال برفقة نخبة من شباب دمشق الوطنيين فغادروا دمشق الى زحلة ومنها الى بعلبك فحمص فحماه ووافوا الامير في معرة النعمان ، إذ لم تكن السيارات حينئذ متوفرة حتى يسافروا سوية . وقد غادر الامير فيصل دمشق بالسيارة في ٤ تشرين الثاني وبمعيته الدكتور أحمد قدري ومرافقاه فزار حمص ثم حماه حيث حل فيها ضيفاً على آل العظم القديم ، وكان استقباله على طول الطريق استقبالاً شعبياً حافلاً بمظاهر التأييد وعرفان الجميل . ولحظ سموه في حمـاه شماع نهضة شعبية من أهم مظاهرهـا الاهتمام بنشر التعليم بين أبناء الشعب ، فاستنهض همم الاهلين لجمع التبرعات ونشر العلم ، فجمع في جلسة واحدة أربعة آلاف ذهبة ، ووعد الاهلون الامير بجمع ثمانية آلاف جنيه أخرى لسد هذا النقص تيمناً بزيارته لمدينتهم . وفي مساء الخامس من تشرين الثاني وصل الامير لمعرة النعمان فاستقبل أيضاً بالهتافات والزغاريد ، وأعد السيد الحراكي اسموه سماطاً عظيماً ، وقضى ليلته في ضيافته . وفي اليوم الثاني دخل حلب تواكبه هذه النخبة الممتازة من الشباب الدمشقي ، فاستقبلته الشهباء بشيبها وشبابها ونسائها وأطفالها وكانت الهتافات والزغاريد تشق عنـان السماء والورود والرياحين الملقاة على الامير تملأ الطرقات .

وشرع الامير فيصل في تنظيم ادارة شؤون عاصمة الشمال وتوثيق عرى المحبة ، والعمل على الوثوق من اعتمادهم عليه . وقد أقيم له في ١١ تشرين الثاني ١٩١٨ اجتماع حافل لاظهار تعلق الحلبيين به ولتلقي توجيهاته في نادي العرب الفسيح فألقى فيصل في الاجتماع أول خطاب سياسي ممتع له وهذا نصه بعد المقدمة :

... خروج الاتراك من بلادنا ونحن الآن كالطفل الصغير ليس لنا

حكومة ولا جند ولا معارف ، والسواد الاعظم من الشعب لا يفقه معنى الوطنية والحرية ، ولا ما هو الاستقلال حتى ولا شيء يذكر من كل هذه الامور ، ذلك نتيجة ضغط الاتراك على عقول وأفكار الامة . لذا يجب أن نفهم هؤلاء الناس قدر نعمة الاستقلال ونسعى ، إن كنا أبناء أجدادنا ، لنشر لواء العلم ، لأن الأمم لا تعيش إلا بالعلم والنظام والمساواة ، وبذلك نحقق آمالنا وآمال حلفائنا .

أنا عربي ، وليس لي فضل على عربي ولو بمثقال ذرة . انني وفيت واجبي الحربي كما وفى والدي واجبه السياسي فانه تحالف وتعاهد مع أمم متمدنة بدأت توفي بعهودها ولا تزال تساعدنا على تشكيل حكومة منتظمة ، فعلينا ابراز هذه الامنية الى حيز الوجود بكمال الحزم والعزم لأن البلاد لا يمكنها أن تعيش بحالة فوضى ، أي بلا حكومة . وهذا واجب في ذمة الأمة وأهل البلاد ، ونبرأ الى الله مما يحصل لهذه البلاد بعد اليوم . أنا ومن معي سيف مسلول بيد العرب يضربون به من يريدون .

أحض اخواني العرب على اختلاف مذاهبهم بالتمسك بأهداب الوحدة والاتفاق ونشر العلوم وتشكيل حكومة نبيض بها وجوهنا ، لاننا اذا فعلنا كما فعل الاتراك نخرج من البلاد كما خرجوا لا سمح الله ، وان فعلنا ما يقضي به الواجب يسجل التاريخ أعمالنا بمداد الفخر . انني أقل الناس قدراً وأدناهم علماً لا مزية لي إلا الاخلاص .

انني اكرر ما قلته في جميع مواقفي بأن العرب هم عرب قبل موسى وعيسى ومحمد ، وان الديانات تأمر باتباع الحق والاخوة على الارض .

وعليه فمن يسعى لايقاع الشقاق بين المسلم والمسيحي والموسوي فما هو بعربي .

إننا عرب قبل كل شيء وأنا أقسم لكم بشرفي وشرف عائلتي وبكل مقدس ومحترم عندي بانه لا تأخذني في الحق لومة لائم ، ولا أحجم عن مجازاة من يتجرأ على التفرقة ، فلا أعتبر الرجل رجلا إلا اذا كان خادماً لهذه التربة .

عندنا والحمد الله رجال أكفاء كثيرون ولكنهم مقيمون خارج الديار وفي بلاد الاتراك ، وسيأتون قريباً ان شاء الله فيصلحون الخلل الموجود هنا ، ولا يجدر أن نتقاعس عن العمل ريثما يأتون ، فما لا يدرك كله لا يترك جله ، ويلزم علينا أن نبتدىء بدون أن ننظر للمرء من حيث شرف عائلته وخصوصيته بل ننظر الى الرجل الكفء وجيهاً كان أو وضيعاً إذ لا شرف إلا بالعلم . الانسان يخطىء فاذا أخطأت سامحوني وبينوا لي مواطن خطئي .

وبما أن أغلب الافراد يجهلون قدر نعمة الاستقلال كما بينت لكم فلا يبعد أن يحصل في بعض المحلات ما يخل بالأمر فالحكومة مجبرة على تطبيق معاملاتها على القانون العسكري العرفي مدة الحرب ريثما يتم تشكيل حكومة منتظمة .

أرجو اخواني أهل البلاد أن ينظروا الى الحكومة نظر الولد البار للوالد الشفوق ويساعدوها جهد طاقتهم ، ويعلموا أن الحكومة مشرفة على أعمال الافراد والموظفين .

ان الحكومة في طورها الجديد بحاجة لايجاد قوة تحفظ كيانها ،

فكل من يعبث بأوامرها ويخل بمقرراتها يستهدف ليدها القوية ، ولأجل حفظ الاستقلال ليس لي إلا أن أدعو أهل البلاد للاهتمام الزائد بتكوين حكومة ثابتة الاركان متينة الجانب .

الدرك والشرطة هما قوام البلاد وبدونهما لا تنتظم أحوال الحكومات . لذلك أطلب من الجميع وخصوصاً الشبان أن ينتظموا بهما وأن لا يتأخر أحدهم عن خدمة وطنه وبلاده بدون نظر لموقعه العائلي بقيامه بتلك الخدمة .

ان الشرطة وظيفة شريفة عالية وان الانسان يتولى كل عمل في داخليته وبيته حتى لنجد رب البيت يكنس داره بيده ولا يرى بذلك استخفافاً .

وستكون القوانين السابقة مرعية الاجراء الى أن يتم سن القوانين من قبل المجلس الأعلى ، أي مجلس الأمة .

الحكومة الحاضرة تحفظ الأمن والنظام ريثما تتعين هيئات الحكومة الجديدة .

العرب نحل وشعوب مختلفة باختلاف الاقليم ، فالحلبي ليس كالحجازي والشامي ليس كاليمني ، ولذا قرر والدي أن يجعل البلاد مناطق تطبق عليها قوانين خاصة متناسبة مع أطوار وأحوال أهلها . فالبلاد الداخلية يكون لها قوانين ملائمة لموقعها ، والبلاد الساحلية أيضاً يكون لها قوانين طبق رغائب أهلها .

كان من الواجب علينا أن نبتدىء أولاً بجمع الهيئة التي تسن هذه القوانين ، ولكن العرب الذين هم في البلاد الخارجية هم أعلم منا بالقوانين الأكثر ملاءمة للبلاد ، ولذلك نرجىء هذا الأمر الى وقت اجتماع هؤلاء ، وفي أقرب وقت يصلون ان شاء الله . ان الذين استدعيتهم من الخارج رجال قديرون على وضع قوانين صالحة ملائمة لروح البلاد

وطبائع أهلها . وسيكون اجتماعهم في دمشق أو غيرها من البلاد العربية لعقد مؤتمر ، وسأنظر بأعجل وقت بشؤون الاوقاف والكنائس ورد حقوقها المغصوبة من قبل الاتراك وأعطي كل ذي حق حقه .

وأطلب من اخواني أن يعتبروني كخادم للبلاد ، إنكم قد أعطيتموني البيعة بمنتهى الاخلاص والرضى فأقابلها بالقسم العظيم أني لا أفتر عن نصرة الحق ورد الظلم وعمل كل ما يرفع من شأن العرب . وأرغب الى الاهالي أن يؤازروني بالعمل في خدمة اجتماعية الى أن يلتئم مجلس الأمة فأقول حينئذ هذه بضاعتكم ردت اليكم .

ان حلب خالية من المدارس فأتمنى لها مستقبلا علمياً باهراً كما كانت عليه بالتاريخ وأرجو أخيراً صرف الهمة والنشاط لأمرين مهمين : (١) حفظ النظام العام . (٢) ترقية المعارف . فوالله لا يمتاز أحد عندي إلا بفضله وعرفانه .

عند مروري من حماه استنهضت همة الاهالي بكلمات وجيزة للعناية بالعلم وافتتاح المدارس . وبجلسة واحدة تبرع بضعة أشخاص بأربعة آلاف جنيه ، ووعد الآخرون بابلاغها حتى (١٢) الف جنيه . وسأستدعي حضرات الاهالي بحفلة خاصة للعناية بهذا المشروع الهام ، مشروع العلم روح البلاد . نسأل الله تعالى أن يوفقنا لخدمة البلاد ونفع العباد ويمتع الامة بالحياة الرغيدة والسلام .

السفر الى باريس :

ولم تطل اقامة الامير في حلب إذ وصلت اليه برقية من والده الملك

حسين ليمثله في مؤتمر فرساي ، ضاحية باريس الشهيرة . فاعتذر فيصل بادىء ذي بدء عن قبول هذه المهمة لأنه ليس لديه نصوص العهود المعطاة لوالده من بريطانيا بشأن استقلال البلاد العربية التابعة لتركيا بعد انتهاء الحرب ، فأرسل اليه الملك حسين يقول له بأن نصوص هذه العهود موجودة في وزارة الخارجية البريطانية فلا حاجة لارسال نسخة عنها له كأن هـذه الامور السياسية الهامة تحل بسهولة ، والعهود والمراسلات السياسية لا يمكن مخالفتها أو تحوير مفهومها — وقد وقعت المخالفة فعلاً عندما طالب فيصل رئاسة الوزراء ، لدن وصوله الى لندن بتنفيذ العهود المقطوعة للعرب — أي ان تحقيق ما تم الاتفاق عليه مع بريطانيا ، هو في نظر الحسين من الامور المسلم بها شأن عهد يعطيه هو ، ولا يدور في خلده أبداً عدم البر به شأن معاملات أمراء ورؤساء شيوخ العرب . فاضطر فيصل لقبول المهمة . وأناب عنه أخاه زيد لرئاسة الدولة .

وغادر الامير حلب في ١٨ تشرين الثاني الى طرابلس عن طريق حمص ، وما كان استقبال الفيحاء له بأقل من غيرها من المدن السورية روعة ، وأضافه فيها عبد الحميد كرامي مفتيها وزعيمها الكريم ، وكانت جميع الخطب التي القيت ترمي الى أن طرابلس جزء لا يتجزأ من سوريا وانها ميناؤها الطبيعية وقد أنابت الامير عنها في تحقيق ذلك .

ووصل الامير لبيروت في ١٩ تشرين الثاني سنة ١٩١٨ واستقبله الشعب البيروتي ورجالاته بحفاوة بالغة ، وكان قائد الفيلق الحادي والعشرين البريطاني الجنرال بولفين في مقدمة مستقبليه . وأبلغه أنه أعدّ له قصر سرسق الكبير الذي يسكنه لينزل به ، وهرعت رجالات دمشق لبيروت لوداعه وزوّد حكومة دمشق بتعليماته .

ثم أبحر الامير من بيروت في ١٩١٨/١١/٢٢ على مركب حربي بريطاني صغير اسمه غلوسستر وبصحبته رئيس مرافقيه نوري السعيد ورئيس ديوانه رستم حيدر وكاتبه الخاص فائز الغصين ومرافقه الخاص أخي تحسين ، وكاتب هذه المذكرات بوصفه طبيبه الخاص ومستشاره .

ولما كانت القيادة الحليفة العليا في سوريا بريطانية فهي التي قامت بتدبير رحلة الامير وفق تعليمات لندن ، فلم يرق ذلك لفرنسا واحتجت لدى الملك حسين على عدم أخذ رأيها في ذلك .

وعند وصول سموه الى مرسيليا في ١٩١٨/١١/٢٦ ، استقبل استقبالاً رسمياً من قبل السلطات المدنية والعسكرية فيها ، إلا اننا لاحظنا أن الحكومة الفرنسية وضعت الخطة لاستقباله بصفته أميراً حجازياً ونجل ملك الحجاز الذي اشترك في الحرب مع الحلفاء ، جاء ليزور فرنسا . وبما ان انكلترا هي التي اضطلعت بمهمة سفر الامير ، فبطبيعة الأمر لم يستشر ممثل فرنسا المسيو جورج بيكو في ذلك لأن الجنرال آلنبي هو القائد الأعلى للحلفاء في سورية . ومع ذلك لم يرق لفرنسا هذا التصرف فأبلغت ممثلها في جده الكولونيل كوس ، الملك حسين ، استغراب فرنسا لهذا العمل وعدم إمكان اعتبار نجله مفوضاً بمهمة سياسية الى فرنسا . وكانت الصحف الفرنسية تلقبه بالامير الحجازي ، منكرة عليه الاعتراف بأنه جاء الى مؤتمر السلم ليشترك فيه كقائد عربي حليف دخل سورية دخول الظافرين على رأس جيشه مع الجيش البريطاني ، وأن له اليد الطولى في انتصارات الجنرال آلنبي في جبهة فلسطين إذ كان يحمي جناح جيشه الأيمن . وقد اعترف له بذلك القائد الانكليزي بصراحة تامة . وتناست فرنسا ، وصحفها من وراء مطامعها ، أن القوى العربية من القوة بحيث

كانت تؤلف ما يقرب من ثلث الجيش العثماني المخصص للحرب في جبهة فلسطين والحجاز ، كما أن من خطورة ثورة الحسين انها جعلت الجيش التركي في بلاء مستطير وتلقاء جم من العراقيل لأنه راح يحارب وكأنه في بلاد عدوه ، الأمر الذي شعرت به القيادة الالمانية وأشارت الى خطره وصعوبة اجراء الحركات العسكرية في مثل واقعه ، بل هي نصحت بالانسحاب من فلسطين قبل الهجوم البريطاني الكبير في ١٩/٩/١٩١٨ الى خط أقرب للحدود التركية لتلافي الخطر .

وكانت الخطة التي سلكتها الحكومة الفرنسية إحاطة الامير بجميع مظاهر التكريم والتبجيل بغية التأثير في نفسه وسيراً على السياسة التي تتبعها في شمال افريقية . ثم إقصاؤه عن الاشتراك في مؤتمر الصلح في فرساي ممثلا للعرب بالمؤتمر . فأعد لسموه صالون خاص أقله وحاشيته الى ليون ليزور الجبهة الغربية ، فاستقبل في ليون في ٢٧ تشرين الثاني ١٩١٨ استقبالاً عسكرياً ، وكانت جنود الخيالة بأبواقها تحييه من المحطة حتى فندق ترمينوس الكبير الذي نزل به .

وقد التحق بالأمير في ليون الكولونيل بريمون ممثل الحكومة الافرنسية في جده ليمثل حكومته لدى فيصل وحده ، عوضاً عن لورانس الذي التحق بالأمير في مارسيليا كممثل للحلفاء . فأغضب ذلك فرنسا فأبلغته العدول عن مرافقة الامير ، في ليون ، واستعاضت عنه ببريمون .

وكان سمو الامير بارتدائه الملابس العربية ، وعلى رأسه الكوفية والعقال ، وبوجهه السموح المستطيل يوحي الى كل من يشاهده بنبالته وسموّ وجاهته ، ويستميل اليه الافئدة والقلوب ، بل ان كثيراً من رجال الغرب المرموقين راح يشبهه بالسيد المسيح .

وواصل موكب الامير سفره من ليون مساء ٣٠ تشرين الثاني الى أن بلغ بلفور في الصباح ، وكان بين مستقبليه السيد قدور بن غبريط . ووصل الى استراسبورغ في السادسة مساء .

وقد زار الامير أثناء الطريق جبهة القتال في فردون ، وكان الضباط الفرنسيون الذين عهد اليهم أن يرافقوه يشرحون له تفاصيل المعارك الطاحنة وما أبلاه الجيش الافرنسي في مقاومة الالمان بقيادة الماريشال بيتان ، وان المدينة التي أصبحت أطلالاً لأكبر شاهد على ذلك .

والواقع ان مدينة ستراسبورغ عبارة عن قلعة جميلة لا مثيل لها في حينها من حيث التحصينات القوية ، فالمدافع الضخمة لم تكن تشاهد من على سطح الارض وانما كانت أفواهها هي البارزة فقط استعداداً اصب الحمم ، وهي محفوظة في أبراج فولاذية متحركة . وكان سكان المدينة جميعاً تقريباً لا يتكلمون إلا الألمانية . وقد شاهدت في أحد المقاهي جوقة موسيقية تعزف ألحاناً شجية وعند انتهاء العزف عزفت (مارش المارسيليز) فلم ينهض لتحيته واحترامه أحد ، فما كان من العسكريين الموجودين هناك الا أن أعملوا فيهم الركل بالاقدام اكراهاً لهم على القيام احتراماً لنشيدهم القومي .

ومما لاحظت أيضاً أن بعض سكان المدينة كان ينظر نظرة الاستغراب الى بائعي المأكولات والفواكه الفرنسيين ، اولئك الذين تحوّلوا من القرى الافرنسية المجاورة لبيع سلعهم في الميادين العامة . ثم ما ينتجه عملهم من اطراح بعض الفضلات من المأكولات على الارض ، مما لا عهد للسكان بمثله .

وفي ستراسبورغ قلدت الحكومة الافرنسية سمو الامير وسام جوقة الشرف الاكبر باحتفال عسكري مهيب كان يترأس عليه الجنرال غورو . ومن ستراسبورغ دعي سمو الامير لزيارة فيسبادن ، وهي من أجمل مدن الاستحمام الالمانية . ومنها الى فرنكفورت . وكانت خطة قيادة الجيوش الحليفة التي يرأسها المارشال فوش هي اطالة اقامة الامير في مدن الجبهة وفقاً لتعليمات وزارة الخارجية الافرنسية ليكون بعيداً عن باريس التي سيفتتح بها مؤتمر السلم ، وما قدم الامير إلا ليشترك به ويطالب بحقوق العرب في استقلالهم وفقاً للعهود التي قطعت لجلالة والده الملك حسين ، وجرياً مع مبادىء الرئيس ولسون الامريكي .

وكان سمو الامير قد انتبه لما دُبّر حوله من مؤامرة ، وذلك من خلال أحاديث الكولونيل لورنس قبيل مغادرته افرنسا بناءً على طلب من وزارة الخارجية الفرنسية . . . أدرك أن الحكومة الفرنسية غير راغبة في اشتراكه بمؤتمر الصلح مندوباً عن جلالة ملك الحجاز الذي حارب في صفوف الحلفاء ، وأن بريطانيا لا تشاركها هذا الرأي ، وإن كانت الشبهة تدور بها هي نفسها في تحقيق ما وعدت به العرب ، الأمر الذي حدا بلورنس أن يعيد الى الحكومة الافرنسية والى حكومته جميع الاوسمة التي كان يحملها احتجاجاً على اخراجه من فرنسا أولاً ثم على عدم تحقيق ما كان يعني به فيصل والملك الحسين من نتائج اشتراك العرب في الحرب مع الحلفاء ونيلهم حقوقهم كاملة .

واتجه فيصل الى الحكومة البريطانية يستوضحها عن صحة نوايا فرنسا فوصل اليه الرد مؤيداً ، وذلك الى فرنكفورت التي كان يحتلها الجيش البريطاني . وللحال قرر السفر الى باريس رغم ان برنامج زيارته لما ينته

بعد ، وكان من المقرر أن يكون الامير ضيفاً أيضاً في منطقة الاحتلال الامريكية على الجنرال برشنغ قائد القوات الاميركية في ألمانيا ، لكنه اعتذر مغيراً برنامج الزيارة ، واكتفى بتناول الغـداء على مائدته . ولم ينظر الجنرال الى ذلك بعين الرضى سيما وهو عسكري كبير ولا يعرف ما يحاك من مؤامرات السياسة لاحباط مطالب العرب التي كان يمثلها الأمير فيصل .

وطلب الامير من الكولونيل بريمون ابلاغ قراره بالشخوص لباريس حالاً للحكومة الافرنسية مضيفته ، فاستجاب الكولونيل لرغبة الامير ، وأبلغه في اليوم الثاني نص البرقية الآتية : لقد حدد رئيس الجمهورية مقابلة الامير في ٧ كانون الاول عند الساعة الخامسة ، واتخذت كافة الاسباب لوصوله بسرعة الى باريس حسب رغبته .

وتمت مقابلة الامير ومعيته لرئيس الجمهورية بالميعاد المحدد . ولكن من المؤسف أن يكون كلمنصو قد اتفق مع لويد جورج على التنازل لبريطانيا عن كون الموصل منطقة نفوذ اقتصادي فرنسي وفقاً لاتفاق سايكس ـ بيكو لقـاء تأييد بريطانيا مطالب فرنسا في سورية ، قبيل ذلك التاريخ . فكان هذا الاتفاق ضربة قاصمة لأماني العرب الوطنية كما سيأتي ذكره .

وحجز لسمو الامير في باريس جناح خاص في فندق الكونتننتال . وكان أول ما فكرت به في باريس هو التحري عن صديقي وزميلي في جمعية الفتاة السيد عوني عبد الهادي الذي لم يتمكن من مغادرة باريس قبل اعلان الحرب العـامة ، وانقطع اتصاله بالوطن ، فذهبت تواً الى « البنسيون » الذي كنت اساكنه فيه وهو يحمل رقم ٦ بشارع الاستراباد ،

خلف البانتيون . ولكنني علمت انه انتقل الى نزل صغير مجاور ، وأنه قاسى كثيراً أثناء الحرب حتى اضطر أن يكون مناظراً للاولاد الصغار في احدى المدارس الابتدائية . ولكنه حافظ دوماً على مبادئه القويمة ولم يقبل أية اعانة تلقاء ترويجه دعاية فرنسا في حق الاشراف على سورية . فاستصحبته الى فندق الكونتيننتال حيث اجتمعنا ومحمد رستم حيدر على الذكريات الماضية . ومما فهمناه منه ان فرنسا جادة في تحقيق رغبتها بأن تكون لها الكلمة العليا في سورية ولبنان وأن تكون المشرفة على شؤونهما بأي شكل كان ، وانها أوجدت في باريس ومصر والمهجر الاميركي أحزاباً وجمعيات صورية تعمل بايحاء منها وعلى نفقتها برئاسة شكري غانم للبنان ، والدكتور جورج سمنه لسوريا . وعلى الاثر قدمته لسمو الامير كأخ صادق بالفتاة ، فاستقبله استقبالاً حسناً وألحقه بمعيته .

السفر الى لندن :

وسعى سمو الامير جهده لتحقيق الغاية التي أتى باريس من أجلها وهي الاشتراك بمؤتمر الصلح ، فألفى حياله معارضة شديدة من الحكومة الفرنسية ، ولذا عزم على السفر الى لندن لمفاوضة الحكومة البريطانية ومطالبتها بتحقيق الوعود التي قطعتها لوالده الملك حسين باسم العرب .

وفي ٩ كانون الاول ١٩١٨ غادرنا باريس الى بولون . وقابلنا في الميناء عند المساء الكولونيل لورنس ، ثم ركبنا الباخرة قاصدين البر البريطاني . وعند وصولنا الى لندن حللنا ضيوفاً على الحكومة البريطانية في فندق كارلتون أفخم فنادق لندن . وكان الكولونيل لورنس لا يفارق الأمير ، ويسهل كل ما يحتاج اليه . ولقد أحاطت الحكومة البريطانية

سمو الأمير بكل مظاهر الحفاوة والاحترام ، ولم تتأخر عن تهيئة مقابلته للملك الانكليز . وقد رافقه خلال المقابلة الكولونيل لورنس للترجمة ، وكان يلبس اللباس العربي برغم ان البروتوكول البريطاني لا يجيز مثول الضباط البريطانيين لدى الملك بغير زيهم العسكري . وكانت غاية لورنس من ذلك مراعاة شعور الأمير لأنه كان يقابله دوماً بالزي العربي ، ولم يكن له بد من مرافقته لأنه كان مكلفاً بالترجمة .

هذا ولما طلب الأمير الى الحكومة البريطانية تحقيق العهود المعطاة للعرب بواسطة الملك حسين ، وفقاً للنصوص المحفوظة في وزارة الخارجية البريطانية واعطاءه صوراً عن نصوص عهودهـا للملك حسين ليجري البحث على أساسها ، أجابته بالمماطلة ، وتلكأ الموظفون البريطانيون في تحقيق مطالبه كثيراً .

وفي ١٣ كانون الاول ١٩١٨ وصل الرئيس ولسون الى برست ، فاستقبل في باريس وفي لندن استقبال الفاتحين العظام . وقد رأيت لندن تهب بقضها وقضيضها لاستقباله مرتدية أبهى حلة من الزينة .

ومن الانصاف ان نقول أن بريطانيا قد ساعدت سمو الامير على دخول مؤتمر السلم بتعضيد من أميركا ، ومنح للحجـاز والعرب حق الاشتراك فيه بممثلين عوضاً عن ممثل واحد ، كما كان يطلب الأمير ، وذلك برغم مقاومة فرنسا الشديدة لذلك .

مساعي اليهود :

وفي غضون اقامتنا في لندن سعى اليهود كثيراً للاتصال بالأمير فيصل ، وبثوا الدعاية الشديدة بأنهم على استعداد لمعاونة العرب سواء في المحافل

السياسية الاوروبية أو الاميركية ، ليحصل العرب على حقوقهم كاملة . فقبل الأمير بمقابلة ثلاثة من زعمائهم ، وهم ويزمان البريطاني ، وسوكولوف البولوني ، وهربرت صموئيل وزير البرق والبريد السابق في انكلترا ، فقدموا له كتاباً يوقعه برضائه معترفاً بتأسيس وطن قومي - ثقافي فقط في فلسطين - لقاء مساعدتهم العرب في المحافل السياسية .

وهنا ثارت ثائرة عوني عبد الهادي ، وهرع إليَّ نردّ الخطر ، فدخلنا على الامير واشتركنا بالمباحثات فذكر عوني بأنه قرأ في كتاب صهيوني أن اليهود يودون تشكيل دولة يهودية في فلسطين ، فأجابه هربرت صموئيل بأن ليس ثمة من يكتب بل من يفكر بمثل هذا إلا أن يكون خيالياً مجنوناً . وانتهى البحث بأن كتب الأمير على تلك الوثيقة بتوقيعه وبخطه وبالعربية بأنه يقبل بما عرض عليه اذا ما وفى اليهود بوعدهم وتم للعرب تحقيق استقلالهم من طوروس الى خليج البصرة ، وفقاً لمطالب الملك حسين من الحكومة البريطانية قبل دخوله الحرب .

انكلترة تتراجع :

وكانت معاهدة سيكس - بيكو التي وقعتها الحكومة البريطانية مع فرنسا في أيار عام ١٩١٦ تمنح فرنسا حق الاضطلاع بشؤون الساحل السوري وحق الافضلية في تنسيق شؤون الحكومة العربية المستقلة التي ستؤسس في القسم الجنوبي من ولاية حلب القديمة وسورية ودير الزور والموصل ، كما ان لانكلترا حق الافضلية في شؤون العراق والبلقاء وحق الاضطلاع بشؤون البصرة ومدينة حيفا ، أما في فلسطين فتشكل حكومة أممية .

ولما رأت الحكومة البريطانية أن من المتعذر عليها مخالفة هذه

المعاهدة ، لم تشأ أن ترتبط مع الأمير بأي عهد من غير موافقة فرنسا وعن غير طريق مؤتمر الصلح الذي تقرر عقده في باريس في ١٨ كانون الثاني ١٩١٩ .

وكان الحلفاء إبان الحرب يغدقون الوعود على الشعوب التي يودون استمالتها اليهم ، ويعدون المطالبين بالحرية والاستقلال فيها بمساعدتهم على تحقيق ذلك وبالسهر على حقوق بلادهم ، كل ذلك لاغرائهــا في ترك القتال ضدهم . وهذا ما حدث فعلا مع الملك حسين ، فاتفاق سيكس - بيكو وقع قبل العهود الموقعة مع الحسين وهي تتعارض معه وكان يجب أن تكون هي المعمول بها . ومن الغريب ان بعض الاتفاقات السرية بين الدول الكبيرة كانت خفية عن بقية حلفائها بدليل ان أميركا التي كانت تنادي دوماً باتباع السياسة الواضحة المبنية على العدالة والحرية ، فانها لم تطلع من الحلفاء على العهود السرية المختلفة التي اتفقوا عليها وأبرموها ولم يستلفت اليها نظر الرئيس واسون .

العودة الى باريس :

وأشير على الأمير بالعودة الى باريس للاتصال بالحكومة الفرنسية بعد أن تقرر اشتراكه في مؤتمر الصلح . وكانت عودتنا اليها في ٦ كانون الثاني . ولقد نزل الامير في احدى « الفيلات » بشارع غابة بولونيا كما نزلت حاشيته في احدى الدور القريبة منها في أحد الشوارع الثانوية لأن « الفيلا » المذكورة لم تكن كافية لسكنانا جميعاً . بيد أن الامير احتفظ الى جانبه برئيس مرافقيه نوري السعيد ومرافقه الخاص تحسين قدري . وكان همه الاكبر بعد الذي استيقن من موقف فرنسا وبريطانيا أن يسعى لنيل تعضيد الولايات المتحدة الامريكية في الحصول على استقلال

العرب استناداً الى ما كان ينادي به الرئيس ولسون في مبادئه من ان يكون للحق والعدالة المقام الاول في شروط الصلح ، وأن تراعى رغبات جميع الشعوب الحقة .

وجاء في خطاب ولسن لدن افتتاح مؤتمر السلم :

« ان ما تنفر منه العدالة ، هو أحلام الفتوحات والاستعمار ، وتبادل البلاد بين الدول ، كأن الشعوب ليست سوى أثاث ينقل . لقد تغير الزمن فلم يبق الدبلوماسيون قادرين على الاجتماع لفرض ارادتهم على زاوية مائدة وتبديل خريطة العالم ، فاذا كان عليكم أن تعدلوا ثلث الخريطة ، فليكن تعديلها باسم الشعوب بشرط أن تعبروا بأمانة واخلاص عن أمانيها وتحترموا حق الأمم صغيرة كانت أم كبيرة في حكم نفسها ، ويرشدكم لتحقيق هذا العمل العظيم العلم والتاريخ اللذان ينيران لكم السبيل » .

وقد اشترك في المؤتمر مع ممثلي الدول الكبرى مندوبو سبع وعشرين دولة آزرت الدول الكبرى في الحرب ، وهي لا تود إلا إلغاء سياسة العنف وتحقيق ما نادت به أمريكا بخصوص اقامة الحق مقام القوة وتأمين حرية الشعوب لتحكم نفسها بنفسها . ولذا لم يلق الامير صعوبة في تأمين العطف على قضية العرب .

ولكن من المؤلم أن دور هذه الدول في المؤتمر كان دور اصغاء للمناقشات ، لا لمناقشة الآراء ، ثم تلبية دعوة مجلس العشرة المؤلف من مندوبي الدول العظمى الخمس : أمريكا ، انكلترا ، فرنسا ، اليابان ، ايطاليا . ومما لاحظنا أن الكولونيل « هوز » مساعد الرئيس ولسون ومندوبه الخاص أقوى شخصية في الوفد الاميركي حتى أن الرئيس

ولسن لم يتردد في أن يصرح بأن المستر هوز شخصه الثاني . والحق ان الكولونيل هوز كان سياسياً ممتازاً يتحلى بدماثة الخلق والكياسة ، متواضعاً للغاية ، وكان من أكبر العاملين على اعلان الرئيس ولسن مبادئه الاربعة عشر ، لا سيما بعد أن استيقن من اختلاف الحلفاء وعدم الانسجام الدبلوماسي بينهم . فكل مندوب يسعى ليجترّ أكبر قسط ممكن من المنافع الاستعمارية لحكومته ، متخذاً من الحق والعدالة ستاراً الى غاياته الطامعة .

وكان من حصيد ما تقدم أن الرئيس ولسن أدرك أن بريطانيا وفرنسا تخالفان وجهة نظره في تحقيق مبادىء العدالة والحق وتسيير سياسة العالم بعد الحرب على قواعدها . وانهما ما زالتا تتبعان في سياستهما نهج الطمع والاستعمار . ولذا راح يخالفهما ويبذل غاية جهده في فرض ارادة حكومته نصرة للشعوب الضعيفة ومساعدتها على تقرير مصيرها . وقد تجلى ذلك في الوقوف بوجه بريطانيا وفرنسا بما يتعلق بمستقبل البلدان العربية المنسلخة عن تركيا ، إذ ثبت في الدفاع عن مبدأ وجوب تقرير المصير حتى اضطر حليفتيه الى مجاراته والنزول على حكمه في عدم ترك قضية مستقبل البلاد العربية بعيدة عن مباحثات مؤتمر السلم . وهكذا تقرر في ٣٠ كانون الثاني ١٩١٩ بأن لهذه البلاد حقها المشروع في تقرير مصيرها على أن تنتدب عليها جمعية الأمم . وقد أقر مجلس الحلفاء الأعلى عهد جمعية الأمم بعد شهر دامجاً قراره في المادة الثانية والعشرين من ميثاقها .

وكان سمو الأمير ينتهز كل فرصة ، رسمية كانت أو خاصة ، للاجتماع بالكولونيل هوز وتوطيد العلاقات الودية مع الوفد الامريكي . ولم يكن

يجد في ذلك مشقة لما امتاز به أفراد هذا الوفد من صراحة وحرية .

ولما كان قد تقرر أن يكون للحجاز والعرب مندوبان في مؤتمر السلام ، فقد تم الاتفاق على أن يكون السيد محمد رستم المندوب الثاني مع الامير بالنظر لدراسته الحقوقية والسياسية . وعين كل من نوري السعيد والدكتور قدري وعوني عبد الهادي أعضاء مساعدين للوفد الحجازي ليعملوا في لجان المؤتمر . وقد افتتح المؤتمر في ١٨ كانون الثاني ١٩١٩ في فرساي بين مظاهر العظمة والابهة .

وكان يسود جوه فكرتان متباينتان : الفكرة الاميركية ، وهي التي كان يرددها ولسن وترمي الى خلق نظام عالمي جديد مبني على الحق والعدل كيما يسود السلام وينتفي الخصام . . . ثم فكرة رؤساء بقية الدول الكبرى التي تهدف الى احتلاب أقصى ما يمكنها من المنافع الاستعمارية متقيدة بما كانت أبرمته من المعاهدات السرية التي لم تقرهـا برلماناتها وكانت قد قطعت العهد لولسن بعدم اتباعها في أوائل عام ١٩١٧ .

وفي ٦ شباط بسط الامير مطالب العرب وهاجم بشدة تقسيم بلادهم وفق معاهدات سرية وجعلها مناطق نفوذ للدول العظمى ، وطالب باستقلالها ووحدتها ، ثم ارسال لجنة لاستفتاء أهلها بعد أن اتفق على ذلك مع الوفد الاميركي للتأكد من مطالب الأهلين ولدحض مدعيات الجمعيات المرتبطة بفرنسا أمثال جمعيات شكري غانم وجورج سمنه وغيرها مما فسح المجال لسماع أقوالها بالمؤتمر في ١٩١٩/٢/٣٠ وتكلم في المؤتمر بالتاريخ نفسه هواردبلس رئيس الجامعة الاميركية في بيروت وقال بأن السوريين يودون الوحدة والاستقلال .

ولما كانت الحكومة الفرنسية تود أن يكون لها ما يبرر مطالبتها بتحقيق اتفاقية سيكس ـ بيكو في سورية ولبنان فانها ألحقت بالأمير السيد قدور بن غبريط ليقنعه بقبول تقديم فرنسا لسورية مساعدات ما مهما كانت بسيطة قد تحتاج سورية اليها ، لتبرير موقفها أمام ولسن بصورة خاصة . فقمت حاجزاً منيعاً في هذا السبيل لانني كنت أعرف ما كان من نتيجة ذلك في تونس ومراكش . وكان الأخ جميل مردم بقي في فرنسا مدة الحرب وقد استطعت معرفة مقره آنذاك في مصح هادىء بضاحية باريس فاتصلت به حالاً ليكون ضيفاً على الامير ، وسكنا معاً في منزلنا الخاص ، ولما كان شكري غانم على اتصال بجميل منذ عقد مؤتمر باريس العربي وكان قدمه لفرنسا كصديق واتفق معها لتدعو جميل يتكلم في مؤتمر فرساي ، لذلك اتفقنا على ما يجب أن يقوله في المؤتمر فكان موقفه مشرفاً ولم تصل فرنسا عن طريقه الى ما كانت ترمي اليه من آمال ، وأصبح من معية الامير .

وعند عودة سموه لسورية عاد في الباخرة التي تقل سموه ولم يكن منتظراً منه غير ذلك لأن الامير ومحمد رستم وعوني عبد الهادى وفائز الغصين وأنا وأخي تحسين وجميل ، أي كل من كان مع الأمير ما عدا نوري باشا السعيد ، كنا من أعضاء جمعية الفتاة . أما نوري فكان من أركان جمعية العهد وهي المرتبطة معنا كما كنا ذكرنا .

وفي ١٤ شباط عقدت جلسة علنية قبل فيها ميثاق عصبة الأمم . وعندما بحث هذا الميثاق اعترض السيد محمد رستم حيدر مندوب العرب الثاني في المؤتمر على كلمة الانتداب الغامضة طالباً تحديد معناها ، كما

تعرض لمعاهدة سيكس - بيكو وتقسيم بلادنا الى مناطق نفوذ مؤكداً ان هذا العمل ليس من المضمون تقدير نتائجه ، وأنه نتيجة للاتفاق السري المذكور الذي لم يؤخذ رأي أهالي البلاد بشأنه . ولكن مرافعته القوية ذهبت صرخة في واد إذ لم يجب عليها أحد .

* * *

ولما كان الرئيس ولسن يتبع خطة مثالية جديدة في السياسة العالمية ، وكانت هذه الخطة تستلزم تحمل الولايات المتحدة مسؤولية عظيمة في العالم بينما الشعب الاميركي لم يتمرس بعد على الخروج على قاعدته ، قاعدة « مونرو » التي تجعل أميركا لا تعنى بغير شؤونها ، من أجل هذا لم يجد الرئيس ولسن التأييد الكافي من الشعب الأميركي والكونغرس حتى أن روزفلت رئيس الولايات المتحدة السابق صرح إثر نشر الرئيس ولسن لخطته ، ودعوته الحلفاء اتباعها في مؤتمر السلم : « يجب أن يفهم الرئيس ولسن وأعداؤنا وحلفاؤنا معاً بأن ليس لولسن الصلاحية بأن يتكلم باسم الشعب وكافة أقواله لا تعبر عن نيات الشعب الاميركي » ، منوهاً بذلك بأن الشعب الاميركي متمسك بمبدإ الرئيس مونرو الانعزالي الذي نادى به سنة ١٨٢٣ فالشعب لا يقبل مداخلة أوروبا بشؤون أميركا كما انها تبتعد عن المداخلة بشؤون غيرها ، الأمر الذي الذي اضطر ولسن ليغادر أوروبا الى أميركا ، ليصلح الجو فيها بقدر الامكان . ولكنه غيّر نهجه إثر عودته ، واضطر الى اقرار أشياء فاضحة لم يكن من المنطق أن يرضى بها بعد تلك الضجة التي أثارها في العالم بأن يكون للحق والعدل المقام الاول في مؤتمر الصلح .

وغاية ما تمكن الأمير من الحصول عليه تحقيقاً لمطالب العرب هي

الوعود الطيبة من الوفد الاميركي حتى انني سمعت الرئيس ولسن يخاطب الامير قائلا : لا يخامرنك أي شك في أن حقوق العرب ستصان ، ولن تروا في بلادكم أبداً عمالاً للاستعمار باسم المشورة أو خلافها ، واذا أحوجتكم المشورة فستكون بناءً على رغبتكم وموافقتكم . وفي ١٩١٩/٢/٣٠ تقرر في المؤتمر فصل البلاد العربية عن تركيا والاعتراف باستقلالها ووضعها تحت ارشاد احدى الأمم الراقية العريقة في الحكم . وفي ٢١ آذار قرر المؤتمر ارضاء لفيصل ارسال لجنة يشترك فيها كل من مندوبي فرنسا وانكلترا وأميركا لاستفتاء سكان البلاد العربية والتحقق من رغباتهم مع ان هذه الرغبات كانت مفهومة ، وكان يمكن الاعتماد على الامير الذي كان يحمل تفويض جميع الهيئات التي يحق لها التكلم باسم الشعب . وبرغم ان قرار المؤتمر بارسال لجنة دولية للاستفتاء جاء مغايراً لأمنية الامير الكبرى ، فقد كان في واقعه نصراً له .

العودة الى سورية :

وعلى أثر هذه الحوادث قرر الامير الرجعى الى سورية . ولكنه قبيل مغادرة باريس اجتمع في ١٦ نيسان ١٩١٩ بكليمانصو بوزارة الحربية وقد فاتح الامير بأن الانكليز سينسحبون من المنطقة الشرقية ، وبأنه يود أن تحل الجنود الفرنسية محل الجنود الانكليز المنسحبة ، فرفض الامير ذلك معللاً رفضه بوجود قوة عربية كافية فيها ، فلم يقتنع كليمانصو بجواب الامير ، واستتلى بأن الأمة الافرنسية تأبى إلا أن يرفع علمها على سورية ليمثلها مع قوة عسكرية افرنسية ولو قليلة فيها .

ان اتفاق قبول انسحاب الجيوش البريطانية من سورية في ١٥/٩/

١٩١٩ قبل أن يتقرر مصيرهـا هو مبدأ المساعدة الفعلية الانكليزية لفرنسا باطلاق يدها فيها مقابل انها كانت تنازلت لبريطانيا عن الموصل بقبول الحاقها بالعراق بتاريخ ٢٧ كانون الاول ١٩١٨ . إذ لم يجد لويد جورج صعوبة باقناع كلنصو بذلك لأنه كان يجهل كل شيء عن الموصل وبتروله المترقب استثماره وكانت سورية تملأ تفكيره ومشاعره إذ ما برح الافرنسيون منذ الحروب الصليبية يحلمون بوضع يدهم على سورية .

وهكذا غادر الامير فرنسا في ٢٣ نيسان ١٩١٩ ليحمل الى أهل البلاد نتيجة مساعيه وغاية ما تمكن من الحصول عليه ، ثم ليقول لهم : « اذا كنتم تودون الحصول على استقلالكم فما عليكم إلا تنظيم صفوفكم ، والتمسك بالاستقلال ، وتبليغ رغباتكم للجنة الاستفتاء الدولية » .

فاستقل القطـار ومعيته قاصداً الى سورية عن طريق روما تلبية لرغبة ايطاليا ، وكان قد زار ملك البلجيك في بروكسل . وفي روما حل ضيفاً على الحكومة الايطالية ، وقابل ومعيته ملك ايطـاليا ، كما زار قداسة البابا . وفي ٢٧ نيسان ١٩١٩ غادر ايطاليا من ميناء ترانتو عائداً الى بيروت على السفينة الحربية الفرنسية ادغار غينه . وبقي محمد رستم في باريس ممثلاً للحجاز في المؤتمر مع عوني عبد الهادي الذي أنابه الأمير عنه .

في بيروت :

وفي ١٩١٩/٤/٣٠ بعد الظهر وصل الامير الى بيروت ، فأطلقت المدافع من الميناء ترحيباً بسموه ، واستقل السيارة وعلى يساره الجنرال فين قائد الجيش البريطاني قاصداً دار المعتمد العربي . وقد أخذت السلطة

العسكرية البريطانية مسؤولية تأمين الأمن في بيروت بمناسبة مجيء الأمير ، واستقبلت بيروت الأمير استقبالاً شعبياً رائعاً .

وقد قام ضابطا ارتباط الجيش العربي لدى القيادة العليا الحليفة في بيروت جميل الالشي ورفيق التميمي بتنظيم الاستقبال استقبالاً برهن على تأييد الشعب لمطالب الأمير في مؤتمر السلم . وقد استعلنت هذه الحقيقة بكل وضوح إذ ان وفود البلاد السورية واللبنانية كانت تهتف له هتافات التأييد ، وتدعو الله بأن يحقق أهدافه .

وعند وصول الامير الى دار المعتمد العربي ودّعه الجنرال فين ، وطفق يستقبل وفود المدن السورية ويستمع الى خطبهم الحماسية وقد أجاب الخطباء بقوله الذي ذهب مثلاً : « ان الاستقلال يؤخذ ولا يعطى . . . لقد اعترف العالم باستقلالنا فعلينا أن نأخذه وأن نطلبه تاماً خالياً من كل شائبة ، وكل من يطلب معونة انكلترا أو أميركا أو فرنسا أو ايطاليا فهو ليس منا . نحن لا ننكر أننا محتاجون الى المعاونة الفنية وسنتفق عليها مع من نريد بحسب ما يوافقنا ، وهذا لا يكون إلا بعد أن نأخذ الاستقلال المطلق » .

وقد طلب اليه المجتمعون نشر بيان عن حقيقة الموقف والخطة الواجب اتباعها ليطمئن أهل البلاد على مستقبلها ، فأذاع في اجتماع صحفي البيان الآتي :

يا أبناء سورية العزيزة :

ها قد عدتُ الى الوطن بعد أن فارقته خمسة أشهر . وقد أبلغتُ العالم المتمدن ما انتدبتموني اليه من بيان مطالبكم فتقرر مبدئياً استقلال

بلادكم ، وصحت النية على ارسال لجنة تحقيق دولية تحقق ما نقلت الى الغربيين من رغائبكم . وستصل اللجنة في هذين الاسبوعين . وبهذا ترون أن قد تم القسم الأعظم من المهمة الخارجية التي نعمل لأجلها وذلك بحسن نيات الحكومات الأربع المعظمة وصدقها في أقوالها وتمسكها بالمبادىء السامية التي جعلتها دستوراً لأعمالها وطبقاً لأماني الأمة .

بقيت هناك المهمة الداخلية التي هي من خصائص هذه الأمة بأجمعها وهي المسؤولة عنها ، ونجاحها موكول اليها ، فعلى الشعب أن يقوم بما يقرره المؤتمر السوري العام الموقت الذي ينعقد عما قريب .

الأمم تود لكم النجاح ، وأنا أريد منكم أن تبرهنوا لهذه البعثة المحترمة التي ستشهد بالحق ، لكم أو عليكم ، بأنكم تستحقون الاستقلال وانكم قادرون على ادارة شؤونكم بأنفسكم . سجلوا أمام العالم والتاريخ أنكم أمة تفدي كل عزيز في سبيل أشرف غاية وهي الاستقلال الذي أعاونكم عليه وأنا أحد أفرادكم .

أنا لا أشك أنكم يد واحدة في المطالبة بحقكم الصريح والسعي للوصول اليه بكل ما في نفوسكم من قوة . تعملون وغايتكم متحدة ، والصدق رائدكم في أقوالكم وأعمالكم جرياً على ما تقتضيه منكم محبتكم لهذه التربة الطاهرة ، متمسكين بأهداب الحزم ، متخذين أسباب السكينة والتؤدة والغيرة على هذا الوطن .

واني آمل أن تثبتوا للعالم أنكم أحفاد اولئك الاجداد الذين كانوا سدنة الحرية ودعاة العدل . والتاريخ شاهد لا يماري في صحة القول . وان ما قامت به الجاليات السورية المنتشرة في أقطار العالم من جلائل

الأعمال ليدخل السرور الى فؤاد كل من يحب هذه البلاد . فقد أسمعت صوتها بأنها لا ترى السعادة كل السعادة إلا في الاستقلال التام بدون قيد ولا شرط ، فاذا كانوا على تفرقهم لا يرضيهم إلا هذا فأنتم باجتماعكم أكثر استمساكاً بحقوق بلادكم . تستقلون في بلادكم استقلالكم في بيوتكم ، فينظر كل صقع من اصقاعكم في شؤونه بنفسه مع احترام تقاليده وعاداته . أما المعاونة التي نحتاج اليها فنبتاعها بأثمانها .

هـذا ما أحب أن تجعلوه يا بني وطني نصب أعينكم ، وأن تكونوا المثال الحي ، وقدوة الابناء والأحفاد » .

وقـد نزل ضيفاً على قائد الجيوش البريطانية في سورية ولبنان (الجنرال فين) في حي السراسقة . وكان ذلك القصر المتسع يعج برجالات البلاد ورؤسائها الذين أتوا لاستقباله واظهار تأييدهم لمطالبه في مؤتمر السلام ، وهي مطالب الأمة .

في دمشق :

وفي ١٩١٩/٥/٣ غادر بيروت قاصداً دمشق . وقد استقبل على طول الطريق بأسمى مظاهر الترحيب والتأييد . ودخل دمشق دخول الغزاة العظام ، ونهض لاستقباله معظم السكان من شيب وشبان ونساء وأطفال وكانت الورود والرياحين التي تلقى عليه من الكثرة بحيث أصبحت تعرقل سير موكبه .

ودعا الأمير وفود مستقبليه ورجالات البلاد وأهل الرأي فيها للاجتماع في بهو سراي دمشق الكبير بعد عصارى الخامس من أيار ١٩١٩ ثم ألقى في الاجتماع الخطبة الهامة الآتية :

« أتشرّف بأن ألقي بضع كلمات على مسامعكم الكريمة . وهذه الكلمات ستكون تاريخية بالنسبة لحياة الأمة العربية الجديدة ومستقبلها . وأرجو العفو والعذر اذا سمعتم بعض أغلاط تقع مني في أثناء الحديث لكوني لست من رجال هـذا الموقف الخطابي وأرجوكم أن تنظروا إليّ بعين العذر وقد دفعني الى الكلام :

أولاً — ان أكثر هؤلاء الكرام الذين أتشرف بمخاطبتهم مجتمعون هنا من كافة أنحاء سوريا ، وقد أتوا الى بيروت لملاقاتي وأداء التحية باسم جميع المواطنين الذين ينوبون عنهم ، وحضروا الى هنا ليسمعوا مني ما حصل في الغرب في مؤتمر السلام بخصوص بلاد العرب عامة وسورية خاصة . ولا شك بأنني مجبر على القاء هذه الكلمات لأطمئن أهل البلاد على بلادهم وعلى استقلالهم مع اني في بعض الأحيان لا يمكنني أن أصرح بكل شيء لبعض الموانع السياسية التي تجبرني على السكوت عنها أمامكم . ولما كان أكثر الذوات لا يعرفون ما هي الحركة الثورية التي قامت في الحجاز وما هو السبب والدافع اليها ، ولربما انهم قبل يومنا هذا كانت أفكار بعضهم ممن لا اطلاع لهم على السياسة العمومية داعية الى اتهام هذه الثورة بتهم لا محل لذكرها ، ويقول ان من قام بهذه الحركة أتى بخيانة للوطن أو للجامعة العثمانية التي كنا نحن من أفرادها . ولكن على أثر انكسار الاتحاديين وتشتت شمل الحلف الجرمني ، علم المجموع أن من قام بالثورة هو رجل أو رجال عالمون بسير الحركة السياسية والعسكرية في العالم . وأن من قام بهذا ما قام إلا لحفظ قسم من جسم البلاد العثمانية وانقاذه مما سيقع به بعد الحرب . ولا شك أن المسؤول في الحركة أي الحركة الثورية العربية هو أولاً والدي ثم

الحجازيون مادة ، الذين قاموا بها فعلاً . أما السوريون فانهم مسؤولون عنها معنى لانهم قد شوقوا الحجازيين لهذه الحركة ، فنرى ولله الحمد أن الفخر وان كان أولاً للحجازيين فهو فخر للجميع ، لان هذه الثورة هي ثورة قومية لا يمكن أن نسندها إلا الى الامة جمعاء . نعم ! ان والدي قام بالثورة في أثناء النزاع العظيم العالمي ، بعد ما رأى أن الاتراك انقادوا الى التيار الالماني وأوردوا الامة العثمانية موارد الهلاك ورأى أن دوام العرب في الحرب مع الاتراك المتحدين مع الالمان سيوقع البلاد التركية في ذات الموقع ، ورأى أن الامة العربية التي طالما تمنت الخروج من نير الاستعباد والنهوض الى ما كانت عليه في سابق التاريخ طامحة بأنظارها الى الافلات من أشراك أعدائها . لهذا قام بالحركة بعد أن أتيت الى سورية وقابلت بعض الرجال الذين منهم كثيرون في مجلسنا هذا سواء من البدو أو من الحضر عقب مجيئي الى هنا ، ولا شك في انهم يذكرون ذلك .

ولما وصلت الي دمشق ورأيت ما رأيته من رجال الثورة رجعت الى الحجاز وأخبرت والدي كيف انهم قاموا بواجبهم ، وعليه قام . ولكن تقدير الباري جعل السوريين في موقف لا يمكنهم من مؤازرة الحجاز بما قام به لأسباب تعلمونها ، وهو ضغط الاتراك عليهم وما أتوه من الافعال التي سيسطرها التاريخ ويخلد ذكر من قتل ومن استشهد في تلك الاثناء من السوريين بأحرف ذهبية .

قام والدي ولم يفكر فيما يقع على الحجاز والحجازيين من القيام ضد الاتراك ولم يتيقن من النتيجة . إلا أن الباري سبحانه وتعالى يسّر هذه الامور ، فجلا الاتراك عن سورية .

لا شك أنه قبل ذلك قام ببعض مذاكرات ومعاهدات بينه وبين الأمم المحالفة أمم الحلفاء . واتكالاً على الباري سبحانه وتعالى ثم على العهود التي اخذها قام بالواجب الى أن انتهى الحرب وبدأ الصلح . ذهبت عن والدي الى باريس عقب جلاء الاتراك وكانت نفذت الخطط العسكرية في البلاد السورية المحتلة ، وجعلت البلاد السورية مقسمة الى ثلاث مناطق ، وهذا لتنفيذ الخطط العسكرية ليس إلا . وأسست الحكومة العربية العسكرية في داخلية سورية ، وهي ليست حكومة دائمة . ولذلك ذهبت الى المؤتمر الذي انعقد في باريس لآخذ لكل مستحق حقه . وصلت باريس ودخلت المؤتمر وجمعية الأمم لبث رغائب الشعب على قدر امكانياتنا واجتهادي ، وتمكنت من قول ما أريد . وعند ذهابي رأيت أمم الغرب في حالة جهل عميق عن أحوال العرب . كانوا لا يعرفون عن العرب إلا ما كانوا يعرفونه عنهم في حكايات الف ليلة وليلة ليس إلا . كانوا يظنون العرب عبارة عن الأمم العربية السالفة ولا يفتكرون بوجود الأمم العربية الحاضرة ، ولا يعرفون شيئاً عن الافكار السياسية العربية والنهضة التي حصلت فيها . يفتكرون العرب هم عبارة عن عرب البادية الذين يسكنون الصحراء ، وأما باقي سكان البلاد المعمورة فهم يعدونهم غير عرب . ولا شك أن جهلهم هذا جعلني أصرف وقتاً طويلاً لأفهم هذه الأمم الحقيقة وأثبت أن العرب أمة واحدة تقطن في البلاد التي تحدها البحار من الشرق والجنوب والغرب وتحدها جبال طوروس من الشمال » .

« قلت هذا للمؤتمرين وأخبرتهم بمقاصد العرب ونواياهم . وبما أنهم

قاموا لانصاف المظلوم ، فبعد أن فهموا المقاصد والمطالب وما فعله العرب من المعاونة للحلفاء في هذه الحرب ، اعترفوا باستقلال العرب مبدئياً ، ولكونهم ليسوا عالمين الدرجة التي حازتها الأمة العربية اليوم في الرقي السياسي والادبي ، ولتأمين السلم في البلاد بأجمعها ، رأوا أن ينتدبوا هيئة دولية لترى الحقيقة بأبصارها وها هي قادمة اليكم .

كانت مدافعاتي عن بلاد العرب على قسمين : الاول ، ان البلاد العربية لا يمكن تجزئتها ، والقسم الثاني : بما أن البلاد العربية تختلف في درجة علم وتعليم سكانها في مختلف أقطارهم ليس إلا ، فالظروف ليست مساعدة لادارتهم كأمة واحدة ، لذلك رأيت الدفاع عن حقوقنا كما يلي :

ان سوريا « بحدودها الطبيعية » والحجاز والعراق قطعات عربية ، ويطلب أهل كل قطعة منها الاستقلال . وقلت ان نجداً والبلاد المساوية للحجاز في حالتها الاجتماعية من الاقطار العربية هي تابعة للحجاز ليس إلا ، وهذه يرأسها والدي . أما سورية فيجب أن تكون مستقلة ، وكذلك العراق يريد استقلاله ، ولا يريد معاونته أو حمايته ، وهما يقرران الارتباط الواجب قيامه بينهما .

نحن لا نرضى في سوريا أن نبيع استقلالنا بما نحتاج اليه من المعاونات في ابتداء تكويننا ، بل ان الأمة السورية هي أمة تريد أن تستقل وتأخذ ما تحتاجه من المعاونة بثمنه ، أي بدراهم معدودات .

دافعت هذا الدفاع ، وعلى هذه الاسس ، ولا حاجة الى ذكر غير ذلك هنا لأن اجتماعنا هذا خاص بسورية .

دافعت عن سورية بحدودها الطبيعية ، وقلت ان السوريين يطلبون استقلال بلادهم الطبيعية ، ولا يريدون أن يشاركهم فيه شريك . وقد توفقنا والحمد لله مع أن العرب أمة واحدة وكلنا يعلم ان المقاطعات العربية في نظر التاريخ والجغرافية والصلات القومية هي بلاد واحدة ويجب أن تكون جمارك ومصالح هذه المقاطعات الاقتصادية موحدة لا حاجز يحجز الروابط الاقتصادية والمناسبات الودية بينها .

كانت مدافعاتي عن البلاد بهذه الصورة وكانت الأمم تنظر الى طلباتي نظر الارتياح والقبول . وان ما حصل من جدل ليس هو إلا من عدم معرفة تلك الأمم مقاصد العرب وطواياها ، وخوفاً من وقوع ما لا تحمد عقباه بما بذره الاتراك ، ولكون الأمم الغربية تنظر الى المجموع العثماني كوحدة مسؤولة ، ويظنون العرب مسؤولين عن أعمال الاتراك . وبعد أن وقفوا على حقيقة الأمر اذعنوا للمطالب العربية . وها أنا بين ايديكم قد قدمت اليكم من مؤتمر السلم لابلغكم ما تم لي وستصل اليكم الهيئة الدولية ، فاعربوا لها عما في ضمائركم ، لأن الأمم لا تريد اليوم أن تحكم أمة اخرى إلا وفق رغباتها . فالموقف اليوم هو بيدكم .

الى أن قال : هل تسمح وفود الامة أن ادير الحكومة الموقتة مع السياسة الخارجية والداخلية بعد اليوم أم لا ؟ فكان جواب الجميع تأييد الامير التام .

واشترك في التأييد جميع البطارقة ، ثم تابع الامير كلامه قائلا : بعد أن نلت هذا الاعتماد سأثابر على أعمالي حتى انعقاد المؤتمر العام

الذي سينعقد قريباً والذي سيسن القوانين التي توضع لادارة شؤون سوريا كافة. وأنا أرى أن تكون مطالب الاقلية من الشعب مصانة بل مرجحة على رغائب الاكثرية. وهذا للتغلب على ما بذر الاتراك من الشقاق بين العناصر، وأن تقسم الى مناطق بموجب الحالة الجغرافية والسياسية التي اكتسبها السكان بالنسبة الى اختلاف مناطقهم. وقولي هذا قول شخصي لأي فرد من أفراد الامة. ولا فرق عندي بين أفرادها بل أرى الصالح والمتعلم مقدمين في نظري، وليس لأحد منا أن يقول كنت كذا، ناظراً لشأنه العائلي، بل لينظر كل منا الى النفع العام الذي يجب أن يقدّم على المصالح الخاصة، والعمل يجب أن يكون بالعلم، والعمل العام عائد للأمة جمعاء، ولا يمكن ادخال الشخصيات في العموميات. وأختم كلامي برجائكم رجاءً خاصاً بالاتحاد وجمع الكلمة، ولا استقلال لكم إلا بالسكون والعمل والسلام عليكم».

ثم انصرف الامير الى تقوية جهاز الحكم في سورية، وقد كان أفضل منه في العراق وفلسطين ولبنان، فارتاح لذلك كل الناطقين بالضاد، كما أن الحركة الوطنية برئاسته نشطت كثيراً، وكانت الحرية العامة مكفولة، فكثر عدد الصحف والاندية التي تعمل على بث الروح القومية ومقاومة كل دعاية أجنبية.

وكانت الهيئة الادارية لجمعية الفتاة تقوم بواجبها بكل أمانة واخلاص، ويعمل أعضاؤها آناء الليل وأطراف النهار. وبعد تغيب رفيق التميمي في بيروت، ورستم حيدر في باريس، حل محلهما سعيد حيدر، وأحمد مريود. وأصبحت الهيئة الادارية مشكلة من ياسين الهاشمي وعزة دروزة وشكري القوتلي وتوفيق الناطور والدكتور أحمد قدري وأحمد مريود

وسعيد حيدر . وكانت هذه اللجنة مرجع تشكيلات الدعاية للقضية العربية . ويلاحظ أن رضا باشا الركابي لم يكن من أعضاء الهيئة الادارية بسبب تأثير المراكز الادارية الكبيرة التي كان شغلها على تفكيره وعدم انسجام آرائه مع آراء اخوانه من أعضائها وكنا نستعين بفيصل رئيسنا الأعلى لتنفيذ الخطط المرسومة . ولما كان لا يوجد فواصل جمركية بين سورية العربية ولبنان وفلسطين ، فكان قد تم الاتفاق بمعرفة القيادة الحليفة العليا على أن تدفع الادارة القائمة في لبنان (١٥٠) الف جنيه والقائمة في فلسطين (١٥٠) الف جنيه مصري اخرى الى الحكومة العربية لقاء ما تستورده سورية عن طريق تلك البلاد اذ ان سلطات الجمارك في الموانىء اللبنانية والفلسطينية تحصل الضرائب الجمركية وفقاً لما كان متبعاً في العهد العثماني . وبالنظر لكون الامير فيصل هو ممثل القيادة الحليفة في سورية ، فكانت هذه المبالغ تسلم لسموه وهو يسلمها الى الموظفين المختصين ، بعد أن تقتطع منها نفقات الامير وما تستلزمه الاعمال الوطنية التي ليست من اختصاص الحكومة كالدعاية الوطنية واستمالة الاشخاص المزعزعي الايمان الوطني ولا سيما في الساحل . وكنت انا المكلف من جمعية الفتاة بمراجعة الامير في ذلك ، فأتسلم اوامر صرف المبالغ المخصصة للغايات المذكورة ، واسلمها فوراً للهيئة الادارية فيقبضها خازنها ، كما ان ياسين الهاشمي ايضاً كان يضطلع احياناً بهذه المهمة وذلك بسبب الدالة التي كانت لنا عند الامير .

ولما كان حزب الاستقلال العربي قد تشكل ليكون المظهر الخارجي لجمعية الفتاة السرية فقد توسع كثيراً وكان يقوم بكل ما تود الفتاة نشره

من مبادىء وطنية وخطط للوصول الى الغاية الكبرى من تحقيق استقلال ووحدة الوطن العربي .

وبالنظر للفائدة العظمى التي تجنيها الحركة الوطنية من وجود نواد عربية تضم شمل الشباب وتبث فيهم الروح الوطنية فقد تأسس في كل من دمشق وحلب ناد عربي كبير ، كما تأسست في بقية المدن نواد مشابهة . وكان لولب النادي العربي في دمشق الشيخ عبد القادر المظفر اليافي المولد ، وكان المظفر خطيباً كثير النشاط ، دائب الحركة ، منتسباً لعلماء الدين ، الأمر الذي سهل عليه القيام بواجبه في النادي وترويج الدعاية الوطنية التي كانت الظروف تستوجب اتباعها .

مناورات افرنسية :

وكانت الروح العربية الاستقلالية تشع من دمشق ، لتنشر تأثيرها السحري في فلسطين ولبنان والعراق ، الأمر الذي جعل السلطات الفرنسية والبريطانية تحسب لذلك ألف حساب ، فرأت الحكومة الفرنسية أن تواصل في دمشق مساعيها التي بدأتها في باريس عساها تصل الى تفاهم مع الامير كيما يضع حداً لمقاومة سياستها ويسهل لها تحقيق معاهدة سيكس - بيكو . فأوحت الى بطل المعاهدة الافرنسي جورج بيكو بتنفيذ ذلك . فجاء الى دمشق في ٢٠ مايس وبدأ محادثاته مع الامير ، وكنت أنا المترجم في أكثر الاحيان ، كما كنت أتصرف بترجمة أقوال الامير أحياناً كي لا يفهم منها غير ما يقصده فيسجله عليه . وكأني به قد لاحظ ذلك ، فاعترض عليّ ، فرجعت الى الامير ، فأيد ما ترجمته بدون أي تغيير . وبعد محادثات استمرت عدة أيام أبى الامير إلا أن يدور

البحث على أساس الغاء معاهدة سيكس - بيكو . وبذلك تنشأ في الساحل السوري ولبنان ادارة وطنية تحل محل الحكم العسكري الفرنسي الذي كان قائماً فيها وترتبط مع المنطقة الشرقية بوحدة واتحاد وفقاً لرغبات الأهلين . فأعلن المسيو بيكو أن ذلك متعـذر ، محتجاً بأن انكلترا طرف ثان في المعاهدة المذكورة ، وألح الامير بضرورة تحقيق ذلك قبل وصول لجنة الاستفتاء الدولية . ولما كانت الموصل داخلة ضمن سورية ، وفلسطين منطقة دولية وفقاً للمعاهدة المذكورة ، فقد طلب الامير أن تتعهد فرنسا وتعمل معه على ادخال الموصل وفلسطين ضمن الدولة السورية فاعتذر جورج بيكو بأن انكلترا تقاوم ما يطلبه ولا يسع فرنسا أن تدخل بأي بحث يتعلق بالعراق عندما تطرق الامير لذلك . وبعد شهر تقريباً أي في ١٨ حزيران عاد المسيو بيكو فزار الامير ليبلغه استعداده لنشر بيان يتفق مع مطالب الامير في الساحل بدون أن تتقيد فرنسا بتوقيع اتفاقية مع الامير بهذا الشأن .

وكانت لجنة الاستفتاء الاميركية قد وصلت الى لبنان في ١٠/٦/١٩١٦ وهي على وشك مغادرة فلسطين الى جنوبي لبنان . وقد لاحظنا أن غاية فرنسا من ذلك كانت تأمين حصولها على الانتداب في سورية استناداً لرغبة أهلها بعد أن تأمن عدم مقاومة الامير لذلك ، وعندها تتصرف كما تشاء تحت ستار الانتداب المخول لها من مؤتمر السلام . فرفض الامير ذلك أيضاً .

وقد بذل العاملون الوطنيون قصارى الجهد لتوحيد الصفوف والتقدم برأي جميع الى لجنـة الاستفتاء الدولية بالمطالبة بالاستقلال التام على أن يصار الى الاستعانة بالفنيين الأجانب وفقاً للحاجة وبحرية كاملة كما جورين

تدفع لهم الدولة اتعابهم ، ورفض أي استعانة أو مساعدة فرنسية . الا أنه لما كان قرار مؤتمر الصلح يحتم الاستعانة بخبراء احـدى الدول العريقة وفقاً لرغبات الشعب ، فـكان الأمير يرى أن تطلب المساعـدة من أميركا أو انكلترا إذ أن بشائر رفض اميركا المداخلة في شؤون العالم القديم بدأت تظهر للعيان ، وليقطع بالتالي الطريق على فرنسا بعد أن امتلأ قلبه خوفاً من تدخلاتها ، وبما انتهى اليه من سياستها التعسفية في شمال افريقية وعدم تمكين السكان من ادارة شؤونهم بأنفسهم ، وقد شاطرت الأمير هذا الرأي ، إلا أن الهيئة الادارية للفتاة لم تقبل بهذا الاجتهاد ، وقررت أن تكون المساعـدة التي لا تمس بالاستقلال المطلق وقفاً على أميركا حتى إذا أبت كانت بريطانيا .

وفي هذه الأثناء وردت على الأمير برقية من وفد الحجاز في مؤتمر السلام ورد فيها أن فرنسا تضع العراقيل لتحول دون لجنة الاستفتاء الدولية من السفر زاعمة أن سكان سورية وغيرها من البلاد العربية ليسوا من النضج الفكري والثقافي بحيث يمكنهم وعي مثل هذه الأمور ، الا أن حظوة الأمير لدى الرئيس ولسون جعلته ينكر على فرنسا زعمها ويصر على ارسال اللجنة .

وكانت لجنة الاستفتاء مؤلفة من الوفد البريطاني برئاسة السير هنري ماكماهون وعضوية الاستاذ هوجارت وعدد من الخبراء والسكرتيرين ، ومن اللجنة الفرنسية برئاسة هنري لونغ ومن اللجنة الأميركية وهي مؤلفة من شارلز كراين وهنري كنغ مندوبين والبرت لايبابر يساو وجورج مونتغمري ، والكابتين وليام باي مستشارين والكابتين برودى أمين سر والمستر لورنس مور مدير أعمال .

ولما كان قرار ارسال لجنة دولية للاستفتاء والتحقيق لم يقابل بالارتياح من قبل الدوائر الفرنسية الرسمية والبرلمانية ، فقد اشترطت الحكومة الفرنسية أن تتفق الحكومات ذات الشأن على كل ماله علاقة بذلك الاستفتاء قبل ارسال اللجنة ، فأبى الرئيس ولسن أن يتقيد بطلبها هذا ، وبذل المندوبان العربيان في المؤتمر جهوداً صادقة كي لا تجاري الحكومة البريطانية الفرنسيين في عرقلة ارسال اللجنة وحملها على ارسال وفدها . فأرسل عضو الوفد البريطاني في مؤتمر الصلح اللورد هاردينغ كتاباً إلى الوفد العربي في المؤتمر يقول فيه أن الوفد الانكليزي سيلحق بعد قليل بالوفد الاميركي الذي سافر الى الشرق للاضطلاع بمهمته بأمر الرئيس ولسن بدون أن يتقيد بسفر اللجنتين الفرنسية والانكليزية ، غير أن انكلترا عادت بعدئذ فلبت مطلب فرنسا ، ولم ترسل وفدها اذ أن وعد بلفور سيسبب جملة من المشاكل اذا هي اشتركت بالاستفتاء ، لا سيما وأن البلاد لم تكن تجهل عقبى ذلك الوعد المشؤوم من أخطار . ولا شك في أن انكلترا كانت حائرة بسبب الوعود الكثيرة التي قطعتها على نفسها لاستكثار انصارها ابان الحرب اذ هي لم تدخر وسعاً في حشد كافة القوى الممكنة لمساعدتها ، ومن جملتها القوة الصهيونية العالمية ، التي مدت لها يد العون لقاء تحقيق الحلم اليهودي في أرض الميعاد « فلسطين » . وكان من أثر سعي الصهيونية في اميركا ان جرتها الى الحرب بجانب بريطانيا وحلفائها . وقد دخلت الولايات المتحدة فى ١٢ نيسان (ابريل) ١٩١٧ الحرب بجانب انكلترا ، ولذا وفت انكلترا بوعدها لليهود فأصدرت وعد بلفور المشؤوم في ٢ تشرين الثاني ١٩١٧ وهذا نصه :

عزيزي لورد روتشيلد :

يسرني أن أبعث اليكم باسم حكومة جلالة الملك ، هذا التصريح

المشوب بالعطف على الأماني الصهيونية ، والذي عرض على الحكومة ووافقت عليه .

تعتزم الحكومة البريطانية اقامة وطن للشعب اليهودي في فلسطين ، وستبذل كل ما لديها من جهد في سبيل تحقيق هذه الغاية ، هذا مع العلم بأن حكومة جلالة الملك لن تفعل شيئاً ينطوي على أي مساس بالحقوق المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية في فلسطين ، ولا بحقوق اليهود الذين يعيشون في دولة أجنبية ، ونظم أحوالهم الشخصية . واكون لك شاكراً لو تكرمت بابلاغ هذا التصريح الى اتحاد الهيئات الصهيونية» .

ارثر جمس بلفور

وكان علينا أن نحسب حساب هذا البلاء الذي قد يكون أخطر من الاستعمار .

المؤتمر السوري :

وبما أن الحكومات الكبيرة والرأي العام العالمي يجعل لآراء المجالس النيابية المقام الأول فقد اتفقنا مع سمو الأمير على دعوة « مؤتمر سوري عام » يمثل سورية كلها ، الداخل والساحل (لبنان) ، وسورية الجنوبية (فلسطين) . ولما كان الوقت لا يتسع لاجراء الانتخابات ، ولاستحالة مثل ذلك في الساحل وفي فلسطين بسبب معارضة حكومتي الاحتلال فيها ، فقد تقرر أن تجري الانتخابات من قبل الناخبين الثانويين الذين انتخبوا آخر مرة نواباً عن البلاد في مجلس المبعوثان العثماني في استنبول .

وقد مثلت خليل الرحمن في المؤتمر السوري اذ انني قضيت حداثتي في فلسطين مع والدي الذي كان مفتشاً عاماً للجيش فيها . فاجتمع نواب

سورية الداخلية وبيروت وطرابلس واللاذقية وكل مدن فلسطين ، في دمشق ، وافتتح الأمير في ٧ حزيران سنة ١٩١٩ المؤتمر في النادي العربي وخطب فيه خطبة جامعة أهم ما جاء فيها أن واجب أعضاء المؤتمر الأساسي هو تمثيل البلاد أمام اللجنة الاميركية وعرض مطالبها وأمانيها عليها ثم سن القانون الأساسي مع ضرورة وضع نصوص صريحة فيه لحفظ حقوق الأقليات الدينية .

وفي ١٠ حزيران وصلت لجنة الاستفتاء الاميركية الى فلسطين ونزلت في ميناء يافا ، وبدأت عملها بنشر البيان الرسمي الآتي : « ان الشعب الاميركي ليس له مطامع سياسية في أوروبا والشرق الادنى ، بل يفضل على قدر الامكان تجنب كل ماله علاقة بالمشاكل في خارج بلاده ، ويرغب أن يسود السلام العالم وبهذه الروح يدنو من مشاكل الشرق الأدنى .

لقد عين مجلس الاربعة في مؤتمر الصلح لجنة دولية لدرس الحالة في المملكة التركية لعلاقتها بالوصايات فغاية القسم الاميركي الموجود الآن هي الوقوف جهد المستطاع على أحوال السكان ورغباتهم ليكون الرئيس ولسن والشعب الاميركي على بينة من الحقائق في كل سياسة يدعى الى السير عليها فيما يتعلق بمشاكل الشرق الأدنى سواء كان ذلك في مؤتمر الصلح أو في جمعية الأمم » .

وقدمت الحكومة البريطانية كل مساعدة للجنة الاميركية وألحقت بها سكرتير اللورد آللنبي العسكري الكولونيل ولسن . وقد قررنا في دمشق ان لا يدلي أهل فلسطين بأي مطلب أمام اللجنة بل يحيلون أمرهم الى وكلائهم في المؤتمر السوري بدمشق الذي يمثلهم أصدق تمثيل ،

ولا سيما فيما يتعلق بطلب المساعدة الفنية اذا ما احتاجتها البلاد . وقد حققوا هذه الخطة المرسومة حرفياً .

وقد جامل الموظفون البريطانيون اللجنة ، وسهلوا مهمتها ، وابلغوها أن نسبة السكان المسلمين العرب في فلسطين هي ٤/٥ مجموع السكان . والجميع يطلبون الاستقلال والوحدة السورية ، رافضين كل الرفض الوصاية الفرنسية . أما المسيحيون وعددهم ١٠ بالمئة من مجموع السكان فقد طلب من كان يسكن منهم طبريا وحيفا والناصرة ما طلب مواطنوهم المسلمون . وأما البقية منهم ، فالروم طلبوا استقلال سورية ووحدتها ناجزين مع المساعدة البريطانية ، والموارنة طلبوا المساعدة الفرنسية ولكنهم أقلية ضئيلة لا يعبأ بها . وكان اليهود يؤلفون ١٠ بالمئة من السكان كما تأكدت اللجنة ، وقد طلبوا أن تكون فلسطين وطناً قومياً لهم والسماح لابناء جنسهم في العالم بالهجرة الى فلسطين ، وأن تكون اللغة العبرانية رسمية والوصاية لبريطانيا دون سواها . وكان الظاهر من الحديث معهم أنهم يرمون الى تشكيل حكومة يهودية في فلسطين .

ولم يطل مكوث اللجنة في فلسطين أكثر من عشرة أيام فغادرتها قاصدة القسم الجنوبي من منطقة الاحتلال الغربية (لبنان الحالي) فزارت صور ومرجعيون والبترون حيث قضت يومين اثنين ، ثم قصدت الى بيروت . وبعد أن لبثت في دمشق تسعة أيام غادرتها الى بعلبك ، ومنها قفلت راجعة مرة ثانية الى منطقة الاحتلال الغربية حيث استكملت استفتاء الاهلين ، ومن هناك قصدت الى سورية الشمالية عن طريق طرابلس ـ حمص ـ حماه ـ حلب . وكانت مطالب الاهلين في منطقة الاحتلال الغربية منقسمة الى ثلاثة أقسام :

الاول : ضم البقاع ومدينة بيروت الى لبنان الاصلي أي القديم . وطلب الكثير من السكان جعل لبنان لبناناً كبيراً مستقلاً تحت الوصاية الفرنسية . وكان معظم القائلين بهذا الموارنة الذين يسكنون جبل لبنان القديم .

الثاني : يطلب لبنان الكبير أيضاً بدون أن يطلب الوصاية الفرنسية .

والثالث : يطلب لبنان الكبير مستقلاً استقلالاً ادارياً ، ضمن الوحدة السورية ، بدون وصاية أو مساعدة . وكان معظم هؤلاء من المسلمين ، وخاصة سكان المناطق الساحلية التي لم تكن جزء من لبنان كصيدا وصور وطرابلس . هذا مع العلم بأن المنطقة الغربية كانت محتلة من قبل الجيش الفرنسي ، وحاكمها فرنسي . وقد بذل الفرنسيون جهوداً عظيمة ومبالغ جسيمة توصلاً الى غاياتهم ، فلم يوفقوا في المنطقة الشرقية العربية ، وان نالوا توفيقاً جزئياً في المنطقة الغربية على يد الموارنة بنوع خاص . ولا يخفى أن بعثات التبشير الدينية الفرنسية كانت منتشرة منذ مدة طويلة في جميع أنحاء جبل لبنان . ومن طبيعة الادارة الفرنسية الضغط الشديد على الرأي ، ورغم ذلك كله لم يتمكن الفرنسيون من أن ينالوا الاكثرية في منطقة احتلالهم . وقد طلب دروز لبنان المساعدة البريطانية معلنين بصراحة : « اذا كان لبنان سيكون تحت الوصاية الفرنسية فانهم يطلبون الانفصال عن لبنان » . وقد صوت في صيدا وصور وطرابلس الروم الارثوذكس والبروتستانت ضد الوصاية الفرنسية .

وعلى الاثر غادرت اللجنة بيروت قاصدة دمشق حيث استقبلت استقبالاً حافلا . وكأن لسان حال الجميع يقول للجنة الاستفتاء : ان مستقبلنا

بين يديك ، واعتمادنا على مبادىء الرئيس ولسن فهو لنا السند الاول في الحصول على حقنا .

وقد دعاها سمو الامير مرتين لتناول الطعام على مائدته . وأذكر أنني كنت ذات مرة مع الكابتن ياي الذي كنت ألازمه لمعرفته الافرنسية نسير على مقربة من مدرسة المارستان لتسهيل مقابلة اللجنة للهيئات الدينية الاسلامية ، فمررنا أمام دار سامي باشا مردم بك ، وكان بناته الصغيرات يلعبن منشدات الاناشيد الوطنية في البهو الخارجي ، فاغتنمت الفرصة ودعوته للدخول ، وترجمت له ما كن يقلنه وقد سألهن بالفرنسية عن الداعي لما ينشدنه ، فأجبنه بأنهن لا يرغبن بديلاً بالاستقلال التام لبلادهن ، ويرفضن أي مساعدة فرنسية ، فضحك وهو يقول : إن هذا الوعي في سورية لمن دواعي فخرها ، أخشى ما أخشاه أن لا تتحقق مطالبكم رغم الجهد الوطني الذي قمتم به لتوحيد كلمتكم . فأميركا لم يعد بوسعها التدخل في شؤون بلاد خارجة عن حدودها . ولا أدري كيف يسعها تقديم المساعدات لكم ، وحتى المساعدة الفنية . اني أقول لك هذا كصديق مع ان واجبي لا يسمح لي بالافضاء بتصريح كهذا . فكان لما قاله لي ولتأييد المستر كراين ذلك تلميحاً تأثير كبير في قرار المؤتمر السوري العام . فقبل طلب المساعدة الفنية التي لا تمس الاستقلال التام من أميركا وان لم تقبل فمن بريطانيا رغم قرار الفتاة السابق .

وفي ٣ تموز ١٩١٩ قابل اللجنة رئيس المؤتمر السوري وكان معه أحد وعشرون عضواً من مناطق سورية المختلفة انتخبهم المؤتمر ليشتركوا معه في تلك المقابلة ، وسلموا اللجنة قرار المؤتمر . وهذا نصه :

« اننا نحن الموقعين أدناه بامضاءاتنا وأسمائنا ، أعضاء المؤتمر السوري

العام ، المنعقد في دمشق الشام ، والمؤلف من مندوبي جميع المناطق الثلاث الجنوبية والشرقية والغربية ، الحائزين على اعتمادات سكان مقاطعاتنا وتفويضاتهم ، من مسلمين ومسيحيين وموسويين ، قد قررنا في جلستنا المنعقدة في نهار الاربعاء المصادف لتاريخ ٢ تموز ١٩١٩ وضع هذه اللائحة المبينة لرغبات سكان البلاد الذين انتدبونا ، ورفعها الى الوفد الاميركي المحترم من اللجنة الدولية :

١ ـ اننا نطلب الاستقلال السياسي التام الناجز للبلاد السورية ، التي تحدها شمالاً جبال طوروس ، وجنوباً رفح ، فالخط المار من جنوب الجوف الى جنوب العقبة الشامية والعقبة الحجازية ، وشرقاً نهر الفرات فالخابور والخط الممتد شرقي أبي كمال الى شرقي الجوف ، وغرباً البحر المتوسط بدون حماية ولا وصاية .

٢ ـ اننا نطلب أن تكون حكومة البلاد السورية ملكية مدنية نيابية ، تدار مقاطعاتها على طريقة اللامركزية الواسعة وتحفظ فيها حقوق الاقليات ، على أن يكون ملك هذه البلاد الامير فيصل الذي جاهد في سبيل تحرير هذه الامة جهاداً استحق به أن نضع تمام الثقة بشخصه ، وأن نجاهر بالاعتماد التام على سموه .

٣ ـ حيث ان الشعب العربي الساكن في البلاد السورية شعب لا يقل رقياً من حيث الفطرة عن سائر الشعوب الراقية ، وليس هو في حالة أحط من حالات شعوب البلغار والصرب واليونان ورومانيا في مبدأ استقلالها ، فاننا نحتج على المادة (٢٢) الواردة في عهد جمعية الامم والقاضية بادخال بلادنا في عداد الأمم المتوسطة التي تحتاج الى دولة منتدبة .

٤ — اذا لم يقبل مؤتمر الصلح هذا الاحتجاج العادل لاعتبارات لا نعلم كنهها فاننا بعدما أعلن الرئيس ولسن أن القصد من دخوله في الحرب هو القضاء على فكرة الفتح والاستعمار ، نعتبر مسألة الانتداب الواردة في عهد جمعية الأمم عبارة عن مساعدة فنية واقتصادية لا تمس باستقلالنا السياسي التام . وحيث اننا لا نريد أن تقع بلادنا في أخطار الاستعمار ، وحيث اننا نعتقد أن الشعب الاميركي هو أبعد الشعوب عن فكرة الاستعمار ، وأنه ليس له مطامع سياسية في بلادنا ، فاننا نطلب هذه المساعدة الفنية والاقتصادية من الولايات المتحدة الاميركية على أن لا تمس هذه المساعدة استقلال البلاد السياسي التام ووحدتها ، وعلى أن لا يزيد أمد هذه المساعدة عن عشرين عاماً .

٥ — اذا لم تتمكن الولايات المتحدة من قبول طلبنا هذه المساعدة منها ، فاننا نطلب أن تكون هذه المساعدة من دولة بريطانيا العظمى ، على أن لا تمس استقلال بلادنا السياسي التام ووحدتها ، وعلى أن لا يزيد أمدها عن المدة المذكورة في المادة الرابعة .

٦ — اننا لا نعترف بأي حق تدعيه الدولة الفرنسية في أي بقعة كانت من بلادنا السورية ، ونرفض أن يكون لها مساعدة ويد في بلادنا بأي حال من الاحوال .

٧ — اننا نرفض مطالب الصهيونيين بجعل القسم الجنوبي من البلاد السورية ، أي فلسطين ، وطناً قومياً للاسرائيليين ، ونرفض هجرتهم الى أي قسم من بلادنا ، لانه ليس لهم فيها أدنى حق ، ولانهم خطر شديد جداً على شعبنا من حيث الاقتصاديات والقومية والكيان السياسي .

أما سكان البلاد الاصليون من اخواننا الموسويين فلهم مالنا وعليهم ما علينا .

٨ — اننا نطلب عـدم فصل القسم الجنوبي من سورية المعروف بفلسطين والمنطقة الغربية الساحلية التي من جملتها لبنان عن القطر السوري ونطلب أن تكون وحدة البلاد مصونة لا تقبل التجزئة بأي حال كان .

٩ — اننا نطلب الاستقلال التام للقطر العراقي المحرر ونطلب عدم ايجاد حواجز اقتصادية بين القطرين .

١٠ — ان القاعدة الاساسية من قواعد الرئيس ولسن التي تقضي بالغاء المعاهدات السرية تجعلنا نحتج على كل معاهدة تقضي بتجزئة بلادنا السورية أو كل وعـد خصوصي يرمي الى تمكين الصهيونيين في القسم الجنوبي من بلادنا ، ونطلب أن تلغى تلك المعاهدات والوعود بأي حال كان .

هذا وان المبادىء الشريفة التي صرح بها الرئيس ولسن لتجعلنا واثقين كل الثقة في أن رغائبنا هذه الصادرة من أعماق القلوب ، ستكون هي الحكم القطعي في تقرير مصيرنا ، وان الرئيس ولسن والشعب الاميركي الحر سيكونون لنا عوناً على تحقيقها ، فيثبتون للملاء صدق مبادئهم السامية وغايتهم الشريفة نحو البشرية بنوع عام ونحو شعبنا العربي بنوع خاص . وان لنا الثقة الكبرى في أن مؤتمر السلام يلاحظ أننا لم نثر على الدولة التركية التي كنا واياها شركاء في جميع الحقوق التمثيلية والمدنية والسياسية إلا لأنها تحاملت على حقوقنا القومية

فيحقق لنا رغائبنا بتمامها ، فلا تكون حقوقنا قبل الحرب أقل منها بعد الحرب ، بعد ما أرقناه في سبيل الحرية والاستقلال ، ونطلب السماح لنا بارسال وفد يمثلنا في مؤتمر السلام للدفاع عن حقوقنا الثابتة تحقيقاً لرغباتنا هذه والسلام » .

* * *

وكان الامير والفتاة لم يريا بدأ من الاتفاق مع المؤتمر السوري على كل ما جاء في هذا القرار . وقد صرف عزة دروزة جهوداً طيبة في هذا السبيل . وقضت اللجنة في دمشق ستة أيام في مقابلة الوفود والهيئات الرسمية وممثلي جميع الطبقات ، وتلقت وهي في سورية ما يقرب من ألفي عريضة تكاد تكون كلها مؤيدة لمطلب المؤتمر السوري ، وأعدت اللجنة رحلة للوقوف على آراء السكان في الارياف وأطراف الصحراء ، فكان مجموع المدة التي قضتها في المنطقة الشرقية العربية تسعة أيام . وبعدها توجهت لبعلبك لدرس ما جاء في بعض مطالب منطقة الاحتلال الغربية بتوسيع لبنان وبضم البقاع اليه مع ان ادارته كانت تابعة لدمشق .

ولما كان أكثر من نصف سكان البقاع من غير الكاثوليك ، فانهم لم يؤيدوا هذا المطلب ، لا سيما وان اتصال دمشق معهم كان وثيقاً .

وبعد أن مكثت اللجنة يوماً واحداً في بعلبك ، أتمت استفتاء المنطقة الغربية ، ثم غادرتها بعد سفرها من دمشق بعشرة أيام قاصدة حمص عن طريق طرابلس ، فاطلعت على آراء الاهلين فيها وفي حماه وحلب . ولبثت كذلك ثلاثة أيام في عاصمة شمال سورية . ولم يكن أحد ليشذ عما قيل للجنة الاستفتاء في دمشق ، إلا انهم تشددوا في

المطالبة باستقلال العراق وان لا يكون بينه وبين سورية حواجز ما ، وكان الداعي لهـذا أن حلب مركز من مراكز التجارة الهامة بين سورية والبحر الابيض المتوسط وبين الموصل والعراق .

وحصل الاقتناع للجنة من وحدة رغبات الشعب التي كانت أقرب ما يكون الى الاجماع ، ما عدا الساحل الذي كان تحت الضغط الفرنسي .

وخلاصة القول أن مطلب المؤتمر السوري كان مطلب الامة على سواء .

وبعد أن أتمت اللجنة مهمتها في حلب قصدت أضنة فالاستانة وعادت الى باريس في العشر الثاني من ايلول ١٩١٩ لتقديم تقريرها . وكان الشعب الاميركي قد خذل الرئيس ولسن ، فواصلت سفرها الى واشنطن وقدمته الى وزارة الخارجية التي كتمته حتى سنة ١٩٢٤ .

بعد الاستفتاء :

وقد عمد الامير بعد أن تم الاستفتاء الى الاستمرار في تنظيم شؤون البلاد . وكان رجالات العرب يعودون اليها من تركيا ، فوصل احسان الجابري ويوسف العظمة قبل وصول اللجنة الاميركية بمدة غير طويلة ، فعين الاول رئيساً لبلدية حلب ثم أميناً واختص الامير يوسف العظمة مرافقاً له ثم معتمداً عربياً في بيروت اذ كان ذا ثقافة عسكرية عالية ، ومن ضباط أركان الحرب المرموقين في الجيش التركي . وبعد التأكد من اخلاصهما للعروبة أدخلا في جمعية الفتاة .

وكان ياسين الهاشمي رئيساً لمجلس الشورى العسكري « الحربي » (وزارة الحربية) . وتعذر عليه العمل بالصرامة التي يستلزمها الموقف لتأسيس جيش سوري قوي مدرب بعد الغاء الجيش الذي دخل سورية

مظفرا من الحجاز مع سمو الامير ، بسبب عودة الضباط السوريين الى سورية من تركيا ومطالبتهم بتشكيل جيش جديد . هذا وان الكثيرين ممن يرغبون في الوظائف من الشاميين بدأوا يتشكون من انهم أصبحوا غرباء في بلادهم . وعمل الافرنسيون كثيراً لدعم ونشر هذه النزعات . ولما كنا نود حكومة عربية ، ولم يدر بخلدنا الاكتفاء بسورية ، فقد عانينا وعانى الامير معنا كثيراً للوقوف بوجه هذه الموجة من الاستياء .

على أن الفرنسيين راحوا يراقبون بدقة ما يجري في سورية واتجاهها السياسي خشية أن لا ينالوا منها مأرباً ، ولم يكن واضحاً تماماً بعد موقف أميركا ، وكانوا الى ذلك يخشون كثيراً من نتيجة الاستفتاء في سورية ، فقرروا توسيع لبنان وجعل وضعهم فيه ثابتاً . كما انهم قووا دعايتهم فيه واقنعوا مجلس ادارته بتقديم قرار في صالحهم يرفعونه الى مؤتمر الصلح . فأصدر مجلس ادارة جبل لبنان في ٢ مايس ١٩١٩ قراراً جاء فيه :

لما كان جبل لبنان مستقلاً من القديم بحدوده التاريخية والجغرافية والقطع التي فصلت عنه انما سلخت منه عنوة واغتصاباً بأمر الدولة التركية ، ولما كانت الدولة الغاصبة قد تقلص ظلها واضمحلت سيطرتها عن هذه البلاد ، ولما كان لبنان لا يتسع له العيش والرخاء ما لم تعد اليه القطع المفصولة عنه . ولما كانت دول الحلفاء قد أعلنت انها تساعد تحرير الشعوب المظلومة واعادة الاراضي المغصوبة الى بلادها الاصلية ، وكانت القطع المغتصبة من لبنان تعد قسماً منه ومعظم سكانها هم من اللبنانيين أصلا ، فقد اجتمع هذا المجلس بصفته ممثلاً للشعب اللبناني وأصدر القرار الآتي :

أولا — المناداة باستقلال لبنان السياسي والاداري بحدوده التاريخية والجغرافية واعتبار البلاد المغصوبة منه بلاداً لبنانية كما كانت قبل سلخها عنه .

ثانياً — جعل حكومة لبنان هذه ديموقراطية مؤسسة على الحرية والاخاء والمساواة مع حفظ حقوق الاقلية وحرية الاديان .

ثالثاً — ان الحكومة اللبنانية والحكومة الفرنسية متفقتان على تقرير العلائق الاقتصادية بين لبنان والحكومات المجاورة .

رابعاً — مباشرة درس وتنظيم القانون الاساسي بطرقه الاصولية .

خامساً — تقديم هذا القرار الى مؤتمر الصلح .

سادساً — اعلان هذا القرار في الجريدة الرسمية وغيرها .

وقد أبلغت فرنسا هذا القرار الى مؤتمر الصلح . وكان هذا القرار في ظاهره لا يتنافى مع الاستقلال التام ، إلا أن ما جاء في مادته الثالثة من الاتفاق مع فرنسا هو كل ما ترمي اليه فرنسا ليتم لها الحصول على الانتداب عليه وعندها يصبح الاستقلال اسمياً كما رأينا ذلك بالفعل .

وبعد أن تم الاستفتاء وعلم الفرنسيون نتيجته في سورية ، واستوثقوا من الصعوبات التي ستجابهم للحصول على ما يرمون اليه ، راجعوا الحكومة الانكليزية مطالبين بتنفيذ معاهدة سيكس - بيكو ، ونظموا حملة صحفية في جرائدهم غايتها تطبيق المعاهدات المعقودة بين فرنسا وانكلترا . وقد أيدهم كثير من الصحف الانكليزية حتى اضطر الانكليز إرضاء للفرنسيين أن يبلغوا مؤتمر الصلح بأنهم لا يقبلون الانتداب على سورية .

ثورة الشيخ صالح العلي :

وكانت الدعاية الوطنية قد بلغت أشدها ، فقامت المظاهرات في كل مكان واشتد الشعور الوطني على حدود المنطقة الغربية .

وبدأت الاضطرابات بالظهور . وقد وقع أول اضطراب جدي قبل منتصف شهر مايس ١٩١٩ بسبب ضغط رجال السلطة الافرنسية في المرقب بجبل العلويين باللاذقية على السكان ارضاءً للمالئين لهم وعملوا على تسليم أراض تخص خصومهم لهؤلاء النفعيين المالئين . ولما كانت دعايتنا الوطنية على أشدها قاوم السكان برئاسة الزعيم الشيخ صالح العلي السلطة الافرنسية بقوة السلاح الذي كان متوفراً بعد انسحاب الجيش العثماني ولم يأل وطنيو دمشق جهداً في مساعدة مواطنيهم . وانتصر رجال الشيخ صالح على الافرنسيين عدة مرات ولم يمكنوهم من دخول بلدة المرقب مما حدا بقائد الجيش الافرنسي الجنرال هملان أن يطلب من المارشال آللنبي قائد جيوش الحلفاء العام امداده بنجدات بريطانية تطبق على جبل العلويين من اتجاه حمص وحماه ، ولكن تدخل الامير فيصل حال دون تحقيق ذلك . واستمرت هذه الثورة أكثر من ثلاثة اشهر . وكان رسول وطني دمشق للشيخ صالح هو السيد محمود حمزه الذي كان يعرفه ، كما أن وجود رشيد طليع متصرفاً في حماه المتاخمة لجبال العلويين ساعد ثورة العلويين كثيراً لأنه سبق لرشيد طليع أن كان متصرفاً في اللاذقية وله اتصال بأهلها .

فاضطر الافرنسيون لقبول نصيحة القيادة العليا البريطانية والتخلي عن الغطرسة والنكاية ، ونجحت الوساطة البريطانية بعد أن تعب الثوار

من الحرب مع الالوف من الجند الافرنسي وقلّت ذخيرتهم ، فقبل الشيخ صالح القاء السلاح شريطة التعويض على الثوار في خسائرهم ، وتعيين صديقه ابراهيم الكنج من زعماء العلويين قائمقاماً لبانياس . لكن روح الغطرسة الفرنسية لم تتحمل هذا الحل فعاد الفرنسيون الى استعمال سياسة الشدة مع الشيخ صالح وأتباعه ، وساقوا عليه جنودهم الحاشدة بعد أن أصبح لهم الأمر وحدهم وبعد تنكرهم لوعودهم وإسقاطهم حكومة دمشق الوطنية . فهب الوطنيون في دمشق عندئذ لمساعدة اخوانهم خفية . وظلت المقاومة حتى صيف ١٩٢٢ حين اضطر للاستسلام لهم .

وقبيل أوائل ايلول ١٩١٩ وعقب حوادث الشيخ صالح الأولى واشتداد الشعور الوطني لدى دروز لبنان بعد أن ظهر أن الكلمة الاولى في بلادهم ستكون لفرنسا ، هاجم نخبة من شبابهم الوطني المسيو جورج بيكو والاميرال موريني وأتباعهما عندما كانوا في زيارة للبنان مارين ببعقلين في طريقهم الى بيت الدين . فلم يصب جورج بيكو ، إلا أن الاميرال جرح جرحاً خطيراً ، فتأثرت السلطة الفرنسية من هذا الحادث كثيراً ، لكنها كتمته لأن الفرنسيين يتبجحون دوماً بتعلق أهل جبل لبنان بهم ، ونكلت بسكان القرى التي ظنت بأن لها دخلاً بالحادث المذكور تنكيلاً فظيعاً حتى انهم سيروا قوى كبيرة فتكت بالقرى الآمنة ، فهرب الشبان القادرون على حمل السلاح الى المخابىء التي يعرفونها في الجبال ، وبدأوا حرب العصابات ضد السلطة الفرنسية المحتلة التي لم تسلك مسلك الحكمة واللين ، فأمرت بارسال القوات المسلحة بالمدافع والقنابل اليدوية الملتهبة ، فأحاطوا بمزرعة الشوف بقصد الارهاب وجعلها عبرة لغيرها ، ورموها بمدافعهم وقذائفهم ، فأحرقوا المنازل

وقتلوا الكثير من النساء والاطفال والشيوخ ، ففر النساء والاطفال والشيوخ والعجز على وجوههم ، ووصل منهم للشام أكثر من مئتين ، فضجت البلاد عندما رأت هذا المنظر المحزن وسمعت ما رواه هؤلاء البؤساء . فكان كل هذا مما يحفز فيصل للعمل على انهاء الوضع الشاذ الذي كانت البلاد تئن تحت أعبائه ، فراجع القائد الأعلى المارشال آللني ، إلا أن انكلترا قررت اظهار حسن نواياها لفرنسا سيما بعد قبول كلنصو التنازل عن الموصل وضمها للعراق .

فأرسلت القيادة العليا البريطانية في الشرق الكولونيل ماين هيرزا كن ومعه الكابتين الفرنسي كولوندر في ٩ ايلول ١٩١٩ لابلاغ الامير أن بريطانيا تعلن رفضها الانتداب على سورية ، وان الجنرال آللني عازم على اعادة الأمن الى نصابه اذا حدثت قلاقل أو اضطرابات ضمن منطقة قيادته . فأجابه الامير بأنه لا يوافق على تقسيم البلاد العربية المفصولة عن تركيا أبداً ، ولا يساعد على استعمارها ، وان سبب المظاهرات والاضطرابات التي يقوم بها الشعب هو خوفه من أن تهضم حقوقه وعدم اطمئنانه على مصيره . فكان جواب الكولونيل ان المارشال آللني سيعاقب كل محاولة مشروعة كانت أم غير مشروعة تخل بالأمن والنظام .

دعوة الامير الى لندن :

وبعد أن تأزمت الامور الى هذا الحد رأى رئيس الوزارة البريطانية المستر لويد جورج أنه لا يليق ببريطانيا أن لا تراعي شعور حليف قام بكل ما لديه من امكانيات المساهمة في النصر كفيصل . فأبرق اليه في

١٠ ايلول ١٩١٩ يستدعيه للحضور الى انكلترا لتدبير الوضع معه حسب الاتجاه الجديد قبل التوقيع على الاتفاق البريطاني الفرنسي المزمع عقده، على أن لا يتأخر وصوله الى لندن عن يوم ١٦ ايلول . فأسرع الامير بالسفر الى حيفا بقطار خاص في ١٢ منه، وأبحر حالاً على نسافة بريطانية قاصداً مرسيليا . وكان في معيته المقدم أركان حرب محمد اسماعيل والشاعر المعروف الشيخ فؤاد الخطيب سكرتيره للشؤون الخارجية وحداد باشا مدير الأمن العام والدكتور أحمد قدري طبيبه الخاص والخوري يوسف اسطفان الخطيب الماروني الذي التحق بوطني دمشق وأصبح خطيبهم المفوه وتوفيق الناطور وجميل الالشي ومرافقه العسكري تحسين قدري ثم لحق به الامير أمين آرسلان والامير فايز شهاب اللبناني والدكتور سامح الفاخوري، ليكونوا مستشاري جلالته في رحلته الخطيرة هذه . وكان ظاهراً من انتخابهم الرغبة في وجود عدد مهم من رجالات لبنان الموثوق بهم معه .

ومن الطبيعي أنه كان يجب أن تسرع النسافة البريطانية بالسير وهي تقل الامير، إلا أنها تباطأت في ١٥ ايلول في السفر، وعرجت على مالطة بحجة احتياجها لبعض الاصلاحات والوقود، وحللنا ضيوفاً على المارشال بلومر حاكم الجزيرة . فاهتم الحاكم بالامير كثيراً وأعد لزيارته للجزيرة برنامجاً حافلاً بزيارات معالم الجزيرة وقصورها التاريخية التي ترجع الى عهد الحروب الصليبية، ومشاهدة مسابقات الالعاب الرياضية، رغم الغبار الذي كان (يعمي العيون) بسبب قلة المياه وعدم امكان رش الطرقات . فطالت الرحلة بذلك يومين قضيناهما في مالطة، الأمر الذي جعل الامير يصل الى مرسيليا في ١٨ ايلول . وكان سبب هذا

التأخير المتعمد الوصول الى توقيع الاتفاق بين الحكومة الفرنسية والحكومة البريطانية على البدء بتطبيق اتفاقية سيكس - بيكو في سورية قبل وصول الامير . وبموجب ما تم الاتفاق عليه في ١٥ ايلول يجلو الجيش الانكليزي عن سورية كلها داخلها وساحلها ويحل محله الجيش الفرنسي ، ويستثنى من الاحتلال الفرنسي ما يسمى بالمدن الاربع الداخلية وهي محافظات دمشق وحمص وحماه وحلب والبلاد الكائنة في شرقيها كحوران والبلقاء والدير ، وتدخل الاقضية الاربعة (البقاع ، بعلبك ، حاصبيا ، راشيا) التي كانت تابعة للمنطقة الشرقية في منطقة الاحتلال الافرنسي وفقاً لما جاء في اتفاقية سيكس - بيكو . وتم توقيع هذا الاتفاق في ١٥ ايلول وأبلغ الى المؤتمر كتدبير موقت الى أن يصدر المؤتمر قرار الانتدابات ولا يؤثر ذلك في القضايا الخاصة بالانتدابات . وفي ١٧ ايلول نشر في باريس بلاغ رسمي هذا نصه :

« تقرر في الاتفاق الذي عقد بشأن حلول الجنود الافرنسية محل الجنود البريطانية في سورية وكيليكية أن تترك من الآن المدن الاربع وهي دمشق وحمص وحماه وحلب وشرقيهن خارج منطقة الاحتلال العسكري الفعلي » .

ومعنى ذلك أن لا يبقى في المدن الاربع إلا القوى العسكرية العربية .

وكان مشترطاً في الاتفاق أن يتم جلاء الجيش البريطاني ويحل محله الجيش الفرنسي في أول شهر تشرين الثاني . وهذا يعني جعل الأمير فيصل أمام الأمر الواقع اذ كان بحكم المؤكد أن أميركا ان تقبل انتداباً ما ، ولم يكن من المعروف الوقت الذي ستبرم فيه أميركا معاهدة

الصلح . فالتدبير الذي قيل انه موقت يصبح دائماً بحكم الواقع . وقد علم الامير بكل ما تقدم من مندوبي الحجاز في مؤتمر الصلح ، وذلك عند وصوله الى مرسيليا . فأسرع بالسفر الى لندن عن طريق باريس فوصلها في ١٩ ايلول ، وكان استقباله حافلاً كأن هذه المظاهر تخفف من وقع المصيبة التي بدأت بالظهور بعد تلك الآمال الذهبية بنيل العرب استقلالهم وتقوية روابط الوحدة التي كانت قائمة بينهم في العهد العثماني . وقابل الامير اللورد آللنبي بدون ابطاء ، ومضى معه لمقابلة رئيس الوزارة البريطانية . وكانت المقابلة كلها مجاملة والعمل على تطييب خاطر الامير ، لكنهم أفهموه بصراحة أن عليه أن يتفق وفرنسا ، ووعدوه بالمدافعة عن وجهة نظره لدى كلمنصو .

وقد دعي الامير في لندن الى حفلة أقامها اللورد مير « أمين العاصمة » لتكريم المارشال آللنبي بعدّه لندنياً ، كما دعي اليها أعضاء الوزارة ورئيسا مجلس اللوردات والعموم ، فاستقبله اللورد مير بمظاهر الحفاوة البالغة وقدّمه على جميع الحاضرين حتى كأن الحفلة قد أقيمت على شرفه .

ولما كان الامير يقول بأن تطبيق ما تم الاتفاق عليه أخيراً بين فرنسا وانكلترا يستلزم قيام المظاهرات وحدوث الاضطرابات في البلاد ، فقد تحدث كثيراً في هذه القضية مع رجالات وزارة الخارجية البريطانية وطالب بتنفيذ العهود المعطاة لأبيه الحسين نيابة عن انكلترا من قبل ماكماهون المندوب السامي البريطاني بالقاهرة ، وهي صريحة بخصوص تشكيل حكومة عربية مستقلة في سورية الداخلية بما فيها شرقي الاردن وولاية الموصل بدون أن يترك ذلك مجالاً لأي تأويل ، كما انه لا يوجد في اتفاق سيكس ـ بيكو ما يخالف ذلك إلا كون تلك المنطقة ، عدا

الاردن ، منطقة نفوذ اقتصادي فقط لفرنسا التي تقدم لها ما ترى انها بحاجته من الفنيين ، ولا يحق لها احتلالها والتدخل بشؤونها ، إذ ان فيصل لم ينس ما كان قد قاله له كلمنصو بأن فرنسا تود أن ترى علمها يرفرف على دمشق مع قوة عسكرية ولو قليلة تعسكر فيها . ولهذا اهتم فيصل كثيراً بادىء ذي بدء بالغاء ما تم الاتفاق عليه في ١٥ ايلول ١٩١٩ بين فرنسا وبريطانيا حتى تبقى لقضية البلاد صبغتها الدولية ، ولا تكون يد فرنسا فيها طليقة . إلا أن كل ما يمكن من الوصول اليه هو أن اتفق مع بريطانيا على تشكيل لجنة عسكرية من أربعة ضباط : افرنسي وانكليزي وأميركي وعربي ، للنظر بالاختلافات التي قد تقع . وبما أن هذا لا يخل بجوهر اتفاق ١٥ ايلول ١٩١٩ فقد وافق الانكليز عليه مبدئياً وكلفوا فيصل بمفاوضة كلمنصو في باريس وتوسطوا لديه ليدعو الأمير لمقابلته . فغادرنا بريطانيا في ٢٠ تشرين الاول ١٩١٩ قاصدين باريس .

في باريس :

وفي اليوم الثاني من وصولنا الى باريس قابل الامير كلمنصو مقابلة ودية لم تنتج أي حل عملي حتى ولا تأليف اللجنة المذكورة . ولم تفد مراجعات الوفد العربي في مؤتمر الصلح للوفد الاميركي بطلب التدخل لعدم قبول الاتفاق البريطاني ـ الفرنسي الجديد المعقود في ١٥ ايلول ١٩١٩ . وبذلك تخلى البريطانيون عن العرب لقاء تنازل الفرنسيين لهم عن ولاية الموصل التي كانت داخلة في حدود سورية العربية بموجب اتفاق سيكس ـ بيكو ، وعن ثروتها البترولية العظيمة . وكان من الظاهر انه

لو لم يحصل هذا التخلي أو اذا لم تكن الدولة العربية التي من ضمنها الموصل تابعة لأخذ المونة الاقتصادية من فرنسا ، لما قبل لويد جورج اعطاء فرنسا حرية العمل في سورية الداخلية .

وبعد أن تأكد الامير من عدم تمكنه من الاعتماد على بريطانيا لأجل تحقيق وعودها المعطاة للملك حسين بعقدها اتفاق ١٥ ايلول ١٩١٩ ونصح بريطانيا له بالاتفاق مع كلمنصو ، راح يبذل كل جهوده للوصول الى غاياته عن هذا الطريق . وقد كلفت الحكومة الفرنسية قدور بن غبريط وزير التشريفات في البلاط الشريفي المراكشي الموكول اليه اقناع من تود فرنسا اقناعه من رجالات العرب باتباع السياسة التي تود تحقيقها ، بأن يكون لسان حالها للتأثير على الامير واستمالته .

وكثرت مجاملتهم له ، فكان يدعى الى الحفلات التمثيلية وحفلات الباليه الخصوصية ، ويجامله كلمنصو كثيراً ويزوره . وفتح المسيو غو مدير الشؤون الشرقية في وزارة الخارجية الفرنسية والمسيو برتلو المدير العام لوزارة الخارجية المباحثات مع الأمير للتوصل الى حل لقضية سورية يرضيه ويتمشى مع خطتهم . فاستمرت هذه المحادثات مدة طويلة كنا خلالها نغير ونبدل في المسودات التي ترسلها انا وزارة الخارجية بما يجعلها موافقة لخطتنا . ومن الطبيعي أن لا يوافق المفاوض الفرنسي على ذلك .

وفي هذه الاثناء عينت الحكومة الفرنسية الجنرال غورو وهو من كبار قوادها مندوباً سامياً لها في سورية وقائداً عاماً للجيش الفرنسي في الشرق . وقد صرح قبل سفره الى بيروت بأن مهمته هي ابدال

الجنود البريطانيين بالجنود الفرنسيين في تلك البلاد الى أن يقر مؤتمر السلام مصير هذه البلاد . ولكن هذا لم يبدد المخاوف التي اعترتنا بسبب اختيار قائد كبير مندوباً سامياً لفرنسا في سورية وإرفاقه بكثير من الضباط واقرار ارسال قوى فرنسية كثيرة لبلادنا . فاضطررنا لاستمالة الرأي العام الفرنسي ، علّ ذلك يفيد في الوصول الى رغبات أهل البلاد ، فصرّح الامير في اجتماع صحفي له في باريس في « انه يرغب في اتفاق ودي مع فرنسا ، والتعاون مع الجنرال غورو ، إلا أنه لا يتمكن من التسليم بتجزئة البلاد خلافاً لرغبات سكانها والوعود الرسمية التي وُعد بها وبأن لا يتم في بلاد العرب أي حل يخالف رغبات السكان ، وقد رفضْتُ ما طلبه مني المستر لويد جورج بهذا الخصوص » . وكان الراغب في ذلك هو لويد جورج وليست فرنسا .

وبدأت المفاوضة مع المسيو غو والمسيو برتلو ، تارة في وزارة الخارجية الفرنسية ، وأحياناً في مقر الامير . وكان رستم حيدر وعوني عبد الهادي يفاوضان تحت اشراف فيصل وفق توجيهاته ، ثم يجمعنا ويبلغنا تفاصيل كل ما يحدث للاتفاق على الخطة الواجب اتباعها . وكان همنا الاوحد الحيلولة دون احتلال القوى الافرنسية لأي جزء من المنطقة السورية الشرقية لتحل محل قوى الجيش البريطاني المنسحب . ثم انتهت مباحثات الامير مع برتلو مدير عام وزارة الخارجية بهذا الخصوص بعقد الاتفاق الموقت العسكري الآتي :

١ — تأليف لجنة من افرنسي وعربي وانكليزي لتسوية المشاكل التي قد تحدث بين المناطق .

٢ — انسحاب الجنود العربية من البقاع التابع المنطقة الشرقية

المستقلة « ولو انه بمقتضى معاهدة سيكس - بيكو ضمن المنطقة الغربية » .

٣ - يشرف على أعمال الشرطة والدرك الموجودة حالياً بالبقاع هيئة مختلطة مؤلفة من ضباط افرنسيين وعرب يتفق عليها محلياً .

وأرسل الامير بواسطة وزارة الخارجية الافرنسية لنائبه بدمشق الامير زيد بتاريخ ٢٧ تشرين الثاني ١٩١٩ برقية عن الاتفاق الذي تم للعمل بموجبه وهذا نصها :

اخبركم بكل سرور أن الحكومة الافرنسية قبلت بتأليف اللجنة التي طلبتها والتي ستكون مؤلفة من انكليزي وافرنسي وعربي لتسوية المشاكل التي قد تحدث بين المناطق ، وابتغاء تطمين أهالي سوريا بأن الاتفاق هو عسكري محض وموقت فالجنود الافرنسية لا تحتل البقاع ولا محلا آخر من منطقتنا الحاضرة ، والجنود العربية سوف تنسحب من البقاع دليلا على ثقتنا المتبادلة ويبقى الدرك العربي هنالك مكلفاً بحفظ النظام والأمن تحت أوامر القائمقام ، وعند اللزوم يؤتى بمفرزات درك من دمشق اذا كانت القوى الموجودة غير كافية .

وسيعهد الى هيئة مؤلفة من ثلاثة ضباط افرنسيين وثلاثة عرب معاً أن تلاحظ بالاتفاق حسن تنفيذ وظائف الشرطة والدرك في تلك الجهة وترفع تقريرها الى القائمقام .

المفاوضات جارية مع الحكومة الافرنسية باخلاص وثقة متبادلة ، فليطمئن الاهلون ، وليهدأ بالهم ، وقد بلغت الحكومة الافرنسية هذا الاتفاق الى الجنرال غورو .

« فيصل »

والظاهر ان هذا الاتفاق لم يرق للجنرال غورو الذي وصل الى

بيروت في ١٨ تشرين الثاني ، فأعدت السلطات الافرنسية له استقبالاً حافلا حشدت له من أذنابها كل من تربى بالمدارس التبشيرية وكل مأجوريها ، وشرع غورو فوراً بالاستفادة من الظروف المواتية لفرنسا وعمل على تحقيق ما يعدّه ومساعدوه نصراً عسكرياً بأن يسرع باحلال الجنود الافرنسية المتدفقة على الساحل السوري محل الانكليزية المنسحبة من المنطقة الغربية (الساحل السوري) بما في ذلك البقاع التابع آنذاك لسورية الداخلية . لذلك أخر تسليم برقية فيصل المذكورة الى نائبه الامير زيد الى ما بعد اضطراره لذلك في آخر الاسبوع الاول من شهر كانون الاول ١٩١٩ اذ ان وزارة الخارجية أوسع أفقاً منه ويهمها ارضاء فيصل ، الى أن تحصل على الانتداب ثم تنصرف للعمل كما يحلو لها تحت ستاره .

وبعد ان أخر غورو تسليم برقية الامير اتصل بقيادة الجنرال آللنبي العامة وطلب اليها تسهيل احلال الجنود الافرنسية محل البريطانية المنسحبة من الاقضية الأربعة ، فأرسلت ضابطاً كبيراً مندوباً عنها لدمشق ، فقابل الأمير زيد مع الكولونيل كوس ضابط الارتباط الافرنسي بحضور مستشاره العسكري نوري السعيد والحاكم العسكري رضا الركابي ويوسف العظمة المعتمد العربي في بيروت بعد ان نحي جميل الالشي عن تلك الوظيفة . فسعى الضابطان الفرنسي والانكليزي لاقناع حكومة دمشق بقبول هذا الاحتلال الذي ليس له الا صبغة عسكرية ، فلم تقبل وارتأت ان تستفيد من حنكة وخبرة نوري باشا العسكرية فكلفته بالعمل على حل هذه العقدة الشائكة بصلاحية واسعة علّه يتمكن من منع احتلال حاصبيا وراشيا والبقاع وبعلبك ، فسافر حالاً الى بيروت ، وقابل الجنرال

غورو واستعمل كل ما أمكنه من لباقة وحجة لاقناعه بعدم احتلال الاقضية الاربعة المذكورة ، وتمكن من الاتفاق معه على احتلال رياق فقط وارسال ضابط ارتباط افرنسي مع قوة افرنسية صغيرة رمزية لكل من المدن الأخرى ، ولا شك بأنه كان لاتفاق فيصل مع وزارة الخارجية في باريس دخل بهذا التساهل ، ونظراً للارتباك الذي ساد البلاد آنذاك كان على السلطة الافرنسية ان تخبر قائمقام بعلبك « الرئيس الاداري من قبل حكومة دمشق فيها » عن وصول ضابط الارتباط الافرنسي المتفق على اقامته فيها ، الا انه وصل اليها مباغتة ومعه عدد من الجنود الافرنسيين ، فمنع الأهلون دخوله فعاد لبيروت وأبلغ ذلك لقيادته ، فأرسلت الجنرال دي لاموط على رأس قوة عسكرية كبيرة يبلغ عددها نحو الفي جندي من خيرة الجنود ومجهزة بالسلاح الثقيل لدخولها عنوة ، فدخلتها في ١٩ كانون الاول بعد أن اشتبكت مع الأهلين في قتال مرير في مشارق المدينة استمر يوماً كاملاً . وزاد هذا الحادث الحالة ارتباكاً في دمشق مما اضطر الامير زيد الى شرح الموقف الحرج لأخيه فيصل في باريس بكل وضوح ، إلا أنه لم يكن لفيصل أي باب يطرقه بعد أن تخلى عنه البريطانيون والاميركان إلا الرئيس كلمنصو ، فمهد لذلك بمذاكرات طويلة مع غورو و برتلو ثم أرسل له بتاريخ ٢٢ كانون الاول ١٩١٩ الكتاب الآتي :

يا حضرة الرئيس

لا أزال تحت تأثير الاستقبال الجميل الذي تلطفتم به عليّ واني أحسب من أعز واجباتي أن أشكركم على ذلك .

« وقد وافقت امتثالا لرغبة حضرتكم على تأخير سفري الى أن يعود المسيو برتلو ، أملا أن نحل في هـذه البرهة حدود لبنان ، واني سعيد جداً لتمكني من أن أقدم في هذه المناسبة دليلا جديداً على رغبتي القوية في الوصول الى اتفاق حقيقي .

« ولا شك أن العطف والاهتمام اللذين أظهرتموهما لي بعثا بي جسارة على أن أعرض بكل اخلاص على سعادتكم ما يخامرني من القلق الذي لم تكن وضعية الجنرال غورو في البقاع إلا لتزيده شدة ، ورغماً من محاذرتي اضاعة وقتكم الثمين فاني لا أرى مندوحة من أن ألخص لحضرتكم الموقف الحاضر كما هو :

« ان من مقتضى الاتفاق الذي عقدناه في الخامس والعشرين من الشهر المنصرم بأن لا تحتل الجنود الافرنسية البقاع وأن تنسحب منه الجنود العربية ولا يبقى محلها وخاصة في بعلبك وحاصبيا وراشيا إلا الدرك التابع لأوامر القائمقامين وستؤلف بعثة تفتيشية من ثلاثة ضباط عرب ومثلهم افرنسيون يرسلون معاً الى تلك النواحي لكي يلاحظوا بالاتفاق حسن تنفيذ وظائف الدرك والشرطة المسؤولين عن الأمن ، واذا وجد الضباط العرب والافرنسيون أن قوات الدرك غير كافية فتعزز بقطعات دركية أخرى يؤتى بها من دمشق .

« فهل التجاوز الذي وقع على الضابط الافرنسي وجاويشه يبرر الاخلال بهذا الاتفاق ويجيز القرار الذي اتخذه الجنرال غورو ؟ خصوصاً ان السلطات المحلية هي المسؤولة وحدها عن ارجاع الأمن وان جلب القوى من دمشق عند الضرورة منصوص عنه في هذا الاتفاق .

« لذلك فاني أرى من واجبي أن أصر على لزوم الاحتفاظ بهـذا الاتفاق الذي هو أول اتفاق بيننا ليكون له وقع حسن في نفوس الاهلين وليسهل لي القيام بمهمتي ، ويزيد في الثقة المتبادلة بيننا ، لتنمية مناسباتنا في المستقبل .

« وقبل أن ننظر في فصل مسألة حدود لبنان التي نعمل على حلها فان حضرتكم اذا أعطيتم أمراً بسحب الجنود التي احتلتها خلافاً لاتفاقنا تكونون قد أظهرتم دليلاً جديداً على اهتمامكم العالي بنجاح مذاكراتنا ، وخففتم بذلك عني عبئاً ثقيلاً :

« وأرجو أن يجد طلبي هذا قبولاً حسناً لديكم وتفضلوا . . .

وتمكن الامير بلباقته السياسية وكياسته من تخطي هـذه المعضلة بسلام وحصل على ارسال أمر لغورو بسحب القوة الغازية من بعلبك ولم يبق فيها إلا ضابط الارتباط فقط .

واستمرت المحادثات ، فطلب المفاوضون الافرنسيون أن يكون لفرنسا مستشارون ذوو سلطة لوزارات الداخلية والحربية والمالية والمعارف والعدلية والاشغال العامة . وهـذا يعني أن ادارة البلاد كلها ستكون في أيديهم فلم يقبل الامير بهذا الطلب ، ورجع الى المسيو كلمنصو كي يخفف المفاوض الفرنسي من غلوائه ، وأصر الامير على أن يكون المستشارون موظفين لدى الحكومة السورية ، كما أن المفاوض الفرنسي طلب سلخ الاقضية الاربعة وهي البقاع وبعلبك وحاصبيا وراشيا من سوريا وضمها الى لبنان وكذلك ضم القسم الخارج عن فلسطين من ولاية بيروت الى لبنان وهو مدينة بيروت وأقضية صيدا وصور ومرجعيون ومتصرفية

طرابلس . ومن الطبيعي ألا يقبل الامير ذلك فوسط كلمنصو في تحكيم مؤتمر الصلح في ذلك ، كما ان المفاوض الفرنسي لم يقبل استفتاء السكان في المناطق المذكورة .

وفي أثناء المباحثات كانت تصل للأمير أخبار مقلقة من سورية عن اضطراب حبل الأمن في كثير من نواحيها . وقد بدأت في الحولة علائم الاضطرابات في ١٢ تشرين الاول نتيجة تعدي بعض افراد قوى أمن المنطقة الغربية على الاهلين . فقاومهم العربان بالسلاح وأجبروهم على الفرار ، فعمدت السلطة الفرنسية الى استعمال الشدة وأرسلت لمكان الحادث سرية كاملة من الخيالة ومعها رشاشان وضربت قرية الحصاص بدون انذار ، وهي قرية محمود الفاعور أمير عرب الفضل النازلين في الجولان من أراضي القنيطرة ، فهاج الاهلون ورغبت الحكومة السورية أن تحل الحادث صلحاً ، واشترك الانكليز معهم في هذه الرغبة ، إلا أن الافرنسيين لم يستجيبوا عملياً لهذه الرغبة ، فساد الاضطراب قضاء مرجعيون المجاور لمكان الحادث ، وانتشرت العصابات تنازل القوى الفرنسية ، فأرسلت السلطة العسكرية الفرنسية الى هناك قوة عسكرية كبيرة تحت قيادة الجنرال دولاموت وضربت قرية « الخالصة » و « كفر كلا » وغيرهما من القرى المجاورة للمنطقة الشرقية ، كما دخلوا تلك المنطقة وخربوا بعض القرى التابعة للقنيطرة بالمدافع ، وصبوا البترول على البيوت فأحرقوها ونهبوا كل ما وجدوه من غنم وبقر وأثاث . كما نهبوا في قرية الطيبة بيوت آل الاسعد .

واستمرت المعارك لغاية العشر الاول من كانون الثاني ١٩٢٠ وانتصر الثوار على المهاجمين الفرنسيين في عمرة الامير محمود إذ خسر الفرنسيون

فيها سبعين قتيلا ومدفعين جبليين وعشرين رشاشاً وكثيراً من الاسرى فاستلمتها الحكومة وسلمتها للسلطة الفرنسية في بيروت . كما انه وقع بعد بدء حوادث الحولة بما يقرب من شهر اصطدام بين أهالي تلكلخ والقوى الفرنسية بسبب رفع العلم الفرنسي على دار الحكومة في تل كلخ لاول مرة . ولم تسلك السلطة العسكرية الفرنسية خطـة المسالمة وهددتهم بضرب منازلهم بالمدافع وحرقها . فحزم الاهلون أمرهم على الدفاع وشكلوا لجنة من خالد الرستم وحسن ابراهيم الدندشي وعبد الله الكنج الدندشي وأحمد البرازي لتضطلع بتلك المهمة ، وطلبوا انزال العلم الفرنسي من تل كلخ وتشكيل حكومة وطنية من أهل البلاد فيها وعدم تجزئة الوطن العربي ، فرفض الفرنسيون ذلك ، فاندلعت نيران الثورة وحاصر الاهلون ، وفي مقدمتهم الدنادشة ، دار الحكومة في تل كلخ المسلحة تسليحاً قوياً وقتلوا كثيرين من حاميتها فأمدتها بيروت بقوى كبيرة ، ولكنهم لم يتمكنوا من التغلب على الوطنيين الذين كانوا يدافعون عن حماهم بشرف وعناد . إلا أن الامدادات الكثيرة المجهزة بالمدافع والرشاشات التي لم يكن مع الوطنيين شيء منها اضطرت الثوار الذين نفدت معظم ذخيرتهم الى مناوشة الفرنسيين بطريقة حرب العصابات ، ونزح زعماؤهم الى دمشق فاستقبلهم وطنيوها ، ودامت مناوشة الدنادشة للقوى الفرنسية الى أن سقطت حكومة دمشق .

ومن الاخبار التي وردت مورد القلق على الامير ما وافاه من أن السلطة العسكرية الانكليزية استدعت ياسين الهاشمي رئيس ديوان الشورى الحربي في ٢٢ تشرين الثاني أي قبيل جلاء الجنود البريطانيين عن دمشق في أواخر الشهر المذكور ، الى دار القائد العسكري الانكليزي ولدى

وصوله اعتقل في سيارة عسكرية مسلحة سارت به الى فلسطين الى بلدة الرملة . وما كاد هذا النبأ يتصل بالمسامع حتى احتجت دمشق كلها ، وقامت المظاهرات في شتى الانحاء ، وأقفلت الاسواق ، وصدرت الصحف مطوقة بالسواد ، وأبلغت الهيئات الوطنيـة السورية معتمدي الدول في دمشق احتجاجاً هذا نصه :

« ان الشعب السوري وعاصمة البلاد السورية يحتجان باقفال جميع أسواق المدينة وبالاشتراك في مظاهرة عمومية عظمى على أخذ ياسين باشا الهاشمي فجأة وبلا علم من رئيس الحكومة وخلافاً للأصول وارساله الى فلسطين . ويكرر ارادته في طلب وحدة البلاد السورية وتمام استقلالها فنرجو رفع هذا الاحتجاج الى حكومتكم واقبلوا فائق الاحترام » .

ويعزى سبب اعتقال الهاشمي الى الفرنسيين في بيروت ، إذ طلبوا اخراجه من دمشق لكونه وهو على رأس « مجلس الشورى الحربي » شرع يبذل غاية النشاط في سبيل تشكيل جيش سوري ، كما أقر وهيئة الفتاة الادارية طلب اقرار الخدمة العسكرية الاجبارية وساعد الثوار في المنطقة الغربية . لذلك سعوا للخلاص منه حتى لا يقـاوم خططهم الاستعمارية . كما ان الانكليز شعروا بمساعدته للوطنيين ، فاجتهد فيصل بكل قواه سواء في لندن أو باريس لحل هذا الحادث المؤلم ، على أن اتفاق بريطانيا وفرنسا وجلاء الانكليز بجنودهم عن سورية لتحل محلها الجنود الافرنسية ثم اعتقال الهاشمي وما لابس هذه الحوادث وتلاها ، جعل الافكار النيرة تؤمن بأن من العسير الصمود أمام جشع المستعمر إلا بالقوة ، لذلك اقترح الوطنيون المتحمسون ، وفي مقدمتهم رجال الفتاة والاحياء ، انشاء لجنة للدفاع الوطني الاهلي كي تساعد الحكومة

في مهمة الدفاع وجمع كلمة الامة . فماشت الحكومة الرأي العام ، وتأسست اللجنة الوطنية للدفاع ولها فروعها في المدن السورية . وكان أول اجتماع لهذه الغاية في منزل آل الحسيبي ، ثم تلاه اجتماع آخر بالبلدية . ولما كنت قد لحظت أن جميع من في معية الامير يشجعه على عقد اتفاق مع كلنصو ، كتبت الى هيئة ادارة الفتاة بدمشق بغية مقاومة هذه الفكرة ، والافادة من الشيخ كامل القصاب في اندفاعه وخبرته في أساليب التأثير على عقول الجماهير لنتمكن من الوصول لرفض الاتفاق ، فلبى القصاب الرجاء ، وحضر في ٢٧ تشرين الثاني اجتماعاً بالقنوات بدار آل البارودي ، وخطب خطبة حماسية طالب فيها بالاستقلال التام كما طلب من الحاضرين توقيع ميثاق برفض كل اتفاق يحدّ من سيادة الامة ويقيد استقلالها . ولم يخرج الحاضرون إلا بعد توقيعه . وهكذا أصبحت للقصاب الكلمة الاولى في اللجنة الوطنية ، وتقرر تجنيد الف متطوع على نفقة الاهلين ومن حرّ مالهم .

ولما تأزمت الحالة في البلاد وانتهت الى هذا الحد من الشدة ، ولم يتمكن رضا باشا الركابي من اقناع رجال جمعية الفتاة والوطنيين المندفعين بالرجوع عن قرار مقابلة القوة بالقوة وتقرير الخدمة العسكرية الاجبارية لتقوية الجيش وعن مساعدة الثورات الوطنية التحريرية في المنطقة الغربية (لبنان) ، فقد هدد بالاستقالة خوفاً من العقبى التي يفرضها البون المعظم بين قوى الطرفين ، وهو الرجل العسكري والاداري المعتاد على درس النتائج قبل الاقدام على العمل . وكنت في مقدمة القائلين بالمقاومة وبتقرير الخدمة العسكرية الاجبارية مع ادراكي نتائجها حتى لا يكون لفرنسا حجة تتذرع بها دولياً لاستعمارنا ، فبحثت الجمعية الاستقالة وقررت

المضي باصدار قانون الخدمة العسكرية الاجبارية والاستفادة من الحماس الوطني المتأجج وعدم ترك الثوار الوطنيين يذبحون ذبح النعاج لا لذنب اقترفوه إلا تمسكهم بكرامتهم الوطنية ، وحقوقهم الانسانية ، فتركهم وشأنهم خطة يتعذر قبولها سيما بعد أن ظهرت نوايا الحلفاء بحق حلفائهم العرب ، وأيد الجمعية بذلك جميع الوطنيين ، وفي مقدمتهم أعضاء المؤتمر السوري . وقد زاد جلاء الانكليز عن دمشق في ٢٥ تشرين الثاني ١٩١٩ ضرام الحماس الوطني اشتعالاً ، فقرروا طلب تشكيل حكومة وطنية برلمانية . وقد استشار الامير زيد شقيقه فيصلاً في ذلك ، فأجابه بأن لا يصار الى تغيير جوهري بنظام الحكم قبل أن يبت بمصير البلاد ، فألقى الامير زيد في ١ كانون الاول ١٩١٩ في المؤتمر السوري البيان الآتي :

حضرات أعضاء المؤتمر السوري المحترمين :

نحن نائب سمو الامير فيصل نشكر لمؤتمركم الموقر ما أبداه من دلائل الوطنية الصادقة وما قام به من الاعمال النافعة ، التي برهنت عن حمية تذكر ، وهمة عالية ، انتصاراً لهذا الوطن المبارك ودفاعاً عن حق البلاد واستقلالها السياسي التام الذي حاربنا من أجله أربع سنوات متواليات في جانب الحلفاء مستندين على معونة الباري عز وجل وعلى شعور الامة الشريف ، وانصاف العالم المتمدن الذي اعترف رسمياً بحق العرب في الحياة الحرة وأعجب ببسالتهم في الدفاع عن قضيتهم والقضاء على مبادىء الاستيلاء والاستعمار عملاً بمبدأ الحق وحرية الشعوب المظلومة .

وقد سرنا ما تمنيتموه من اعلان الحكومة الوطنية ، على قاعدة

الحكم الدستوري النيابي وهو الذي سيكون أساس حكومتنا في المستقبل ، غير اننا نرى أن بقاء التشكيلات الحاضرة المعلومة لديكم مع بعض التعديل في الفروع أدعى للاقتصاد ، وأحفظ للنظام وتوطيد دعائم الأمن في مثل هذه الاوقات الى أن يقرر مصير البلاد النهائي في مؤتمر الصلح . ونحن لا نشك في أن مؤتمركم هذا الوطني الذي ضم نخبة المخلصين والمفكرين سيكون بأعضائه المحترمين في أنحاء هذا القطر مثالاً لكل حركة شعبية يراد بها خير البلاد .

وقدّم الركابي استقالته للأمير زيد في العاشر من كانون الاول ٩١٩ بعد أن تعذر الاخذ برأيه ، فقبلها وعين مكانه عبد الحميد باشا القلطقجي . وبعد بضعة أيام عين مصطفى نعمة ، الذي قبل العمل وفق ما تقرر ، وكيلا للحاكم العسكري العام ، وأحدثت مديرية الداخلية العامة ، وعهد بها لمتصرف حماه رشيد طليع الضليع مع الوطنيين ، وعين محله المفتش الملكي زكي قدري كما عين يوسف العظمة رئيساً لديوان الشورى الحربي (وزارة الدفاع) بعد أن اعتقل ياسين الهاشمي ، فقويت بذلك فكرة الدفاع . ثم أقرت الخدمة العسكرية الاجبارية لمدة ستة أشهر من سن العشرين الى الاربعين بتاريخ ٢١ كانون الاول ١٩١٩ . إلا أنه تعذر تسليح الجيش بالسلاح الثقيل ولم تكن بطاريات المدفعية الست التي كان أرسلها الحسين استجابة لطلب فيصل ، وهي من مخلفات الجيش العثماني لتكفي ، سيما ولم يكن لها العتاد الكافي ، وكذلك سلاح الجيش العربي الشمالي لم يكن ليعتمد به كثيراً ، ورغم ذلك كان الهاشمي يقول بامكان المقاومة آخذاً بعين الاعتبار القوى الافرنسية الموجودة في سوريا قبل اعتقاله وامكان جلب عتاد من تركيا . وكانت المفاوضات لعقد

المعاهدة السورية مستمرة في باريس . وتساهل الفرنسيون بعد مراجعة فيصل لكلمنصو . وكان مما قاله كلمنصو لفيصل : أرجوك بأن تسرع بعقد المعاهدة لأن سواي لن يتساهل معك بقدر ما أفعل . أما التساهل الذي عناه فكان قبول الفرنسيين بأن يدخل نص في المعاهدة يقول بالاتفاق في المستقبل على الصورة التي يتمكن معها المستشارون الستة من القيام بواجباتهم عوضاً عن التصريح ، فلم يقبل المفاوض السوري بذلك أيضاً ، ورجع الامير الى كلمنصو فأوعز بوضع نص جديد يرضاه الامير ، وتم الاتفاق على المشروع الذي سمي بمشروع فيصل - كلمنصو ، وقد وافق عليه جميع المستشارين الذين كانوا بمعية الامير بعد أن رأوا أن من المتعذر أن تقبل فرنسا بأقل من ذلك . فقاومتُ هذا الاتجاه مقاومة شديدة حتى ان الامير أمين آرسلان ، وهو رجل طيب القلب ، طلب اخراجي من معية الامير واعادتي لسورية ، على أن امنع من الاتصال بأحد . فلم أجد أمامي إلا حسني البرازي الذي أمَّ باريس للتوسع في دراسة الحقوق لاقناعه بأن كل اتفاق مع فرنسا سيما اذا كان يمنحها حقوقاً عسكرية هو الاستعمار بنفسه مهما كانت النصوص ، وضربت له مثلا خطتها التعسفية في كافة مستعمراتها ، وما وصلت اليه حكومة المغرب الاقصى وتونس بنتيجة توقيع اتفاق مع فرنسا ، ظاهره معسول مقبول ، وفي خفاياه ما يستعاذ منه ، لأن تلك البلاد بعد توقيع الاتفاق أصبحت في ادارتها كبقية المستعمرات ، لا حول ولا سلطة للتشكيلات الوطنية القائمة فيها ، فلم يخيب حسني البرازي ظني ، وكان يرافقني ويؤيدني كلما استنجدت به . وقد رفعت ما وصلت اليه حال المفاوضات الى جلالة الملك حسين في مكة ، والى أعضاء الهيئة المركزية لجمعية الفتاة في دمشق ، أستحثهم على تأييد وجهة نظري .

مشروع اتفاق فيصل – كلمنصو

وهذا هو نص المشروع الذي حمله الامير الى سورية ووعد بعرضه على الشعب وأخذ رأيه فيه :

« عطفاً على التصريح الافرنسي الانكليزي في ٩ نوفمبر سنة ١٩١٨ من جهة واستناداً على المبادىء العامة لتحرير الشعوب والمعاونة الودية المعلنة من قبل مؤتمر الصلح من جهة أخرى ، تؤكد حكومة الجمهورية الافرنسية اعترافها بحق الاهالي الناطقين باللغة العربية والقاطنين في الاراضي السورية من سائر المذاهب أن يتحدوا ايحكموا أنفسهم بأنفسهم بصفتهم أمة مستقلة .

يعترف صاحب السمو الملكي الامير فيصل بأن مصلحة الأهلين السوريين الكبرى نظراً لاختلال الكيان الاداري الناشىء عن الاضطهاد التركي والخسائر اللاحقة بالبلاد أثناء الحرب – تتطلب تحقيق وحدتهم وتنظيم كيان الامة الاداري بالالتجاء الى النصائح والمعونة التي ستسجل في جمعية الامم عندما تتألف هذه الجمعية بصورة عملية ، فهو باسم الاهالي السوريين يطلب هذه المهمة من فرنسا .

١

تتعهد الحكومة الافرنسية بأن تمنح معونتها لسورية ، وأن تضمن استقلالها ضد كل تجاوز ضمن الحدود التي سيعترف لها بها مؤتمر الصلح . وفي تعيين هذه الحدود ستبذل الحكومة الافرنسية جهدها لنيل جميع التعديلات الحقة من الوجهة الجنسية واللغوية والجغرافية .

٢

يتعهد صاحب السمو الملكي الامير فيصل بأن يطلب من حكومة الجمهورية الافرنسية ومن هذه الحكومة وحدها المستشارين والمدربين والموظفين الفنيين اللازمين لتنظيم الادارتين المدنية والعسكرية . وسيوضع هؤلاء المستشارون والفنيون تحت امرة الحكومة السورية التي منها يتقبلون تعيينهم وقواهم التنفيذية التي ستحدد باتفاق مشترك بين الحكومتين بموجب عقد ينص على مدة مهمتهم والضمانات المتعلقة بها .

ان حكومة الجمهورية وصاحب السمو الملكي الأمير فيصل متفقان على تطبيق نظام دستوري في سورية ضامن لحقوق الاهلين السياسية ، ومثبت للحريات المكتسبة سابقاً ومطابق لأمانيهم المتضمنة انشاء حكومة مسؤولة أمام البرلمان .

وتوصلا للتنظيم المالي الذي هو القاعدة الاساسية لادارة الدولة الجديدة يشترك المستشار المالي في اعداد ميزانية النفقات والواردات ويبلغ إجباريا جميع التعهدات والنفقات لمختلف الدوائر ويراقب حصة سورية من الديون العامة العثمانية ، ويكلف بالمسائل المتعلقة بتطبيق الشروط المالية في معاهدة الصلح مع تركيا في سورية .

أما مستشار الاشغال العامة فتكون الخطوط الحديدية تحت اشرافه . ويحترم النظام الخاص المتعلق بسكة حديد الحجاز . وكل تصرف يغير السير الحر الاقتصادي للخطوط الموصلة الى دمشق لمصلحة شخص ثالث يعد لاغياً وكأنه لم يكن .

وعقب انعقاد الاتفاق الحاضر تمنح الحكومة الافرنسية معونتها لاجل تنظيم الدرك والشرطة والجيش .

يعترف صاحب السمو الملكي الأمير فيصل للحكومة الافرنسية بحق الاولوية التامة بالتعهدات والقروض اللازمة لخير البلاد ما لم يتقـــدم وطنيون يطلبون هذه المشروعات لحسابهم على أن لا تكون أسماؤهم معارة الى رأسماليين أجانب .

٣

ستمثل الدولة السورية في باريس لدى الحكومة الافرنسية بمندوب سياسي مكلف بملاحظة المسائل الخارجية التي تهم الامة السورية .

وتعهد الدولة المذكورة أيضاً الى ممثلي فرنسا السياسيين وقناصلها في الخارج بتمثيل مصالح سورية الخارجية .

٤

يعترف صاحب السمو الملكي الأمير فيصل باستقلال وسلامة لبنان تحت الانتداب الافرنسي .

وستعين الحدود في مؤتمر الصلح ويؤخذ هذا الأمر بعين الاعتبار لاتمام حقوق ومصالح وأماني الأهلين .

٥

اللغة العربية معترف بها كلغة رسمية لادارة المدارس ، أما اللغة الافرنسية فتدرس بصورة إجبارية وممتازة .

٦

تكون دمشق العاصمة ومحل إقامة رئيس الدولة . ويختار المفوض السامي له مقراً عادياً في حلب ليكون على مقربة من كيليكية وهي منطقة

الحدود وتعد النقطة الطبيعية لجيوش الدفاع المتجمعة ، واذا احتاج الأمر الى دعوة هذه الجيوش للداخل فلا يكون ذلك إلا بطلب رئيس الدولة السورية وبالاتفاق مع المفوض السامي .

يبقى هذا الاتفاق الذي يعين المبادىء العامة مكتوماً بين الفريقين حتى توقيع الاتفاق النهائي ويوضع عند رجوع صاحب السمو الملكي الى فرنسا ويعرض في الوقت الموافق على مؤتمر الصلح .

نظم هذا الاتفاق في نسختين يوم ٦ كانون الثاني ١٩٢٠ .

ولهذا الاتفاق ثلاثة ملاحق : الاول خاص بالاقليات في لبنان وقد تضمن « ان الاقليات تستفتى عند تحديد الحدود » .

والثاني عن حوران (جبل الدروز) ويتضمن أنه يطبق فيه نظام استقلال نوعي في داخل الدولة السورية .

والثالث عن بيروت واسكندرونة وقد تقرر أن تكونا مدينتين حرتين .

* * *

وبالنظر لاضطراب الحالة في سورية ودخول قوة كبيرة تزيد على ثلاثة آلاف جندي الى بعلبك ثم احتلالها لثلاث قرى تابعة لحمص أيضاً (وذلك بعد أن أخر الجنرال غورو نشر تعليمات الحكومة الفرنسية لعدم اثارة شعور الاهلين والأمير بنوع خاص وهي تتذاكر مع فيصل لتصل الى الغاية التي ترمي اليها) ، أرسل الامير زيد بتاريخ ٢ كانون الثاني ١٩٢٠ برقية الى الأمير يستحثه فيها على الرجوع لتهدئة الحالة ، فقرر السفر لسورية وأقامت له وزارة الخارجية الفرنسية في ٥ كانون الثاني مأدبة غداء تقرر فيها النص الاخير لاتفاق فيصل ـ كلمنصو ،

وحدد اليوم الثاني لمقابلة الامير لكلمنصو وتوقيع الاتفاق . فاضطربت كثيراً لأنني كنت أعتقد بأن هذا يعني ضياع كل جهودنا وصيرورة بلادنا تدار كاحدى المستعمرات الفرنسية ولو اختلفت المظاهر .

ومن حسن الحظ أن وصل الدكتور ثابت نعمان ، طبيب الملك حسين ، الى باريس ، ومعه أمر تحريري من الملك يحظر عليه توقيع أي اتفاق يتنافى والعهود المعطاة له من الحكومة البريطانية قبل دخوله في الحرب ، وهذه العهود صريحة بأن يكون العرب مستقلين استقلالاً تاماً في المنطقة التي يتباحث بشأنها الامير فيصل مع الحكومة الفرنسية . كما أن اتفاقية سيكس ـ بيكو لا تجيز ما ورد باتفاق فيصل ـ كلمنصو الذي يجعل سورية تحت الحماية الفرنسية المقنعة بقناع الاستقلال والحرية .

وعندما غادر الامير مقره مع رستم حيدر لمقابلة كلمنصو للمرة الاخيرة قبل مغادرة باريس لحقت به الى السيارة راجياً سموه بأن لا يوقع الاتفاق وأن يخبر كلمنصو شفهياً بقبوله ، وأنه سيعرض نصوصه على الأمة السورية التي يأمل أنها ستقدر مزايا هذا الاتفاق وتوافق عليه . وأحمد الله على أنني نجحت في مسعاي ولم يوقع الامير الاتفاق بل اكتفى وكلمنصو بوضع الاحرف الاولى من اسميهما عليه ، وكان ذلك حجر الزاوية في تمتعنا باستقلالنا بعد الحرب العامة الثانية إذ كانت حجة انكلترا وأميركا باخراج الفرنسيين من سورية هي بسبب ضربهم دمشق بالقنابل ثلاثة أيام منذ ٢٩ أيار ١٩٤٥ وعدم وجود أي مستند يمكن أن تتمسك به فرنسا لتبرير بقاء قواتها في سورية ضد رغبة سكانها ، واستعمالها القوة الغاشمة والعنف واقدامها على ذلك العدوان الفاضح الذي بدأ يوم ٢٩ أيار ٩٤٥

بدون سابق انذار وخرّ ضحيته مئات القتلى من السكان الآمنين . وقد أصاب السيارة الصحية التي كنت أتجول بها لتأمين اسعاف المصابين سبع رصاصات ، إلا انه لم يصبني سوى خدش بسيط في قدمي لم يمنعني من الاستمرار بالقيام بالواجب .

فتمسك سورية باستقلالها وعدم تساهلها في الانصياع لمطالب الفرنسيين رغم ضربهم دمشق ثلاثة أيام متواليات بقنابل المدفعية والدبابات والطائرات وبالرشاشات ، حرك الضمير العالمي بعد أن خرج العالم من الحرب العالمية الثانية ولما ينس أهوالها بعد ، فتدخلت انكلترا بقواها العسكرية وبتعضيد من أمريكا لتوقيف العدوان الفرنسي إذ كان لها القيادة العليا في الشرق الادنى . وكانت قواها منتشرة في جميع أرجائه . ولا شك بأن ذلك يتفق مع مرامي السياسة البريطانية والاميركية سيما وفرنسا كانت منخفضة الجناح آنذاك . فانكلترا لم تكن ترغب في اخراج فرنسا لتحل محلها بل انها كانت ترغب رغبة صادقة في استقلال البلاد ليسعها تأمين مصالحها فيها من غير أن تمانعها فرنسا ، إذ لا يبقى لكل من فرنسا وانكلترا ميزة على الاخرى في سورية . إلا أن الفرنسيين استخلصوا مما وقع أن انكلترا تود اخراجهم لتحل محلهم ، فقطعوا لها عهداً بأن قواهم العسكرية ستتخلى عن سورية ولبنان مع قواها بآن واحد . فضاعت هنا حجة الفرنسيين وتم الجلاء عن البلاد . أما الاميركان فلما كانوا ينادون دوماً بحق تقرير المصير ونيل الشعوب حريتها واستقلالها فقد ضغطوا على فرنسا لتقبل بالأمر الواقع ، هذا مع العلم بأن ما حصل يتسق ومنافعهم أيضاً .

العودة من باريس :

وغادرنا باريس يوم ٦ كانون الثاني ١٩٢٠ . الى طولون ، وخصصت البحرية الفرنسية السفينة « والدك روسو » لتقل سموه الى بيروت ، فأبحرنا عليها في ٧ كانون الثاني ووصلنا بيروت في ١٣ منه . وكان في استقبال سمو الامير الجنرال دولاموط نيابة عن الجنرال غورو ، وحيته ثلة من الجنود الافرنسيين ، وكان استقبال السلطة العسكرية الفرنسية للأمير (مبرقعاً) بجميع مظاهر الفخامة والصداقة . فسار الامير في موكب كبير الى دار المعتمد العربي المجاور لمنزل السيد عمر الداعوق . وفي المساء حلّ ضيفاً على عمر الداعوق . وقد زار الامير الجنرال غورو ، ورد له الجنرال الزيارة . وأقامت السلطة الفرنسية للأمير حفلة كبرى في حديقة « البارك » . ومن غرائب الصدف أن تظهر رغبة غورو في التقدم على الامير أمام الجمهور مع أنه في مناسبة كهذه في لندن ، قدموا الامير على جميع الحاضرين ، ومن بينهم رئيس الوزارة ورئيسا مجلسي اللوردات والعموم ، فانظر كيف تختلف العقليتان السكسونية والفرنسية .

وقابل الامير في دار المعتمد العربي وفود البلاد التي تهافتت لاستقباله وتحيته والاطمئنان على نتيجة مساعيه في مؤتمر السلم ، فحادثهم أحاديث تنمّ عن رغبته الصادقه بتنفيذ اتفاقه مع كلمنصو ، وانه قبل الاتفاق بعد أن استوثق من أن مصلحة البلاد تستلزمه مع فرنسا . . . وحمل الى الأمة ما تمكن من الوصول اليه لتحقيق رغباتها ، وزاد بأنه سيستشير الأمة في نصوص الاتفاق قبل اقراره بصورة نهائية ، ثم يعود

لأوروبة لاستئام مهمته في مؤتمر الصلح وللعمل على تحقيق ما تصبو إليه البلاد من حرية واستقلال . فاستصوب رأي الأمير جميع الوجهاء وذوي النفوذ المتوارث . إلا أن أعضاء جمعية الفتاة والعاملين معها من الشباب النير لم يرضوا بما وقع .

ومن بيروت قصد سموه الى دمشق حيث استقبلته المدينة بمظاهر المحبة وآيات الاحترام ، وكان يوماً مشهوداً يعزّ منه النظير . ولما كانت فكرة الاستقلال التام الناجز هي ما تصبو اليه كافة الطبقات ، فقد دافع الامير عن وجهة نظره بلباقة مع كافة الذين قابلوه بمناسبة عودته وكانوا خلاصة رجالات البلاد السورية .

وقد زارني بعد عودتنا ببضعة أيام وفد من الصحفيين لا كتناه سبب مناهضتي لاتفاق فيصل - كلنصو ، ولم أجد أي صعوبة في اقناعهم بوجهة نظري . إلا أن بعضهم تمسك بأن الانتداب الذي سيحال الى فرنسا من قبل جمعية الأمم بعد تأسيسها مقيد بقيود دولية ويلزمها باعطاء الجمعية تقارير سنوية عن أعمالها . وهذا ضمان قوي لعدم وقوع مثل ما يحدث في تونس ومراكش ، في سورية ، فكان جوابي أن الانتداب ليس إلا الحماية مقنعة ، زوّر مبرقشاً في الظاهر لتقبله الأمم الضعيفة ، ولا يمكن التوفيق بينه وبين الاستقلال . فنشرت الصحف هذا التصريح الذي أحدث ضجة كبيرة ، لأن الكثيرين كانوا مأخوذين بما كان يتردد على الألسن من أن عصبة الأمم ستكون مؤسسة العدالة والانسانية التي انبثقت عن الحرب العظمى . وما أصدق الاستاذ ديبوي عضو المجمع العلمي الافرنسي واستاذ الحقوق الدولية إذ أدلى برأيه عن الانتداب فقال :

« حقاً ان الانتداب أخبث وأدهى ما جاءت به سياسة الحرب العظمى إذ ما هو إلا الحماية مقنعة مستترة » . ولو أن العضو المجمعي أدلى بهذا الرأي قبل أن أدلي به أنا لما أحدث ما قلته هاتيك الضجة التي غذاها أذناب المستعمر .

لقد جعلت المادة الثانية والعشرون من صك عصبة الأمم ، سوريا والعراق في صنف (آ) من درجات الانتداب الثلاث . وهذا نصها :

« وصلت بعض الجماعات التي كانت سابقاً جزءاً من المملكة العثمانية الى درجة من الرقي جعلتنا نعتبرها موقتاً أمماً مستقلة ، بشرط أن يرشدها في ادارة شؤونها نصائح ومعونة حكومة منتدبة الى الوقت الذي تصبح فيه قادرة على قيادة نفسها . ويجب قبل كل شيء أن تراعى أماني تلك الجماعات في انتخاب الحكومة المنتدبة » .

ولعمري ألا يكفي ما جاء في هذه المادة لمنح فرنسا حرية العمل في سورية ؟ وهل روعيت أماني السوريين عند تخويل فرنسا حق الانتداب على سورية ؟ ألم يرفض السوريون الانتداب الافرنسي رفضاً باتاً قبل تقريره في مؤتمر الصلح ؟ .

* * *

هذا ولقد أقام النادي العربي للأمير بعد وصوله لدمشق بنحو عشرة أيام حفلة كبرى خطب فيها الكثيرون من الشباب وكانت كافة الخطب تعارض فكرة الامير بلباقة . وتهدف الى التمسك بالاستقلال بدون حماية أو وصاية ، والمطالبة بالدفاع عن الاستقلال بكل غال ورخيص ،

ثم بتشكيل حكومة قوية تؤمن ذلك . فرد الامير على الخطباء بعد شكر النادي على حفاوته بخطاب ارتجالي قال فيه :

قبل أن أفتح كلامي ، ألقي كلمتي في الموضوع الذي يهمني وهو إبداء الشكر للشبيبة التي دعتني الآن لتحتفل بي وتكرمني لأعمال قمت بها بما يجب عليّ أو قصرت عنها ، وعلى كل حال ، فاذا وقع مني تقصير فأرجو أن يشمل بنظر الكمال ، واذا قمت بشيء من الاكمال ، فهو واجب لا شكر عليه ، لانها وظائف رجل يريد أن يخدم بلاده وأمته .

أنا أشكركم أيها الاخوان لاحتفائكم بشخصي وأقول انني أتيت الى هنا ، بدعوة من شباب هذا النادي الذين جاءوني وقالوا نريد أن نراك في نادينا ونحتفل بك في هذا النادي .

أسس هذا النادي يوم خروج العدو من هذه البلاد لترقية الشباب ، وترقية الفكرة المدنية ، وترقية العلم ، والفكرة الوطنية التي يسعى وراءها ، وليكون نادياً ينهض بالشبان والشبيبة فيلقنهم العلم فقط .

طالما ألقيت في هذا النادي الخطب العلمية والادبية كما القيت السياسية أيضاً ، وقد كنت أود ألا تلقى فيه غير الخطب التي أسس لأجلها ، ولكن الاحوال السياسية جعلت الشبان يهتمون في بعض الاحيان بأمر مستقبل بلادهم ، وهكذا يخرجون عن الغاية التي وجد النادي لأجلها ، لأن الظروف قضت علينا بأن نكرر الخطب السياسية .

كنت في العام الماضي أشاهد من موقفي هذا رقعة كتب عليها « ممنوع التكلم بالسياسة » ولكن وأنا واقف هذه السنة أيضاً في نفس الموقف لا أجد الرقعة ، ليس هذا خطأ الامة أو الشبيبة ولكن

الاحوال السياسية قضت على النشء بترك الخطب العلمية ، فاهملوا دروسهم وكتبهم وأخذوا يتدخلون في الامور السياسية لاعتقادهم أن العلم أصبح في مثل هذه الايام في الدرجة الثانية بالنسبة لحواجة الموقف ولأن الدفاع عن الوطن فوق كل شيء .

وقد آليت على نفسي ألا أتكلم إلا في المواضيع العلمية ، ولكن الضرورة جعلتني ألتمس لنفسي العذر وأتكلم الآن بالسياسة وهو نفس العذر الذي انتحلته لكم معشر الشباب .

اخواني :

تعلمون بانه لا يبحث في نواد علمية كهذا النادي إلا في العلم واني أصرح بأنه اذا لم يسر النادي على هذه الخطة ، فلا يرجى منه فائدة للوطن ، لأن الشاب اذا ترك العلم واشتغل بالسياسة يكون أهمل مستقبله .

هذا من جهة النادي وما يجب أن أقوله عنه ، أما السياسة ومجرى الاحوال في الغرب فأقول بصفة غير رسمية ، لأن النادي غير رسمي ولا يوجد مجلس نواب ، لأطمئن الامة على مستقبلها ، انني أتيت من الغرب لأقف على رغائب الأمة ، بعد انسحاب الاميركان من المعترك السياسي ، وكنت أود أن افاتح أرباب التفكير في مستقبل البلاد بالحالة في الغرب لانني جئت لأمكث بضعة أيام ، ثم أرجع الى ما يجب علي الاهتمام به هناك .

أنا لا أزال ذلك الرجل الذي تتصورونه سواء أكان تصوركم حسناً أم سيئاً فأنا لا يهمني ذلك بمقدار ما يهمني العمل ومستقبل الامة ،

ولا يهمني أيضاً ما يقال عني مدحاً أو هجاء أو غير ذلك فالامة كالافراد أحرار فيما يقولون . ولهذا لا أنظر الى ما قيل ولا الى ما يقال ولا الى الافكار المتباينة تصدر عن أفئدة مملوءة بالحماسة سواء كانت من أفراد أو جماعات فالأمة بأجمعها ترغب أن تكون مستقلة ، وأنا أفخر اذا رأيت شباناً يطلبون الاستقلال ويتحسسون بهذا الشعور العالي الذي يضمن لنا المستقبل وما أسست هذا النادي إلا لأجله .

واني وإن كنت لا أحيط علماً بكل ما يجول في الافكار المختلفة فانني أفتخر بشيء واحد وهو انني أحببت وطني ، وسعيت لوطني ، ولي غاية واحدة وهي أن أرى بلادي مستقلة ، ولا تنحصر هذه البلاد في بلدة واحدة بل ان كل بلاد العرب هي بلادي .

أنا والله لا تخيفني قوة الحكومة ولا قوة الجمعيات ، وإنما أخاف التاريخ والمستقبل وأخاف أن يقال ان فلاناً عمل عملاً لا يليق بآبائه وأجداده الذين كانوا يسمون الاستقلال ، وأرجو أن تعلم الأمة بأنني في الغرب مثل ما أنا هنا لا ابدل كلامي سواء أمام السياسيين أم في أحرج المواقف ، ومبدئي هو أن تكون بلادي مستقلة وأنا عامل بما هداني الله اليه لاستقلال بلادي وارجاع مجدنا الغابر ، والله يشهد بانني أسعى لذلك ولا أظن بانه يوجد في البلاد رجل واحد يرضى باستعباد الاجنبي ، بل أعتقد أن الرفيع والوضيع والشيخ والشاب والعالم والجاهل يشعرون بشعور واحد وهو طلب الاستقلال التام للبلاد .

اخواني :

ربما لاحظتم انني أتلعثم في القول ، فأنا لست بخطيب ولم أعتد أن

أقول كثيراً لأنني ألفت الصمت ، ومن عرفني قديماً يعرف ذلك عني ، ولذلك ارغب ان تكون الامة صامتة مثلي تعمل كثيراً وتقول قليلا .

شكر أحد اخواني الخطباء لمحمود الفاعور صمته ، وكان محمود الفاعور منعزلاً في البادية صابراً صامتاً ، وعندما رأى الاعتداء عليه قام وفعل بدون أن يقول ، الأمر الذي أرغب أن تكون الامة عليه .

لنا سنة ونصف ونحن نقول ، كفانا خطباً ، كفانا أقوالاً ، نحن في أيام العمل لا في أيام القول ، ان الاقوال لا تأتي بفائدة ولكن الافعال تفيد كثيراً ، غبت عن البلاد أربعة أشهر ولا أشك بأن التاريخ يحفظ ما فعلته بالغرب سواء أكان جيداً أو رديئاً ، قليلا أو كثيراً ، ولا انزه نفسي عن الخطيئات لأني كنت أقول ما يلهمني ضميري ، ولما عدت الى هنا رأيت الامة بأشد الحماس ، ولكنه حماس لا يتعدى القول ، وحبذا لو قرن هذا الحماس بالعمل ، أنا أدعو الامة الى ذلك إذ لا حياة لها إلا اذا فعلت كما أقول .

نحن بحاجة الى التعاون ، الى التعاضد الى التكاتف ، الى التعارف ، الى العمل ، وانني أود أن تكون الامة كما قال أخونا يوسف اسطفان .

قال أخونا الشهبندر « وكان الدكتور الشهبندر من خطباء الحفلة » : اذا اعتمدت الأمة على الحكومة يكون كذا ويكون كذا وأقول بهذا الصدد أن الحكومة هي تمثال الامة ، وان حكومتنا لأسباب عديدة هي حكومة موقتة ليس لها صفة قانونية أمام المجموع وهي قائمة برأي من اعتمدته الامة وهو أنا ، فالحكومة هي شخصي بهذه الحالة ، لذلك لا يمكن لشخص أو جماعة أو لجنة من الاحزاب أن

تقول بعدم ايانة هـذه الحكومة ، إذ لا حق لهـا بالتدخل في هذه الشؤون . وأود أن تعضد الامة والشبان الحكومة التي اعتمدها ، أقول هذا وأنا مقتنع بكوني سعيت منذ ابتداء الحرب الى ما فيه خير الامة وخلاصهـا .

اني روح الحركة والامة باعتمادها على الحكومة تعتمد عليّ الى أن تسنح لنا الفرص ويتسع لنـا المجال فنؤلف المجالس التي تعتمد الأمة عليها لذلك فأنا لا أسمح في ساعتنا هذه لشخص أو جماعة أن يقول بأن الحكومة هي كذا وكذا أو أن يطلب ابدال حاكم بحاكم لأنني أنا المسؤول حتى انعقاد مجلس الامة وعندئذ أتنصل من المسؤولية وأضعها على الامة .

ان الحكومة اليوم هي حكومة عسكرية ، حكومة موقتة غـير منتخبة من طرف الشعب ، ولبعض اسباب لا أقدر أن أشرحها اؤخر التشكيلات الى أن اقدم للأمة هدية الاستقلال .

ان وجائبي عظيمة كبيرة ، وأنا أفتخر اذا رأيت شباب الأمة يعاضدونني في طلب الاستقلال ، في طلب الحياة الحرة .

أنا أعترض على اخواني عندما يقولون أفعل كذا ، يريدون أن يستثيروا عزائمي ، ان عزائمي قوية بعزائم شبان بلادي ، بافـكار كل مفكر في بلادي ، لأن شخصي يمثل الامة ، وسيمثلها دائماً .

اكرر قولي واؤكد بأنه لا حياة لنا الا اذا نظمنا امورنا ، واعتمدنا على حكومتنا وعلى بعضنا وكل شخص منا له واجبه .

الدكتور شهبندر اظهر لي سماعته وقال انه من الشعب ، ويدخل

بيوت الشعب ، ويعرف افكار الشعب بحسب مهنته ، وعندي ان اول عمل يجب ان يعمل له الدكتور هو ترقية الفن المختص به فاذا عمل كل فرد منا بما يجب عليه السياسي والطبيب والجندي والصانع تنتظم حركة الامة بأجمعها . . .

أعود فاؤكد لكم يا اخواني بانني عامل على ما أنتم تطالبون به وهو الاستقلال التام ، الاستقلال الذي لا يجعل لأمة من الأمم حق السيطرة عليكم ، ولكنني في الوقت نفسه أقول ان بينكم وبين الأمم الغربية صلات تصلكم ، ولا تقدرون أن تستغنوا عنها ، لأن وسائط النقل الحديثة جعلت اوروبا في بطن سوريا واذا قلتم انكم تستغنون عنها عرفت انكم لا تريدون الحياة .

تقولون ان الأمم الكبيرة ستفعل بنا كذا وكذا ، أجل انها لا تستعبد أمة غير مستعدة للاستعباد ، لان الامم الناهضة لا تستعبد أبداً .

تكلم الدكتور شهبندر عن الامة المصرية فقال انها كانت مستعبدة ولكنها اليوم عاشت وقويت وقامت تناضل أكبر حكومة وتطلب حريتها فهذا من نتائج التربية السياسية ومتى عرفت الامة السورية وجائبها تستقل ولا تستعبد .

نحن في موقف حرج يجب ألا نحتقر فيه الامم لاننا باحتقارنا لاحدها نكون قد احتقرنا أنفسنا . أمامنا دول كبار وأمم عظام ، يجب علينا أن نحترم كل أمة وكل حكومة متى احترمت بلادنا واستقلالنا ومنافعنا .

لا نحب أن نعادي ، ولا أن نتجاوز على حقوق غيرنا ، كما اننا

لا نريد أن يتجاوز احد على حقوقنا . أطلب من كل الأمة والشبان أن يتكاتفوا ويؤيدوا حكومتي التي ستقودهم الى الخير ، وأن يفعلوا كالفاعور في سكوته ، وأن لا يكثروا من الاقوال ، ولا يعادوا أحداً ، لا بألسنتهم ، ولا بصحفهم ، ويعتمدوا على حكومتهم .

هذه وصيتي اليكم ، والحكومة تنتظر منكم أن تؤازروها ، وأنا سأعمل واجبي وأشكل حكومة أعتمد عليها ويجب على الأمة أن تعتمد عليها أيضاً ، وأرغب أن الاخوان جميعاً يعاضدون حكومتي التي أرجو أن أسمع من أخبارها في الغرب ما يسرني لأتمكن من المطالبة بالاستقلال حتى آخر نقطة من دمي .

لقد علمت أنه يوجد خلاف بين بعض الطبقات والافراد فلهذا أطلب ازالة هذه الاختلافات وأن تكونوا يداً واحدة .

نحن لا نريد أن يكون بيننا من يفرقنا لاننا سنعيش محترمين واذا اقتضى الحال فاننا نقول لذلك الشخص اخرج من بلادنا فلسنا اخوانك . اه

* * *

وزار رضا باشا الركابي الأمير فيصل في صباح ٢٣ كانون الثاني ١٩٢٠ عقب حفلة النادي العربي وشكا كثيراً من تردي الحالة في البلاد ، فطيب الأمير خاطره وأجابه بأن الوطن لا يستغني عن خدمات كبار رجالاته المحنكين أمثاله ، وأنه سيظهر اثر ذلك بعد بضعة أيام . وقد قدم الركابي لفيصل كتاباً مؤرخاً في ١٨ كانون الثاني شرح فيه أسباب استقالته وهذا نصه :

في صباح ١٠ كانون الاول ١٩١٩ استدعاني سمو أخيكم (زيد) الى

داره فتشرفت بحضوره ، فسألني عما جرى فتكلمت بما عرفته فأجاب بأن عادل أرسلان ونوري السعيد أخبراه بما جرى في الليلة الماضية ثم سأله ـ أي الأمير زيد ـ عن رأيه فأجابه بأن هؤلاء الاشخاص جماعة الفتاة والاستقلاليين ، لا صفة لهم ولا يمثلون إلا أنفسهم ، لا يهمهم الوطن ، ولا دفاعه ، ولا تهمهم سوى غايات مكنونة في صدورهم ، وربما تكون ضد الامارة مبدئياً وأرى شدة المسؤولية في هذا الباب . وعليه فاني لا أستطيع أن أتبع سياسة الاشخاص غير المسؤولة تحت أي اسم كان ، الداعية الى الفرقة وإماتة الحركة الوطنية في الوقت الذي نحتاج فيه لجمع القوة ، والكلمة ، كما اني لا أقدر أن أرى حكومة غير مسؤولة ، تسيطر على حكومة مسؤولة ، تمثيلاً للدور الاتحادي البائد ، وأعتقد أن الحكومة التي تسير على رغائب الاشخاص أو الاحزاب غير المسؤولة ، فمصيرها ومصير الوطن معها الى الخراب ، وعليه فاما أن يعتمد عليّ ويعاضدني ، لأتمكن من قمع هذه الفوضى قبل استفحالها أكثر مما هي عليه وإما أن يظهر ارتياحه لسياسة المذكورين فأنسحب . فأجابني بأن أكون مطمئناً على حفظ حقوقي فشكرته وانسحبت لداري . وبعد مضي ساعة من عودتي شرف سموه وبرفقته نوري السعيد رافضاً قبول انسحابي ، فأجبته لو لم أر تمايله لسياسة الاشخاص الملومة وارتياحه لانسحابي لما انسحبت ، والآن أقرر ما قلته أولاً فان رأى لزوماً لوجودي في الحكومة فليعتمد عليّ ويعاضدني وعندها أعود وإلا فلا عودة لي ، وفي النتيجة أمرني بأن أكون مأذوناً بينما تتشرف البلاد بعودة سموكم وأوكل عبد الحميد باشا (القلطقجي) فوكلته من قبلي ثم بعد يومين عين سموه مصطفى نعمة للوكالة حسب رغائب الاشخاص

المذكورة وبهذه الصورة تمت الرواية التمثيلية العائدة لشخص عبدكم ، وعلى ذلك قاموا وشكلوا الحكومة الحاضرة وسموها الحكومة الدفاعية ولست أعلم شكل الدفاع الذي أجروه والثمرات التي اقتطفوها .

سيدي المعظم :

انه كان من الواجب علي ان اتمم كل شيء واثبت في مكاني ، واقاوم كل مشاغبة وفوضى لحين تشريف سموكم ولكن خطة نوري السعيد وتمايل سمو اخيكم المعظم اليه والى سياسة الاشخاص المذكورة وارتياحه لانسحابي أملاً بما هو ارجح وأنجح ، وحراجة الموقف وعدم مساعدة الوقت اضطرني لأن انسحب لكي تتشكل بعدي حكومة تأتي بالخوارق لحفظ الوطن ، وتخط خطة أقوم وأعدل من خطتي المدونة في مطاوي عريضتي . واذا أراد أن يستوضح سيدي أكثر من ذلك فأني رهن الاشارة وأرجو الله أن يكلل بالتوفيق والنجاح أعماله ويسعد الأمة على يده ويؤيده بنصر من عنده انه سميع مجيب » .

١٨ كانون الثاني ١٩٢٠ الخادم

الركابي

ولما كانت الظروف توجب تشكيل حكومة قوية ومن رأي الامير ألا تكون حزبية ، الأمر الذي جعله يمد بخطابه في النادي العربي بتسليم الحكم لأياد قادرة قوة ، فقد أنهى بتاريخ ٢٦ كانون الثاني ١٩٢٠ حكومة الحاكم العسكري وأسس حكومة مجلس مديرين برئاسة أخيه الامير زيد الذي ابلى بلاء طيباً وأظهر رجولة نادرة في حرب التحرير العربي ، وكان لموقفه من السلطة العسكرية العثمانية أحسن

الأمر حينما كنت وشكري القوتلي وفارس الخوري وشكري باشا الأيوبي الخ . . . مسجونين بخان الباشا بدمشق إذ هدد باعدام خمسة ضباط من ضباط الفرقة التي شقتها وأسر معظم ضباطها في موقعة الطفيلة مقابل كل عربي يعدم انتقاماً . وبذلك كفل عدم اعدام المسجونين واطلاق سراحهم . ورمى فيصل من تعيين أخيه جعله رمزاً محترماً للحكومة فقط وعين أمين التميمي الاداري المحنك معاوناً له ، ورضا باشا الركابي مديراً للحربية ، واسكندر عمون مديراً للعدلية ، وساطع الحصري مديراً المعارف ، ورشيد طليع مديراً للداخلية ،.وأحمد حلمي مديراً للمالية ، ويوسف العظمة لرئاسة اركان الحرب العامة ، وعرض عليّ مديرية الصحة فرفضت إذ لم تكن تخفى عليّ مرامي هذا العرض .

وقد تولد عن مساعي مستشار الامير الخاص نسيب البكري ، مع تشكيل هذه الحكومة ، حزب جديد سمي الحزب الوطني السوري ضم الاعيان الارستقراطيين واصدقاءهم الذين يلتفون حولهم . وكانوا يتلهفون للعمل ليحافظوا على سلطتهم ويحوموا حول الامير ، وكان من التفافنا حوله وعدم تركي المجال للبكري للتأثير عليه وصلابة اخلاقه ، كل اولئك كان سبباً في تسديد الطريق امامهم . إلا ان الخلاف الذي ذر قرنه بين الفتاة والتشكيلات الوطنية الشعبية التي تعمل بوحيها ووحي الامير ، قد فسح لهم المجال للظهور ، وكان في تعيين عبد الرحمن اليوسف رئيساً لمجلس الشورى ووالي الشام علاء الدين الدروبي رئيساً لمستشاري الامارة عقب تشكيل الحكومة الجديدة اكبر ترضية لهم .

فقد اجتمع الارستقراطيون وشيعتهم في دار بديع المؤيد ، ووضعوا الأسس التي تأسس بموجبها الحزب ، وهي وان كانت لا تختلف عن

مبادئنا بالظاهر غير انها منظمة ومنمقة احسن تنميق ، كيف لا وقد أشرف على تسطيرها كاتب الشام محمد كرد علي الذي انضم الى هيئة الحزب الادارية بسبب عدم تعاون الفتاة معه لماشاته جمال باشا خوفاً من بطشه .. إلا ان الاشخاص القادرين فيه كانوا معروفين بماشاة كل سلطة قائمة للحفاظ على نفوذهم وتأمين منافعهم . لذلك لم نرتح لهذا الوضع الجديد ، وظهر ذلك جلياً في مشروع اللجنة الوطنية وحزب الاستقلال بمناوأة الحزب الجديد بشدة . وبحسب القارىء لأخذ فكرة عنه ذكر اسماء لجنته الاستشارية التي تسيره والرجوع لماضي اكثر اعضائها وعقليتهم ، فهم :

الشريف ناصر ، عبد الرحمن اليوسف ، فوزي البكري ، علاء الدين الدروبي ، راشد مردم ، علي العسلي ، عطاء الايوبي ، بديع المؤيد ، احمد الحسيبي ، انور البكري ، شريف الكيلاني ، الشيخ تاج الحسني ، نسيب حمزة ، زكي المهايني ، حسن السيوفي ، عمر العابد ، الشيخ عبد المحسن الاسطواني ، الدكتور شاكر القيم ، الشيخ عبد الجليل الدرا ، الشيخ عبد الحميد العطار ، الشيخ عبد القادر الخطيب ، الشيخ محمد المجتهد ، احمد ايبش ، محمد العجلاني ، مسلم الحصني .

واذا كان يوجد بين اعضاء الحزب عدد من كرام الوطنيين المخلصين ادخلوا فيه ونيتهم حسنة ، إلا ان غاية العاملين الحقيقيين فيه غير خفية .

وزعم الحزب انه يضم كافة طبقات الامة ويسعى افراده الى تأييد استقلال البلاد السورية التام بحدودها الطبيعية والدفاع عن استقلالها ، والى تأسيس حكومة ملكية نيابية يرأسها الملك فيصل . وأظهروا

تأييدهم التام له بغية التقرب منه ، فينالوا الحظوة لديه ، ولا يتعـذر عليهم التعاون مع الاجنبي الغاصب اذا حبطت سياسته . وأُخذ فيصل بهذا الحدث المبرقع ولم يضنّ عليهم بعطفه وظن بأن الحزب الجديد قد يكون عاملاً لتوازن القوى ولا نبقى وحدنا في ميدان العمل الوطني .

وفي ٢٨ كانون الثاني سافر الامير الى حلب بقطار خاص وبرفقته الشريف ناصر والشريف علي والشيخ فؤاد الخطيب ونوري السعيد ومحمد اسماعيل قائد فرقة حلب الجديد والكولونيل تولا . وهذه أول سفرة لم ارافقه فيها . وقصد من هذه السفرة الاتصال بالاهلين وبث روح الطمأنينة في نفوسهم والوقوف على حالة ثورة تركيا المجاورة لحلب . وقضى فيها يومين قابل خلالهما رجالات الشمال ومختلف الطبقات الشعبية ثم قفل راجعاً الى حماه فحمص ، فاجتمع برجالاتهما ووصل الى دمشق في أول شباط .

ولما كان تكلل جهود فيصل بالنجاح يستلزم أن تنهج السلطة الفرنسية في المنطقة الغربية ولبنان نهجاً حكيماً ليتمكن من التأثير على رجال الثورات التي كانت قائمة فيها ، فقد سافر الى بيروت في ٣ شباط ومعه اللواء نوري السعيد ، فاستقبله الافرنسيون استقبالاً حسناً .

ولما قابل الجنرال غورو أشار عليه باصدار عفو عام عن الثوار كمقدمة لانشاء حكومة وطنية في بيروت وتفاهم الجنرال مع الاهلين . فلم يقطع له غورو الوعد بما يجعله يعتقد بامكان نجاح سياسة التفاهم مع الفرنسيين ، سيما بعد أن سقطت وزارة كلنصو قبيل وصوله لبيروت ، وحلت محلها وزارة ميليران إذ كان كلنصو يميل الى عدم قطع الصلة مع الامير ، مراعياً اشتراكه في الحرب مع الحلفاء في وقت من أحرج

الاوقات التي مرت على فرنسا . وعاد الامير لدمشق في مساء ٦ منه ولم يعد ينادي بقرب عودته لباريس لمواصلة مذاكراته التي كان أجراها مع كلمنصو . ورغم موقف السلطة الفرنسية من الامير فقد تمكن من تهدئة الحالة في البلاد ، ورأى أن خير واسطة لاستمرار الهدوء هو اقناع هيئة جمعية الفتاة الادارية بوجهة نظره . فطلب إليَّ أن يجتمع بأعضائها عندنا وكانت مؤلفة بعد اعتقال ياسين الهاشمي في الرملة من عزة دروزة وشكري القوتلي ورفيق التميمي وأحمد مريود وسعيد حيدر وتوفيق الناطور والدكتور أحمد قدري . فسعى لتقبل الهيئة درس مشروع فيصل ـ كلمنصو فلم توافقه ، الأمر الذي جعله يقول : ان هذا هو غاية ما أمكن ويمكن الحصول عليه . ولا شك بأن بحث وضع سورية في مؤتمر السلم وعصبة الأمم يجعله في صالحنا أكثر مما هو ، وانني أعتقد بأن مسعاي في هذا السبيل في أوروبا قد تكلل بالنجاح ، فأسرع أعضاء الهيئة وأجابوا بأنه خير للبلاد أن ترد عدوان فرنسا حتى وانكلترا بالقوة بقدر المستطاع من أن تخضع لشروط الاتفاق الذي سيجعل سورية بحكم تونس ومراكش . وكان تنفيذ خطتنا بوجب على الامير تغيير الخطة التي كان يقول بها الكثيرون من الوجهاء ، حتى ان الدكتور شهبندر الذي كان من أقوى الشخصيات الوطنية المندفعة أصبح يفكر بأنه ربما كان لوجهة نظر فيصل ما يبررها . ويظهر أثر ذلك فيما كتبه في عدد تشرين الاول ١٩٣٣ من مجلة المقتطف وهو :

« ولكن دعاية شنيعة بثت على فيصل عند عودته من باريس ، فتراجع من غير انتظام لأنه كان حديث العهد بالشؤون السياسية والحملات المدبرة . ولو أنه وقف موقفاً ثابتاً ودافع عن آرائه بمثل الطريقة

المدبرة الحاذقة التي سلكها في العراق فيما بعد لوجد من المعتدلين أنصاراً يؤيدونه ويقفون في وجه مناوئيه » .

لم يسرع الامير في تنفيذ ما رجوناه لخطورته ، بل استدعى أعضاء الهيئة الادارية لجمعية الفتاة ، كل واحد على حدة ليتمكن من اقناعه بأن مقاومتنا فرنسة بالقوة متعذرة بالظروف الحاضرة ، ولا تنتهي الى نتيجة مرضية ، وكان يكلفه بأن يكتب رأيه وأسبابه الموجبة ليكون مستنداً أمام التاريخ . على أن الامير لم يتنكر للوطنيين ، واتفق مع الحكومة على تعزيز وسائل الدفاع وأذاع رئيسها بلاغاً شديداً هذا نصه : « ان الحكومة عازمة على وضع مادة استثنائية تقضي بطرد من يتهاون بأمر التجنيد من الموظفين مع حبسه سنة » لأن البلاد كانت تعبة من التجنيد طيلة الحرب العامة . ومر شهر شباط بدون فتن واضطرابات تذكر ، واستفاد الفرنسيون من ذلك لمقابلة ثورة كيليكيا والسعي لقمعها . ثم عادت الاضطرابات ، في كثير من مناطق الساحل سيما المجاورة لحدود حكومة الشام الوطنية ، ولقرب حدودها الشمالية بسبب فقدان الاستقرار ولعدم الاطمئنان على المستقبل .

وبعد أن يئس الوطنيون من الوصول الى تحقيق أهداف البلاد بواسطة مؤتمر السلم والمفاوضات مع بريطانيا وفرنسا ، وانسحاب أميركا وهي رافعة لواء حرية الشعوب من مسرح السياسة الاوروبية ، قرروا وضع مؤتمر السلم أمام الأمر الواقع ، وذلك باعلان استقلال سورية العربية والمحتلة ، والمناداة بفيصل ملكاً دستورياً عليها . لذلك كلف الامير بالعدول عن السفر الى اوروبا ، والاكتفاء بمساعي مندوبيه فيها ،

ودعوة المؤتمر السوري الذي علق جلساته على أثر جلاء الجيش البريطاني ليقول كلمته بتحقيق هذه المهمة الوطنية الكبرى .

وقد سهل قبول فيصل لهذه الفكرة تحبيذها من قبل الكولونيل تولا الفرنسي الذى كان قد عين ليكون بمعية جلالته أسوة بما كان عليه الكولونيل لورنس . والكولونيل تولا طيب القلب عاش كثيراً في الجزائر ، ويتكلم اللغة العربية . وقد أنزلوه ضيفاً على عبد الرحمن باشا اليوسف خلافاً لرأيي فسهلوا له الاتصال الدائم بالجبهة المعارضة . ولم يكن ذلك التحبيذ رأياً شخصياً لتولا ، بل كان ذلك بعد بحثه الموضوع مع ممثل فرنسا الرسمي الذي كان يسمى ضابط ارتباط . ولم يكتف الامير بذلك بل كلفهما باستشارة الجنرال غورو الذي لم يمانع في ذلك . وعزي عدم ممانعته الى ان فرنسا لا تود لسوريا وللأمير إلا كل خير ، أما السبب الحقيقي لذلك فهو ابعاد امكان تأييد انكلترا للأمير بحجة ان اعلان استقلال سوريا يضع حداً للتمسك بالاتفاقات السابقة . وقد استشار الامير رضا باشا الركابي المعروف باعتداله والذي كان ينوي فيصل أن يعينه رئيساً لوزارته بعد اعلان استقلال البلاد ، فرأى رضا باشا التريث لأنه بحسب ظروف عمله كحاكم عسكري كان كثير الاتصال بضباط القسم السياسي البريطاني ، ولم يكن هؤلاء من محبذي هذا العمل . إلا أن الركابي عندما علم بأن فرنسا لا تمانع في ذلك أيد الفكرة التي كان من نتائجها تسميته رئيساً لوزارة سورية المستقلة .

ولما كانت ايطاليا تتوق الى أن يكون مركزها بعد خروج الحلفاء منتصرين من الحرب الكبرى يشبه مركز انكلترا وفرنسا لتكفل لنفسها

من المنافع ما لا يقل عن حصة الأسد التي حصلت عليها هاتان الدولتان ، فانها أي ايطاليا كانت راغبة رغبة أكيدة في استقلال سوريا لتضمن لنفسها من المنافع أكثر ما يمكن والذي لم يكن بالامكان الحصول عليه لو دخلت سورية ضمن البلاد المحتلة من قبل القوات العسكرية الفرنسية . لذلك كان في سورية ممثل ذو مرتبة رفيعة يتظاهر بصداقة العرب ويؤيد السياسة العربية في سورية ، فشجع كثيراً على اتخاذ هذه الخطوة الجريئة .

أما الانكليز فلم يكونوا راضين عن هذا الاجراء ، وكان هذا ظاهراً في كل تصرفاتهم . إلا أن فوران الرأي العام في البلاد العربية ضدهم لم يترك مجالاً لبحث الداعي لاتباعهم تلك الخطة ، فتقرر في أواخر شباط أن يعدل الامير نهائياً عن السفر الى أوروبا ، وأن تتخذ الاجراءات المناداة باستقلال سورية ووحدتها وملكية فيصل عليها . فدعي المؤتمر السوري الى الاجتماع ليقول كلمته في ذلك ، فاجتمع بعد ظهر ٦ آذار ثم حضر الامير الى المؤتمر وتلا سكرتيره الخاص السيد عوني عبد الهادي خطاب الامير في حفلة الافتتاح وهذا نصه :

أيها السادة :

في الوقت الذي قرب فيه يوم حل المسألة التركية حلا نهائياً في مؤتمر الصلح رأيت أن أدعوكم مرة اخرى لتقرير مصير البلاد حسب رغائب الاهالي الذين رأوا فيكم الكفاءة للنيابة عنهم في مثل هـــذا الوقت العصيب .

فقد وعد مؤتمر السلم أن ينظر في رغبة الشعوب بل حتم على نفسه

بأن يقرر مستقبل كل أمة حسب ارادتها ورغائبها تحقيقاً للمبادىء السامية التي خاض الحلفاء لأجلها غمار الحرب الكبرى .

فالرئيس ولسن ذكر في خطابه في مؤتمر فرنون في ٤ تموز ٩١٨ المادة الآتية :

كل مسألة أرضية كانت أم سياسية أم اقتصادية أم دولية يجب أن تحسم على موجب الاساسات المستندة الى حرية قبول الشعب ذي العلاقة رأساً بتلك المسألة ، لا على القواعد النفعية المادية أو المصالح التي يتطلبها شعب أو أمة أخرى لأجل تأمين نفوذها الخارجي أو سيادتها . وقد ذكر جميع رؤساء الحكومات المتحالفة أقوالاً لا تقل في معاني استقلال الشعوب عن اقوال الرئيس ولسن في هذا الصدد ، وقد نشرت حليفتانا انكلترا وفرنسا منشوراً في ٨ تشرين الثاني الماضي أكدتا فيه استقلال بلاد العرب المنشود .

أيها السادة :

لما كانت هذه الحرب ، حرب حرية واستقلال ، حرباً جاهدت فيها الأمم ذبا عن كيانها السياسي دخل فيها صاحب الجلالة والدي المعظم في صفوف الحلفاء بعد أن استوثق من العرب في الجزيرة وفي سورية وفي العراق فقاتلوا قتالاً شهد لهم فيه أعاظم رجال اوروبا السياسيين والعسكريين وأثنوا على شجاعتهم وبسالتهم غاية الثناء ، ولا بد أن يحفظ التاريخ أعمالهم الجليلة في ابان الحروب التي استمات فيها الحجازي والسوري والعراقي واني واثق بان الامة العربية ستنال من المغنم ما ناله غيرها من حلفائنا الذين نالوا الظفر على الاعداء .

ان هـذا الظفر لم يكن عسكرياً فقط بل هو سياسي قبل كل شيء لأنه ظفر الحق على القوة ، والحرية على الاستبداد ، فقد انتشرت اليوم فكرة الاستقلال بين الشعوب وانتعشت في أفئدتهم فلن تزول بعد الآن .

استحق العرب حريتهم واستقلالهم بفضل الدم الطاهر الذي سفكوه وبفضل ما قاسوه من انواع العذاب والقهر . فالامة العربية لا تقبل اليوم أن تستعبد كما اني أعتقد انه ليس هنالك أمة تريد استعبادنا ، فرحلاتي الرسمية العديدة الى اوروبا ، والاحاديث والكتابات التي جرت بيني وبين ساستها لم تبق في نفسي مجالاً للشبهة والتردد في نوايا حكوماتها الحسنة .

أيها السادة :

اننا لا نطلب من اوروبا أن تمنحنا ما ليس لنا به حق ، بل نطلب منها أن تصدق على حقنا الصريح الذي اعترفت به لنا كأمة حية تريد حياة حرة واستقلالاً تاماً وتود أن تعيش مع سائر الأمم المتمدنة على غاية من الولاء والمحبة الخالصة ، فسياستنا في المستقبل ، ستكون سياسة صلح وسلم مبنية على الثقة المتبادلة والمنافع المتقابلة ، وبكلمة واحدة سياسة تتفق مع مصالح الامة ، ومنفعة السلم العامة ، فالعرب لا يستنكفون من تبادل المنافع بينهم وبين الأمم المتمدنة ، ولا يرفضون صداقة من يريد صداقتهم ، شريطة ألا يمس ذلك بكرامتهم ولا يخل باستقلالهم السياسي التام .

أيها السادة :

ان مهمتكم اليوم خطيرة ، ومهمتكم كبيرة ، فاوروبا تنظر الينا عن

كثب ، وستحكم انا أو علينا بالنسبة الى الخطة السياسية التي سنسير عليها ، والاعمال التي سنقوم بها في المستقبل .

فدولتنا الجديدة التي قام أساسها على وطنية أبنائها الكرام هي في حاجة اليوم الى تقرير شكلها أولاً ووضع دستور لها يعين لكل منا ، آمرنا ومأمورنا ، حقوقه ووظائفه في حياتنا المستقبلة التي أرجو أن يكون ملؤها الجد والعمل والاقدام .

وقبل أن أختم كلامي في هذه الجلسة الخالدة اريد أن أذكركم باخوانكم العراقيين الذين جاهدوا معكم وأبلوا بلاء حسناً في سبيل الوطن وبالواجب الذي يتحتم علينا في أمر التضامن والتعاضد ، لنعيش حياة سعيدة قوية .

وأقرؤكم السلام العربي الخالص ، متمنياً لكم التوفيق والنجاح في مساعيكم الوطنية والسلام عليكم .

* * *

وفي اليوم التالي عقد المؤتمر جلسته الثانية ووضع قرار اعلان استقلال سورية بحدودها الطبيعية ، وأن يكون فيصل ابن الحسين ملكاً عليها ، كما قرر أن يكون علمها العلم العربي المربع الألوان مضافاً اليه نجمة بيضاء في مثلثه الأحمر . وبقي العلم العربي الذي كانت « الفتاة » أوحت به علماً لمملكة الحجاز . وهذا نص القرار التاريخي المذكور :

ان المؤتمر السوري العام الذي يمثل الامة السورية العربية في مناطقها الثلاث الداخلية والساحلية والجنوبية (الفلسطينية) تمثيلاً تاماً

يضع في جلسته العامة المنعقدة يوم الاحد المصادف لتاريخ ١٧ جمادى الثانية سنة ١٣٣٨ وليل الاثنين التالي المصادف ٨ آذار ١٩٢٠ القرار التالي :

ان الامة العربية ذات المجد القديم ، والمدنية الزاهرة ، لم تقم جمعياتها وأحزابها السياسية في زمن الترك بمواصلة الجهاد السياسي ولم تُرِق دم شهدائها الاحرار ، ولم تثر على حكومة الاتراك إلا طلباً للاستقلال التام والحياة الحرة بصفتها أمة ذات وجود مستقل وقومية خاصة ، لها الحق في أن تحكم نفسها بنفسها أسوة بالشعوب الاخرى التي لا تزيد عنها مدنية ورقياً ، وقد اشتركت في الحرب العامة مع الحلفاء استناداً على ما جهروا به من الوعود الخاصة والعامة في مجالسهم الرسمية وعلى لسان ساستهم وحكوماتهم وما قطعوه من عهود خاصة مع جلالة الملك حسين بشأن استقلال البلاد العربية ، وما جهر به الدكتور ولسن من المبادىء السامية القائلة بحرية الشعوب الكبيرة والصغيرة واستقلالها على مبدأ المساواة بالحقوق وانكار سياسة الفتح والاستعمار ، والغاء المعاهدات السرية المجحفة بحقوق الأمم واعطاء الشعوب المحررة حق تعيين مصيرها التي وافق عليها الحلفاء رسمياً كما جاء في تصريحات المسيو بريان رئيس وزراء فرنسا بتاريخ ٣ تشرين الثاني ١٩١٥ أمام مجلس النواب ، واللورد غراي وزير خارجية بريطانيا العظمى أمام لجنة الشؤون الخارجية وتصريح الحلفاء في جوابهم على مذكرة الدول الوسطى التي رفعها المسيو بريان بواسطة السفير الاميركي في باريس وجواب الحلفاء على مذكرة الرئيس ولسن في ٣٠ كانون الثاني ١٩١٧ وتصريح المسيو ريبو رئيس وزراء فرنسا بتاريخ ٢٢ أيار ١٩١٧ أمام مجلس النواب وبيان مجلس النواب الافرنسي ليلة ٤ — ٥ حزيران ١٩١٧ وبيان مجلس

الشيوخ في ٦ منه وما جاء في خطاب المستر لويد جورج في غلاسكو بتاريخ ٢٩ حزيران ١٩١٧ .

وقد كان ما قام به جلالة الملك حسين المعظم من الاعمال العظيمة ، في جانب الحلفاء ، هو الباعث الاكبر لتحرير الأمة العربية وانقاذها من ربقـة الحكم التركي فخلد لجلالته في التاريخ العربي أجمل الآثار وأفضلها ، وقد أبلى أنجـاله الامراء الكرام مع الامة العربية في جانب الحلفاء البلاء الحسن مدة ثلاث سنوات حاربوا خلالها الحرب النظامية التي شهد لهم بها أقطاب السياسة وقواد الجند من الحلفاء أنفسهم وسائر العالم المتمدن وضحوا العدد الكبير من أبنائهم الذين التحقوا بالحركة العربية من أنحاء سوريا والحجاز والعراق فضلا عما قام به السوريون خاصة في بلادهم من الاعمال التي سهلت انتصار الحلفاء ، على ما أصابهم من الاضطهاد والتغريب والقتل والنفي والتعذيب ، تلك الاعمال التي كان لها الأثر الاكبر في انكسار الترك وجلائهم عن سوريا وانتصار قضية الحلفاء انتصاراً باهراً حقق آمال العرب بوجه عام والسوريين بوجه خاص ، فرفعوا الاعلام العربية وأسسوا الحكومات الوطنية في أنحاء البلاد قبل أن يدخل الحلفاء هذه الديار ، ولما قضت التدابير العسكرية بجعل البلاد السورية ثلاث مناطق اعلن الحلفاء رسمياً أن لا مطمع لهم في البلاد وانهم لم يقصدوا من مواصلتهم تلك الحروب في الشرق سوى تحرير الشعوب من سلطة الترك تحريراً نهائياً ، وأكدوا أن تقسيم المناطق لم يكن إلا تدبيراً عسكرياً موقتاً لا تأثير له في مصير البلاد واستقلالها ووحدتها ثم انهم قرروا بعد ذلك رسمياً الفقرة الاولى من المادة الثانية والعشرين من معاهدة الصلح مع ألمانيا فاعترفوا فيها باستقلالهـا تأييداً

لما وعدوا به من اعطاء الشعوب حق تقرير مصيرها ، وأرسلوا اللجنة الاميركية للوقوف على رغائب الشعب ، فتجلت لها هذه الرغبة في طلب الاستقلال التام والوحدة السورية التامة .

لقد مضى عام ونصف عام والبلاد لا تزال رازحة تحت الاحتلال والتقسيم والحكم العسكري الذي ألحق بها أضراراً عظيمة وأوقف سير أعمالها ومصالحها الاقتصادية ، والادارية ، وأوقع الريبة في نفوس أبنائها من أمر مصيرها ، فاندفع الشعب في أكثر أنحاء البلاد وقام بثورات أهلية منتقضاً على الحكم العسكري الغريب ومطالباً باستقلال بلاده ووحدتها .

فنحن أعضاء هذا المؤتمر ، بصفتنا الممثلين للأمة السورية ، في جميع أنحاء القطر السوري تمثيلاً صحيحاً نتكلم بلسانها ونجهر بارادتها رأينا وجوب الخروج من هذا الموقف الحرج واستناداً على حقنا الطبيعي الشرعي في الحياة الحرة وعلى دماء شهدائنا المراقة ، وجهادنا المديد ، في هذا السبيل المقدس ، وعلى العهود والوعود والمبادىء السامية السالفة الذكر ، وعلى ما شاهدناه كل يوم من عزم الأمة الثابت الأكيد على المطالبة بحقها ووحدتها ، والوصول الى ذلك بكل الوسائل ، فأعلنا باجماع الرأي استقلال بلادنا السورية بحدودها الطبيعية ومنها فلسطين استقلالاً تاماً لا شائبة فيه على الاساس النيابي ، على أن تراعى أماني اللبنانيين الوطنية في كيفية ادارة مقاطعتهم لبنان ضمن حدوده المعروفة قبل الحرب بشرط أن يكون بمعزل عن كل تأثير أجنبي ، ورفض مزاعم الصهيونية في جعل فلسطين وطن هجرة لهم ، وقد اخترنا سمو الأمير فيصل ابن جلالة الملك حسين الذي واصل جهاده في سبيل تحرير البلاد ، وجعل الأمة ترى فيه رجلها العظيم ملكاً دستورياً على سورية بلقب

صاحب الجلالة الملك فيصل الاول ، وأعلنا انتهاء الحكومات الاحتلالية العسكرية الحاضرة في المناطق الثلاث ، على أن يقوم مقامها حكومة ملكية نيابية مسؤولة تجاه هذا المجلس في كل ما يتعلق بأساس استقلال البلاد التام الى أن تتمكن الحكومة من جمع مجلسها النيابي على أن تدار هذه البلاد على طريقة اللامركزية .

ولما كانت الثورة العربية قد قامت لتحرير الشعب العربي من حكم الترك ، وكانت الأسباب المستند اليها استقلال القطر السوري هي ذات الاسباب المستند إليها في اعلان استقلال القطر العراقي ، وبما ان بين القطرين صلات وروابط تاريخية ولغوية واقتصادية وجنسية وكل واحد من القطرين لا يستغني عن الآخر ، فنحن نطلب استقلال القطر العراقي ، استقلالاً تاماً على أن يكون بين القطرين اتحاد سياسي اقتصادي .

هذا واننا باسم الأمة السورية التي أنابتنا عنها ، نحتفظ بصداقة الحلفاء الكرام محترمين مصالحهم ومصالح جميع الدول كل الاحترام ، وان لنا الثقة التامة بأن يتلقى الحلفاء الكرام وسائر الدول المحترمة عملنا هذا المستند الى الحق الشرعي والطبيعي في الحياة بما نتحققه فيهم من نبالة القصد وشرف الغاية ، فيعترفوا بهذا الاستقلال ويجلوا جنودهم عن المنطقتين الغربية والجنوبية ، فيقوم الجند الوطني ، والادارة الوطنية بحفظ النظام والادارة فيها مع المحافظة على الصداقة المتبادلة حتى تتمكن الأمة السورية العربية من الوصول الى غاية الرقي وتكون عضواً عاملاً في العالم المتمدن .

وعلى الحكومات السورية التي تتألف استناداً على هذا الاساس تنفيذ هذا القرار .

وفي الساعة الواحدة والنصف من بعد ظهر يوم ٨ آذار زار الأمير وفدٌ انتخبه المؤتمر وأبلغه القرار الذي ذكرناه آنفاً . فشكر لزائريه وللمؤتمر ثقتهم به . وقـد اجتمع اعضاء المؤتمر واعضاء بلدية دمشق ووجهاؤها في الساعة الثانية والنصف في دار البلدية لمبايعة الأمير .

وفي الساعة الثالثة وصل الامير فاستقبله الحاضرون بالحفاوة والترحيب . فجلس على مقعد خاص اُعدّ خصيصاً لهذا الاحتفال ، وكان على يمينه أخوه الامير زيد ورجال معيته . وعلى يساره هيئة الحكومة وكبار ضباط الجيش . وحضر هذه الحفلة مندوبو فرنسا وايطاليا وبقية الدول . وقد لوحظ عدم اشتراك أي ممثل بريطاني بهذا الاحتفال . وقد نهض رئيس المؤتمر السوري هاشم الاتاسي وقدّم سكرتير المؤتمر عزة دروزه ليتلو قراره الذي ذكرناه آنفاً فتلاه من على شرفة البلدية ثم تقـدم رئيس البلدية غالب الزالق وهو يحمل بيده علم سورية الجديد ونشره فهتف الحاضرون واستلمه منه مرافق الامير فخري البارودي ورفعه على السارية ، وقد بلغ هتاف الجماهير الغفيرة التي كانت تملأ ساحة الشهداء (المرجة) عنان السماء ورفعت في الساحة لوحة كبيرة مكتوب عليها « ليحيا جلالة الملك فيصل » وأطلقت المدافع مئة طلقة وطلقة .

وبعد أن تمت هذه المراسم نهض الملك وقال :

« أشكر للأمة نياتها الحسنة نحوي ، وعلى ما أبدته من حسن الاعتماد ، واشهد الله أني ما قمت إلا بما يجب عليّ ، وأتمنى أن أوفق لأقوم بكل ما يكفل استقلال البلاد وحريتها ، ولأعتني بشؤون الشعب السوري ورقيه ، وأشهدكم على قولي هذا والله خير الشاهدين » .

وبعد ذلك بدأت البيعة من قبل الامير زيد وتلاه بطريرك الروم ورجال الدين والحكومة وأعضاء المؤتمر ووجهاء البلاد .

ويلاحظ عدم اشتراك ممثل بريطانيا في هذا الاحتفال رغم أنه يتبادر الى الذهن بأن بريطانيا سيما الجنرال آللنبي الذي كان لغاية ذلك التاريخ قائداً لجيوش الحلفاء في الشرق الادنى سيكون أول المتظاهرين بتهنئة الامير وبتأييده بما يكون فيه صالح البلاد التي عهد اليه تحمل المسؤولية فيها . لكن وجهة نظر انكلترا التي لم ينتبه لها أحد في سورية في غمرة اعطاء مثل هذا القرار الذي كان يترقبه جميع الاهلين بفارغ الصبر ، ان وجهة نظر انكلترا هذه هي أن اعلان الاستقلال هذا يخرج الامير من كونه قائداً من قواد الحلفاء يحتل جزءاً كبيراً من بلاد كانت تابعة لتركيا التي لم يكن قد عقد الصلح معها وحارب مع الحلفاء في أحلك ظروف الحرب العظمى . وهذا الاعلان يجعله ملكاً على سورية بدون موافقة رسمية من أي دولة من دول الحلفاء وبدون أخذ رأي مؤتمر الصلح في ذلك . وهذا الوضع الجديد يسهل لفرنسا انتحال الحجج ليصبح لها حرية الاعمال العسكرية في المملكة الناشئة . لذلك رأينا فرنسا تشجع الامير على ما تم بدون أن توافق رسمياً على ذلك . ومن المؤلم أن تثبت الحوادث ما كانت ترمي اليه فرنسا .

وبعد أن تمت البيعة كلف الملك فيصل رضا الركابي بتشكيل الوزارة تنفيذاً لوعده . وفي اليوم الثاني أي في ٩ آذار رفع رضا الركابي للملك قائمة بأعضاء وزارته وهي تتألف من شيوخ معتدلين هم :

رضا الصلح (من صيدا) وزيراً للداخلية .

علاء الدين الدروبي	رئيساً لمجلس الشورى
أمير اللواء عبد الحميد القلطقجي	حاكم حلب العسكري ووكيلا لوزير الحربية
فارس الخوري	وكيلاً لوزير المالية
ساطع الحصري	وزيراً للمعارف
السيد جلال الدين	وكيلا لوزير العدلية (اللاذقية)
يوسف الحكيم	وكيلاً لوزير التجارة والزراعة
سعيد الحسيني	وزيراً للخارجية (من فلسطين) .

فوافق الملك على تشكيل الوزارة الجديدة وجاء في كتاب الموافقة بعد سرد أسماء الوزراء : « نأمل أن تصرفوا الجهد في المحافظة على الحقوق وتوطيد الأمن والراحة في البلاد وتوثيق عرى العلائق الودية بين حكومتنا والحكومات المتحابة وأخصها حكومات الحلفاء توصلاً لتحقيق أماني الشعب السوري وآماله في وحدته ، وأن تبذلوا غاية الوسع في بث روح الوئام بين جميع طبقات الأمة السورية على اختلاف مذاهبها ونزعاتها . واننا نسأل الله أن يقرن أعمالكم بتوفيقه ويتولاكم بعنايته » .

وانصرفت الوزارة الجديدة الى تدبير شؤون الدولة على الأسس التي يتطلبها العهد الجديد . وسمي رئيس بلدية حلب احسان الجابري الذي كان موظفاً في البلاط العثماني في استانبول رئيساً لأمناء الملك . فعمل على تطبيق النظم المعتادة في السرايات الملكية على الملك فيصل ، ووضعت العراقيل في حرية مقابلته بعد أن كان يتصل بمختلف طبقات الشعب ، تنفيذاً للقاعدة الدستورية التي تجعل السلطة الفعلية في يد الحكومة ، فأحدث ذلك كثيراً من القيل والقال .

وبعد مرور اسبوعين على تشكيل الوزارة تقدم الركابي من المؤتمر السوري ببيان الوزارة وتلاه علاء الدين الدروبي بالنيابة عنه :

أيها السادة المحترمون :

هيئة الوزارة سعيدة جداً بكونها أول وزارة وطنية دستورية في تاريخ سورية ظهرت أمام أول مجلس ممثل للأمة تقرأ بيانهـا وتبسط خطتها فهي لذلك تفخر بتحية هذا المجلس الوطني الجليل الذي سيكون له الذكر الخالد في الأمة جيلاً بعد جيل لأنه كان المعرب الصادق عن رغائبها والمؤيد لحقوقها والمؤسس لحكومتها الجديدة في تاريخها المجيد .

تعلمون أيها السادة أنه عندما نشبت الحرب العامة واقتحمتها دول الارض الواحدة تلو الأخرى قامت الأمة العربية بزعامة رئيسها وأميرها جلالة الملك حسين المعظم وانضمت الى جانب الحلفاء تقاتل معهم جنباً الى جنب وترخص الضحايا الغالية في الدفاع عن القضية المشتركة أملاً بنيل استقلالها والتخلص من الاستعباد الذي أناخ عليها مدة طويلة ، ضاعت فيه مدنيتها القديمة وتقوضت دعائم عزها الاثيل ، وكان قيامها وانضمامها للحلفاء في أيامهم الحرجة عندما كانت كفة انتصارهم غير راجحة ضربة شديدة على الآمال الواسعة التي توقعتها ألمانيا والمتفقون معها من التحاق الدولة العثمانية بهم وذلك لما للأمة العربية من المقام التاريخي والاجتماعي ، وجنى الحلفاء من جراء ذلك فوائد عظيمة اشتد بها أزرهم وفتّ في سواعد خصومهم وانتهت الحرب باندحار الألمان والمتفقين معهم وانتصار مبادىء الحق على القوة وتحررت الأمة العربية بفضل ما قام به جلالة الملك حسين المعظم وأنجاله البواسل من الأعمال العظيمة التي

قلدوا بها أعناق أمتهم اطواقاً من الشكر والفخر ، فهو إذن المؤسس الاول لتاريخ العرب الجديد الذي فتحت به هذه الأمة عصرها الذهبي الثاني فنحن نرفع لسدته الملوكانية فروض التبجيل والشكران ونسجل لجلالته في تاريخنا فصول الاجلال والامتنان .

كما أن نجله النابغ صاحب الجلالة الملك فيصل ملك سورية المعظم الذي اقام الدعوى السورية وأخذ على نفسه الدفاع عنها الى الدرجة الأخيرة ، وواصل الجهاد في تحرير هذا القطر ، هو المؤسس الأول المملكة السورية ، وصاحب الفضل الاكبر في استخلاصها وانشائها على قواعد الحرية والتجدد ، فاجتمعت عليه قلوب أبنائها ، وانعقدت آمالهم واتفقت كلمتهم على أنه ملك هـذا القطر الذي لا يدافع ، وسيده الذي لا ينازع ، فنرفع لسدته الملوكية عهود الطاعة ، ونهنىء عرش سورية بالوطني الباسل والملك العادل . ولا ننسى أن نذكر بلسان الشكر والتبجيل دول الحلفاء العظيمة التي ثبتت أقدامها الراسخة في مآزق الروع فأيدت مبادىء الحق ودكت صروح الباطل ونادت بعهد جديد وعصر مجيد ، هو عهد حرمة الحقوق وحرية الشعوب وانكار سياسة الفتح والاستعمار ، وإبطال المعاهدات السرية المجحفة بحقوق الأمم واعطاء الشعوب المحررة حق تقرير مصيرها ، وقد نلنا بفضل معونتهم ما لا تنساه هذه الأمة .

على هذه المبادىء النبيلة والأساسات الراسخة انتخبت الأمة السورية أعضاء مجلسكم الموقر لأجل تعيين مصيرها على شكل يوافق امانيها ويؤيد حقوقها التي منحتها إياها الطبيعة ودعمتها مفاداتها وضحاياها الجسيمة في

الحرب العامة وأقرّ بها الحلفاء في وعودهم وعهودهم واعترفوا باشتراكهم معها بالفخر في هذا النصر ، فاتفقت كلمتكم على اعلان استقلال سورية بحدودها المعروفة ضمن المناطق الثلاث التي قضى الاحتلال العسكري الموقت بقسمتها إليها وعلى المناداة برجل الأمة ومحررها فيصل بن الحسين ملكاً عليها ، وعلى انشاء حكومة دستورية مسؤولة أمام مجلس الامة ونشرتم بذلك قراركم التاريخي الناطق بالحزم والحق في الثامن عشر من شهر جمادى الآخرة والثامن من شهر آذار الحاضر ، فكان ذلك مبدأ لحياتنا الجديدة الحرة وقد قابلت الأمة بأجمعها عملكم المجيد بالاستحسان والابتهاج وأقامت المهرجانات والأفراح في جميع أنحاء البلاد فجاء عملها هذا دليلاً آخر يثبت بالفعل اجماع الشعب على تأييده هذه الغاية وتفانيه في سبيل تحقيق أمانيه القومية الشريفة ، فنحن نظري عملكم هذا ونقدم لكم شكراً وثناء يسجل لكم في تاريخ الأمة .

واستناداً على هذا القرار الذي خرجت به رغائب الامة من القول الى الفعل وظهر فيه الحزم وصدق العزيمة ، عهد إلينا جلالة مولانا الملك المعظم بادارة المملكة على المبادىء المدنية الدستورية التي اختارها مجلسكم الموقر فباشرنا العمل وتسلمنا ازمة الامور مستعينين بالله ومعتمدين على مؤازرة الامة ، وموطنين النفس على ان نبذل اقصى الجهد في سبيل المحافظة على الاستقلال التام ضمن الوحدة السورية لتتمكن امتنا من الوصول الى المقام الذي يليق بها بين الأمم الراقية من المدنية والعمران على نسبة نجابة ابنائها وتاريخها المجيد .

ولنا وطيد الأمل بحسن نيات الحلفاء العظام ان يقابلوا حياتنا

الجديدة بالسرور والارتياح ويعاضدونا في إزالة جميع العراقيل التي تحول دون رقينا ونجاحنا خصوصاً الدولتين العظيمتين بريطانيا وفرنسا اللتين عرفتا بمحبتهما للعرب ، وشملتهم معونتهما الثمينة في حرب حريتهم ، وكانتا اول من وافق على القواعد الصحيحة والغايات النبيلة التي على موجبها جاءت الامة الاميركية الشريفة لنجدتهم من عبر الاطلانتيك ، ولدينا من وعدهما ما يضمن لنا استمرار ولائهما وبقاء محبتهما المفيدة لنا في ايام السلم كما كانت في ايام الحرب ، فلا يكون منهما اليوم إلا ما يأتلف مع مبادئهما الشريفة ، ويسهل لنا طريق الفلاح والعمران .

وفوق ذلك فهما تعلمان علم اليقين اننا لا نرغب إلا الحياة المطمئنة الهادئة في ظل سلم عام ولا يمكن ان يستقر ذلك في سورية مع تجزئتها وحرمانها من الحكم الذاتي ، وتثقان اننا نصون مصالح جميع الامم في بلادنا وخصوصاً مصالح هاتين الحليفتين العظيمتين بحيث نفيد ونستفيد ، وعملنا هذا منطبق على الغاية الشريفة التي خاضوا وخضنا معهم لاجلها غمار هذه الحرب الضروس وشهد لنا بالفضل فيها اعظم رجالهم مرات عديدة وهو مؤيد ومحقق لوعودهم بحق هذه الأمة .

فسياستنا الخارجية اذن هي سياسة السلم والولاء مع جميع الدول وخصوصاً مع دول الحلفاء الذين آزرونا وسيؤازروننا في السلم ايضاً وصيانة حقوق رعاياهم والاستفادة مما نحتاج إليه من مدنيتهم مما يساعد على رقينا ولا يمس استقلالنا .

اما ادارتنا الداخلية فتبقى على الاسس الحاضرة الى ان يصدر القانون الاساسي الذي يضمن لسكان كل مقاطعة من ابناء الوطن حسن

السعي في سبيل عمران بلادهم وتنمية ثروتهم وترقية حالهم وسنبذل الجهد في توطيد الأمن العام واقامة قسطاس العدل بين الناس على شكل يوصل أصحاب الحقوق الى حقوقهم بالسرعة المرغوبة وتقوية الجيش لأجل حفظ الأمن والنظام والدفاع عن الاستقلال التام . ونحن نرى بملء السرور ان هذه الخطة منطبقة على رغائب الأمة التي تلبي دعوة الجندية بالحمية والرغبة للقيام بخدمة الوطن المقدس ، وسنعنى بصورة مخصوصة بنشر المعارف وجعل المدارس في حالة يمكنها أن تخرج للبلاد رجالاً مشبعين بحب الوطن وسلامة الفكر وقوة البنية ومتانة الاخلاق وسنهتم باغناء خزائن علومنا بترجمة كتب العلوم والفنون الحديثة والاستفادة من المعارف الغربية وسنسعى لتحسين حالة البلاد الاقتصادية وانماء زراعتها وتجارتها وصناعتها والاستفادة من خزائنها الارضية ليكثر الانتاج وتزداد الثروة العامة فتخف عنا بذلك وبمراعاة قاعدة الاقتصاد وطأة الغلاء الثقيلة التي شملت العالم وأصبحت شغل كبارهم وساستهم الشاغل . ولما كانت هذه الأعمال لا تقوم إلا بالمال والحكومة لا يمكنها ايفاء هذه الوظائف بدون أن يكون لديها المقدار الكافي منه وكانت الواردات الحاضرة لا تقابل النفقات المبرمة التي يقتضيها تطورنا الجديد وانفاذ خطتنا المذكورة فانا سنسعى لايجاد التوازن بين الواردات والنفقات ، وسنفرغ قصارى الجهد في سبيل انفاق أموال الخزينة في وجوهها النافعة بحيث لا يصرف مال جزافاً وبدون عمل يقابله . ونحتاج في ذلك الى حمية الأمة واسراعها في تأدية التكاليف والى سخاء نحن إليه الآن أحوج منا الى أي شيء كان .

وسيكون عملنا الآن بالقوانين والانظمة المدنية العثمانية وما جرى

تعديله أو رفعه ،نها بعد عهدهم الى أن يتيسر لنا تبديلها وتعديلها بصورة تدريجية على شكل يوافق حالة البلاد وأخلاقها ورقيها ويلائم المدنية الحاضرة ويصون حقوق الافراد والجماعات ويساعد على رقينا الحقيقي .

والحكومة ترجو من المجلس الموقر أن يسرع في وضع القانون الاساسي وقانون انتخاب نواب الأمة لتباشر اجراء الانتخاب وجمع المجلس التشريعي بأقرب ما يمكن . وفي الختام نأمل من الأمة وممثليها الكرام أن يعاضدونا في مهمتنا الوطنية ونحييكم باحترام » .

وتكلم بعض النواب على الأثر مؤيدين الوزارة فوافق المجلس على الثقة بها بالاجماع .

ويلاحظ من تشكيل هذه الوزارة أن الملك قد أيد فكرة رئيس وزارته باتباع سياسة الاعتدال ومماشاة فرنسا وبريطانيا للوصول الى الغايات التي تهدف إليها البلاد . ولم يعد فيصل المسؤول الاول عن سياستها بل أصبح ذلك منوطاً بوزارة مسؤولة أمام المؤتمر الوطني السوري الذي يمثل الأمة . وخرجت سورية نظرياً عن سلطة الاحتلال رغم أن الساحل السوري ولبنان تحتله القوات الفرنسية وتحتل سورية الجنوبية (فلسطين) القوى البريطانية .

واجتهدت وزارة الشيوخ المعتدلين هذه في مسالمة فرنسا وانكلترا وحرصت على إحلال الهدوء في البلاد ، متوخية من وراء ذلك عدم مقاومة السلطات المحتلة لجزئي سورية اللذين أدخلهما المؤتمر في الحكومة السورية الناشئة . فأبرقت الى لندن وباريس راجية الاعتراف بما تم ، وأعقبت بارسال مذكرة ايضاحية في ١٢ منه الى كل من دول الحلفاء

تبلغها فيها قرار المؤتمر السوري واعلان الاستقلال مؤكدة عزمها على انشاء صلات ودية تضمن المصالح المتبادلة بيننا وبين الحلفاء سيما مع بلادهم الكريمة التي كانت عوناً ثميناً في تحقيق أمانينا الوطنية .

وسلك الملك فيصل مسلك حكومته فأرسل رسالة خاصة الى الرئيس ولسن ذكر في مقدمتها كفاح العرب المرير أثناء الحرب لنصرة الحلفاء ، ومبادئه المتضمنة حق الشعوب في تقرير مصيرها وتمتعها باستقلالها ثم قال فيهـا :

انقسمت سورية عقب الهدنة الى اربع مناطق ادارية وذلك وفقاً لمعاهدة سرية لا نعلم من حقيقتها شيئاً ، فحنق الشعب عندما رأى ما آلت اليه حالة بلاده ، ولم يسكن جأشه إلا بعد التأكيدات العديدة بأن هذه التقسيمات وقتية لا بد أن تضمحل مع الحكم العسكري ، ولم يطل هذا الأمر حتى ذاع خبر عقد اتفاق بين بريطانيا وفرنسا يؤول الى فرط عقد البلاد وتقسيمها ، فكان لهـذا النبأ وقع سيء في النفوس ، حتى ان الشعب عيل صبراً ورجع بعضه الى امتشاق الحسام للذود عن وحدة سورية التي أصبح أمرها مبهماً ، وبما ان القسم الشمالي من سوريه ، يتاخم بلاداً لا تزال تتأجج فيهـا نيران الثورات ، اوجسنا خيفة من أن يتسرب ذلك الاضطراب الى سورية بأجمعها .

ولم نر دواء لتلافي الامر ، أنجع من جمع المؤتمر السوري المنتخب من الشعب واعلان استقلال سورية والمناداة بي ملكاً عليها ، مما أدى الى ارجاع الامن الى نصابه في البلاد ، وكل هذا يتفق مع وعود الحلفاء وتصريحاتهم ، وبما اننا لا نطلب إلا حقاً منحتنا إياه الطبيعة ، وزكته

دماؤنا في الحروب أبده تاريخنا ، فاننا نتوقع ان يقابل الحلفاء حكومتنا الجديدة بارتياح .

ان تقسيم سورية الحاضرة هو حجر عثرة في سبيل رقيها الاقتصادي والسياسي ، ولا يمكن ان يخيم السلام فوق ربوعها إلا بعد ان تؤمن وحدتها ويضمن استقلالها » .

وبينا كانت هذه المساعي قائمة في سورية والمخابرات جارية ، أعلن رئيس الوزارة البريطانية لويد جورج في ١٨ آذار في مجلس العموم ان الحكومة البريطانية والحكومة الفرنسية ابلغتا فيصل بأنهما لا تعترفان بما تم في دمشق ، وأنه دعا فيصل للحضور الى اوروبا لحل هذه القضية في مؤتمر الصلح .

وكان اللورد كيرزن وزير الخارجية البريطانية قد أرسل برقية لفيصل جواباً على برقية الحكومة السورية لانكلترا عما تم فيها تنفيذاً لقرار المؤتمر السوري « مؤكداً عدم اعتراف حكومته بما جاء في قرار المؤتمر ، وخاصة عن فلسطين والعراق ، وان مصلحة الملك في الاسراع بالقدوم لأوروبا لعرض قضيته على مؤتمر » .

وكان مقرراً ان يجتمع مجلس الحلفاء الأعلى في اواسط نيسان للبت في قضية الانتدابات فرد عليه فيصل بهذه البرقية :

« ان المؤتمر السوري الذي اجتمع في السابع من هذا الشهر ، في دمشق ، هو نفس المؤتمر الذي عقد فيها اجتماعات عديدة على مرأى ومسمع من السلطة البريطانية التي كانت في يدها قيادة سورية في ذلك الحين .

لقد اجتمع هذا المؤتمر لابداء آرائه للجنة الاميركية التي جاءت

لاخذ آراء الاهالي ، وفقاً لقرار مؤتمر الصلح ، وطال اجتماعه بعد ذلك ثلاثة أشهر ، وفي نهاية السنة الماضية عقد اجتماعاً آخر ، وبحث في مسائل داخلية متنوعة ، ولم تقابل اجتماعاته الاخيرة بأدنى احتجاج من السلطات البريطانية أو الفرنسية ، وهو مؤلف من هيئة نظامية أعضاؤها مندوبون منتخبون انتخاباً قانونياً ، فعقد اجتماعه الأخير ، الذي اعلن فيه استقلال البلاد والمناداة بي ملكاً عليها ، لا يمكن أن يعتبر انه تصرف خلافاً لآراء الحكومتين الانكليزية والافرنسية ، مادام بيانه مؤسساً على ما لهاتين الحكومتين وسواهما من الحلفاء من التصريحات والوعود ، يضاف الى ذلك ان المؤتمر وضع أمامه ، بالوسيلة التي اتخذها تسكين الشعب والمحافظة على الأمن من الافكار المريبة التي بدأت بالانتشار في الشرق ، وأعلن بأوضح اسلوب اخلاصه لدول الحلفاء ، وعلى الأخص للحكومتين (انكلترا وفرنسا) ، فالشعب وأنا في أوله ، أظهر لبلادكم تعلقه المخلص يوم كان للعرب مجال ، وحارب في صفوفكم ، وكان له السرور أنه ساهم في الظفر الذي تمّ في الشرق ، ولا يمكن أن يتصرف اليوم خلافاً لمصالح بريطانيا العظمى وحلفائها ، بل بالعكس من ذلك يدافع دفاع المتحمس ، عن هذه المصالح ، ويكون مستعداً على الدوام لوضع كل موارده في خدمة الحلفاء ، وقد أظهرت الحرب الاخيرة برهاناً ساطعاً على حسن نياتنا ، ولكن يجب ألا يغرب عن البال ، انه اثر الوعود التي قطعت لنا أخذت على عاتقي ادخال الشعب العربي في الحرب العالمية ، وتعرضت لمسؤولية عظمى تجاه الشعب ، فهذا الشعب يطلب مني الآن انجاز الوعود التي وعدته بها ، مما يضطرني أن أرجوكم ايجاد حالة تمكنني من انجاز الوعد .

ان لي مزيد الأمل في هذه الظروف ، انكم تبلغوني جواباً على هذه البرقية الاعتراف مبدئياً ، باستقلال سورية التام ووحدتها ، الأمر الذي يسمح لي بالذهاب الى اوروبا ، لاقدم الشكر لحكومة جلالة ملك بريطانيا على ذلك ، ولتنوير المجلس الأعلى عن موقف سورية الحقيقي » .

وبعد أن وصلت الامور الى هـذا الحد أرسل الملك الى لندن وباريس نوري السعيـد الذي امتاز بكونه قائداً اشترك في الحرب مع الحلفاء ، وله لباقة سياسية ، بعد أن زوّده بكتابين أحدهما للورد كيرزن والثاني لميلران ، مبرراً بهما الخطة التي سلكها في سورية ، ساعياً الى إقناعهما بأنه وحكومته لا يرغبان إلا باستمرار الصداقة التي كانت شعاره مع الحلفاء إبان الحرب .

أما رد فرنسا فكان البلاغ الذي أذاعه قلم المطبوعات الفرنسي في بيروت وقد جاء فيه : « تواترت الاشاعات بأن اجتماع المؤتمر السوري والتصريحات التي صارت المجاهرة بها كانت نتيجة اتفاق بين الحكومتين الفرنسية والعربية . ومن البديهي أن هذه الاشاعات ساقطة من نفسها ولا نصيب لها من الصحة لأن مثل هذه القرارات هي من شأن مؤتمر السلام ، والحكومة الفرنسية أبعد من أن يكون لها علاقة بما تم » .

فأرسل سكرتير الامير للجنرال غورو برقية شرح فيها بأن ما تم لا يتنافى والصداقة المتبادلة بين البلدين وان سورية تعتمد على الصداقة الافرنسية ورجاه تبليغ ذلك لحكومته .

وبعد أن بت بأمر الانتداب على سورية والعراق في ٢٦ نيسان بمؤتمر سان ريمو أرسل رئيس الوزارة الفرنسية المسيو ميلران الى الملك فيصل في ١٣ ايار ١٩٢٠ البلاغ الآتي :

« ان الحكومة الفرنسية مشيرة من جهة الى بلاغاتها السابقة ومن جهة أخرى الى المبادىء العمومية لتحرير الشعوب والمعاونة الودية التي أعلنها مؤتمر الصلح تؤكد اعترافها بأن للأهالي الناطقين بالعربية من جميع المذاهب والساكنين في القطر السوري الحق في أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم بصفتهم شعوباً مستقلة ، وترى من واجباتها أن تقبل المهمة التي عهد بها إليها مؤتمر الصلح لاعطاء هؤلاء الاهالي مشورتها ومساعدتها لتحقيق أمانيهم المشروعة وجعلهم ينتظمون أمماً . وهـذه المساعدة لابد منها بعد استعباد طويل والخروج من حرب تركت البلاد خراباً وستضمن استقلالهم من كل اعتداء ضمن الحدود التي يعينها مؤتمر الصلح ناظرة نظر الاعتبار الى الادارات الذاتية اللازمة » .

ورد فيصل على برقية ميلران ببرقية أبان فيها استياء السوريين من تقسيمهم الى شعوب عديدة ، إذ انهم شعب واحد وينزع نزعاً واحداً ورجا الاعتراف بذلك وباستقلالهم .

وقبل وصول تبليغ ميلران بثلاثة أيام أرسل قائد جيوش الحلفاء اللورد آللنبي للملك برقية من مصر هذا نصها :

يا صاحب السمو :

أمرتني حكومة جلالته أن أقدم لـكم الرسالة الآتية :

بنتيجة المقررات التي اتخذها الحلفاء أخيراً في سان ريمو ، قد تم الاعتراف بسورية والعراق دولتين مستقلتين ، على شرط أن تتناولها مساعدة دولة منتدبة الى أن يحين الزمن الذي تستطيعان فيه الوقوف وحدها .

وبناء على هذه المقررات ، قد أودعت مهمة الانتداب لسورية الى

فرنسا ، كما ان مهمة الانتداب للعراق أوكلت الى انكلترا مع انتدابها لفلسطين ، وان حكومة جلالته تشعر شعوراً قوياً بأن الوقت قد أزف للوصول الى خطة تأتلف بها مطالب الشعب السوري مع هذه المقررات .

وقد ذكرتم سموكم في كتابكم رقم ١٠٣ المؤرخ في ٢٨ آذار ١٩٢٠ المرسل الى وزير الخارجية البريطانية ، رضاءكم بالسفر الى اوروبا ، على شرط الاعتراف باستقلال الشعب السوري ، وحكومة جلالته مستعدة بناء على القرارات التي اتخذت أخيراً للاعتراف بسموكم مبدئياً ، رئيس دولة مستقلة ، إلا انها تعتقد اعتقاداً قوياً بأن قضية ملكيتكم انما ينحصر حق البت فيها رسمياً بمؤتمر الصلح وحده ، ولذلك تلح على سموكم بأن تأتوا الى اوربا ، بدون ابطاء وتبسطوا قضيتكم أمام رجالها ، وسيعقد المؤتمر دورته القادمة في باريس في آخر شهر ايار ، وتأمل أن يجد سموكم السبيل لحضور المؤتمر خلال اجتماعاته هذه .

واني بالالحاح على سموكم باجابة دعوة حكومة جلالته بالسفر الى باريس بلا انتظار ، أرغب في أن أؤكد لكم بأن الباعث الوحيد لخطة حكومة جلالته في هذا السبيل ، هو رغبتها في اعطاء آمال سموكم وأمانيه الاعتبار التام ، مع منحكم الفرصة اللازمة لبسط قضيتكم بكل تفاصيلها » .

ويظهر من بلاغ الحكومة الفرنسية المنتدبة على سورية أنها تعتبر سكان سورية شعوباً لا شعباً واحداً وأنها ستعمل على أن يصبح السوريون أمماً وهذا ما لا يخطر على بال أحد من الوطنيين السوريين إذ كان هدفهم الوحدة العربية .

أما نتائج سفر نوري السعيد فما كان يمكن أن يكون لهـا تأثير يذكر في قرارات مؤتمر الحلفاء المنعقد في سان ريمو والذي أقر الانتدابات على البلاد العربية في ٢٤ نيسان ١٩٢٠ وقد أصرت انكلترا على فيصل بالاسراع بالسفر لأوروبا قبل البت نهائياً بمستقبل البلاد ليشترك في مذاكرات تقرير مصيرها إذ قـد يتوصل لاقرار ما تم في دمشق تنفيذاً لقرار المؤتمر السوري في سورية الداخلية ، التي كانت تعتبر محتلة من قبل الجيش العربي الحليف . فقرارات المؤتمر السوري الذي أدخل فيهـا استقلال فلسطين والعراق أيضاً كان عاملاً على زيادة التقريب بين لندن وباريس والاسراع في اقرار الانتدابات ، وقد بذل السعيد غاية جهده للتأثير على الرأي العام في كل من انكلترا وفرنسا عله يحرك الضمير العالمي لانصاف العرب بعد أن خذلته الحكومتـان الكبيرتان المنتصرتان في الحرب ، فأذيع في لندن في ٥ نيسان ٩٢٠ مايلي :

وصل الى هنـا نوري السعيد وسلم كتابين خطيين بخط يد الملك الى وزارتي الخارجية بفرنسا وانكلترا ، وقد كرر فيهما تأكيداته بصداقته لفرنسا وانكلترا ، وطلب معونتهما باعترافهما باستقلال بلاده ، وقال عن العراق : إن الوسائل التي اتخذها المؤتمر العراقي بدمشق إنما اتخذت للقضاء على دسائس الترك وأعمال التحريض بين السكان في الموصل ، ولا يميل السكان في العراق وسوريا الى الترك .

وقال أيضاً : ان جميع السكان يتوقعون بالطبع تحقيق أمانيهم بمساعدة الحلفاء .

ولمـا كان لوعود ولسن رئيس الولايات الاميركية تأثير كبير في

الخطة التي سلكها فيصل وتمسك بها السوريون فقد أرسل الملك لولسن أيضاً رسالة يذكره فيها بالوعود الطيبة التي وعده بهـا وبأن رغائب الاهلين وحريتهم ستكون مضمونة . وذكر الملك ما قام به العرب في الحرب العظمى من أعمال عظيمة بعد أن وعدتهم بريطانيا بتحقيق أمانيهم القومية وتوسع في ذكر الاضرار الناجمة عن تقسيم سورية . وأعلمه أيضاً أن الشعب اضطر الى اعلان استقلاله وملكية فيصل بفكرة ضمان مستقبله . وقد استتب الأمن والنظام في البلاد نتيجة لذلك ورجا الرئيس ولسن أن يتفضل ويستعمل نفوذه لتأييد قضية سورية الحقة .

ومن المؤسف أن ولسن كان قد أصيب اصابة خفيفة منذ ابتداء ايلول ١٩١٩ بالفلج النصفي بعد أن بذل كل ما يمكن بذله من جهود ، وتساهل تساهلاً لم يكن مأمولاً منه مع لويد جورج وكلنصو ، مخالفاً بذلك مبادئه التي أذاعها على العالم ، ليتمكن من عقد معاهدة الصلح في مؤتمر فرساي . وبعقدهـا تشكلت جمعية الأمم . لكن حكومة الرئيس ولسن التي كانت العامل الاساسي في تشكيل جمعية الأمم ، لم تشترك بها لأن الكونغرس الاميركي رفض في تشرين الثاني ١٩١٩ التوقيع عليهـا . وبذلك خرجت أميركا من مسرح السياسة الدولية الاوروبية . بيد أن هذا كله لم يقطع أمل سورية في أميركا وهي لا ترى أمامها غيرها تعلن باخلاص ضرورة منح الشعوب المغلوبة على أمرهـا حقها . وبعد انعزال أميركا من مسرح السياسة الاوروبية أسرع لويد جورج وصرح بأن الضمانات التي قطعتها انكاترا وأميركا لفرنسا قـد سقطت عن كاهل بريطانيا أيضاً بعد أن رفضت أميركا توقيع معاهدة الصلح . فهز ذلك فرنسا هزاً عنيفاً ، وطفق العداء ينتشر فيها ضد

لويد جورج وسياسته . وما كاد يمضي على توقيع معاهدة فرساي بضعة أشهر حتى سقطت وزارة كلمنصو ، وذلك في كانون الثاني ۱۹۲۰ ، فلم يعد للويد جورج وسياسته أصدقاء في فرنسا ، وأصبح شديد الكراهية فيها .

لهذا كله لم يتلق الملك فيصل من الرئيس ولسن أي جواب رسمي . كما أن بريطانيا التي كان ينظر إليها في المحافل السياسية الغربية كصديقة للعرب ، وفيصل بنوع خاص ، لم تعد في وضع تملك فيه التأثير على مجرى السياسة الفرنسية ، بل لم يعد لمؤتمر فرساي نفسه هاتيك الأهمية وذلك النفوذ اللذان كانا له عندما كانت أميركا أحد أعضائه .

وهذا الوضع الدقيق المحرج أيقظ أفكار الوطنيين في الحكومة الناشئة وجعلهم يستوثقون من سوء نية حلفاء فيصل في الحرب ، فأخذوا يطالبون الحكومة بأن لا تأخذ الأمور بسياسة اللين بل تعد نفسها حكومة دفاع وطني ، واجبها الأول اعداد المعدات لدفع العوادي عن الوطن ، وكان لاعتراض فرنسا على رفع العلم السوري الجديد على دار الاعتماد العربي في بيروت ، وعلى الدعاء لفيصل في مساجد الساحل السوري ، تأثير وأي تأثير على الوطنيين ، فألهب جذوة الحماس في الصدور ، وأقيمت المظاهرات احتجاجاً على ذلك ، مطالبين بتجنيد كافة امكانيات البلاد دفاعاً عن الوطن . وقد اعترضوا كذلك على تساهل الحكومة السورية تلقاء فرنسا في نقل الذخائر الحربية الى أضنة بطريق السكة الحديدية التي تمر في سورية ، لأن ذلك يساعد الفرنسيين على اخماد الثورة التركية الناشبة في شمال الحدود السورية لاخراج المحتلين من الاراضي التركية ، فيتفرغ الفرنسيون عندئذ لتحقيق مآربهم العدوانية

في بلادنا . وحدث أن سحبت فرنسا جزءاً من قواهـا الموجودة في الشرق الاوسط في تلك الآونة لاستخدامها في ألمانيا بمناسبة اعتزامهـا احتلال الرور ، فكانت حاجة القيادة الفرنسية ماسة لنقل العتاد والجنود في منطقة احتلالها في سورية وكيليكية . فوجـه أعضاء عديدون في المؤتمر السوري أسئلة للحكومة عن كل ما تقدم وهاجموها بشدة ، فأجابت الحكومة المجلس في ٢٤ نيسان ١٩٢٠ بما يهدئ ثائرة الخواطر مؤكدة أنها توفرت على منع الكثير مما كان يشتكى منه ، إذ سحب الاعتراض الفرنسي على رفع العلم السوري على دار الاعتماد في بيروت رغم مزاعم فرنسا بأن تغيير الاوضاع في البلاد المحتلة منوط بمؤتمر الصلح ، وأن ليس هنالك حشود من القوى الاضافيـة على حدودنا ، وغاية ما أشيع عن ذلك لا يتعدى بعض تنقلات عسكرية اقتضاها الوضع العسكري ، بل ان فرنسا خفضت من قواها بدلاً من زيادتها . فكان من هذا الجواب المتزن أن الوزارة لم تضطر الى تقديم استقالتها . ولما كان رئيس الوزارة معروفاً بالاعتدال ولا يُقرّ استعمال القوة في مقاومة دولة عظيمة كفرنسا تملك جميع لوازم الحرب ومعداتها ، وقد خرجت ظافرة من الحرب العظمى ، وكان الوطنيون يخالفونه تمـاماً في هذه السياسة ، ويهدفون الى المقاومة حتى النهاية نصرة للحق وانتصاراً على الظلم ، وكنت على هذا الرأي مع الشيخ كامل القصاب ، فقد راجع الوطنيون الملك فيصل يرجون منه تأييد فكرتهم وتشكيل حكومة همهـا الاول الدفاع .

وحدث في هذه الأثناء أي في ٢٤ آذار أن قرر مؤتمر سان ريمو منح فرنسـا الانتداب على سورية ، وانكلترا الانتداب على فلسطين

والعراق . فهاج الوطنيون متخذين من ذلك أكبر حجة تبرر موقفهم . وقد انحاز إليهم الملك فيصل وندب كبير أمنائه ليقنع الركابي بتقديم استقالته ، فقدمها في ٣ مايس متذرعاً بأسباب صحية . ومن سوء حظ سورية أن أميركا التي أوفدت لجنة الاستفتاء لبلادنا ، لم تعد عضواً في مؤتمر الصلح ، كما أن استقـالة كلنصو وتحول الرأي العام في فرنسا ضد انكلترا لم يكن في صالح قضيتنا . وكان من نتائج ذلك أن خلا الجو لفرنسا فتمكنت من حرية العمل العسكري في سورية الداخلية رغم أن معاهدة سيكس ـ بيكو لا تجيز لها ذلك . هـذا وان اعلان قرار المؤتمر السوري استقلال سورية بحدودها الطبيعية يوم ٨ آذار على أن يكون بينها وبين العراق اتحاد سياسي واقتصادي ، واعلان رجالات العراق الموجودين في سورية في نفس اليوم استقلال العراق من على شرفة البلدية نفسها التي اعلن منها استقلال سورية ، لم يخل من التأثير على انكلترا التي كانت ترمي الى نيل الانتداب على فلسطين والعراق اللذين كانت جنودها تحتلهما .

واذا أمعنا النظر في تحدي سورية لفرنسا وانكلترا معاً بهذا العمل رأينا انه وإن لم يكن عملاً سياسياً متزناً ، إلا انه لم يكن بامكان فيصل والوطنيين العاملين معه أن يسلكوا غير هذا السبيل لأن غاية الثورة العربية انما كانت استقلال البلاد العربية التابعة للدولة العثمانية في آسيا ، ولم تكن استقلال سورية الداخلية فحسب . وقد استمر جهاد العرب تحت راية الحسين أكثر من سنتين ، وغاية الجميع استقلال البلاد العربية .

وكان جيش فيصل الذي حارب في الاراضي السورية يضم الحجازي

والعراقي والفلسطيني والسوري واللبناني مسلمين ومسيحيين ، ولم يكن السوريون أكثرية فيه ، وكانت غاية الجميع العمل لاستقلال بلادهم تحت راية العروبة .

وبعد أن حررت جيوش فيصل سورية وطاردت الجيش العثماني المنهزم حتى الحدود السورية الشمالية ، تشكلت في منطقة احتلال هذا الجيش حكومة غايتها تحقيق استقلال العرب . وبعد أن قضت الظروف باعلان استقلال العرب ، وبالاحرى استقلال سورية الداخلية عملياً ، لم يكن باستطاعة فيصل ومن حوله اهمال استقلال بقية الاقطار العربية ، إذ كان في عداد هيئة ادارة « الفتاة » أعضاء بارزون عراقيون ، مثل ياسين الهاشمي ، وفلسطينيون كعزة دروزة ورفيق التميمي ، كما أن ممثلي الحجاز في مؤتمر الصلح رستم حيدر وعوني عبد الهادي سكرتير الملك الخاص لم يكونا سوريين . ومن بين أخصاء الملك نعد نوري السعيد وجعفر العسكري وعلي جودة وجميل المدفعي ومولود مخلص الذين انتصر جيش فيصل على أكتافهم ، وكانوا عراقيين يشدون أزره في سورية باخلاص من غير أن ينسوا وطنهم الاول ، وكان سكرتير الجماعة العراقية الملكي توفيق السويدي نجل يوسف السويدي صديق العائلة الهاشمية ومن أعضاء « الفتاة » القدامى هو الذي أعلن القرار باستقلال العراق من على شرفة البلدية . فمن البدهي اذن أن يراعى شعور هؤلاء وعدم اهمال قضية بلادهم ، وهي جزء من الوطن العربي ، سيما والعرب معروفون بالوفاء والتضحية في سبيل هذا الوفاء . كما ان ذلك كان من جملة مبادىء جمعية « الفتاة » الاساسية التي تسعى إليها بكل قواها .

وبعد اعلان استقلال العراق وظهور نوايا الحلفاء السيئة نحو العرب جلية واضحة ، قرر رجالات العراق في سورية إضرام نار الثورة في العراق ، فأوعزوا الى كل ضابط عراقي مقدام بالاستقالة من الجيش والسفر الى دير الزور على مقربة من الحدود العراقية ليؤلفوا جيشاً من العصابات ويستعدوا للثورة .

وكان رمضان الشلاش قد أخرج الانكليز منها في ١١ كانون الاول ١٩١٩ وعين فيصل مولود مخلص حاكماً لها . وقد سافر الى الدير بعد اعلان الاستقلال بقليل جميل المدفعي وعلي جودة وتحسين علي لترؤس الحركة . ولم يكد ينتهي شهر آذار حتى بدأت العصابات تشن هجماتها وتبلو بلاءها في العراق . وكان من بادرة أعمالها تخريب خط سكة الحديد بين سامراء وشرقات ، كما ان قوى جميل المدفعي هاجمت تلعفر وقتلت فيها الميجر باولو والكابتن استوارت ونسفت دار الحكومة بالديناميت عن فيها ، فسيرت إليه القيادة البريطانية من الموصل قوى كبيرة فانسحب الى الدير وكان ذلك ايذاناً باندلاع ثورة العراق .

وبعد استقالة وزارة الركابي التي لم تعش طويلا كلف الملك فيصل بالاتفاق مع الوطنيين باستثناء الشيخ كامل القصاب الذي استمر في تأييد الركابي رغم انه لم يكن من أنصار الدفاع ، والشيخ من متزعمي القائلين به ويود تشكيل حكومة تندفع بدون ترو في تحقيق الاستقلال والوحدة العربية ، كلف رئيس المؤتمر السوري هاشم الاتاسي بتشكيل وزارة دفاع وطني كرد على برقية الحكومة الفرنسية التي تبلغ فيها فيصل قرار مؤتمر سان ريمو بمنح فرنسا الانتداب على سورية ، وطلب من

هاشم الاتاسي تشكيل حكومة قوية تضطلع بواجب الدفاع والمحافظة على الأمن الداخلي والطمأنينة ، فقدم الاتاسي أسماء أعضاء وزارته التي كان متفقاً عليها في اليوم نفسه ، فتألفت الوزارة في ٣ أيار ٩٢٠ من :

هاشم الاتاسي	للرئاسة
ساطع الحصري	للمعارف
رضا الصلح	لرئاسة مجلس الشورى
الدكتور عبد الرحمن الشهبندر	للخارجية (محل سعيد الحسيني المريض)
يوسف العظمة	للحربيـــة
فارس الخوري	الماليـــة
جلال الدين	للعدليـــة
يوسف الحكيم	للتجارة والزراعة
علاء الدين الدروبي	للداخليـــة

وقدمت الوزارة بيانها للمؤتمر السوري بعد تشكيلها بخمسة أيام قائلة : ان أساس خطتنا هو :

١ ـ تأييد الاستقلال التام الناجز المتضمن في جملة ما يتضمنه حق التمثيل الخارجي .

٢ ـ المطالبة بوحدة سورية بحدودها الطبيعية ، مع رد طلب الصهيونيين بجعل القسم الجنوبي منها وهو فلسطين وطناً قومياً لليهود .

٣ ـ رفض كل مداخلة أجنبية تمس سلطاننا القومي .

ثم قالت : « بلغكم أن المؤتمر في سان ريمو اتخذ بعض قرارات ابتدائية تتعلق بنا . وهذه القرارات قد تضمنت الاعتراف مبدئياً باعتبار

سورية دولة مستقلة ، فنحن نسجل هذا الاعتراف مع السرور ونتخذه أساساً للحقوق الاخرى التي سنطالب بها » .

وخطب بعض النواب مشيراً الى خطورة الموقف ، كما ناقش آخرون البيان ، واشترط غيرهم أن تعلن الوزارة كونها دفاعية لمنحها الثقة فقال الشهبندر « ان الوزارة دفاعية قامت لأجل الدفاع وستدافع الى النهاية » فنالت ثقة المؤتمر الاجماعية .

وعقب اختيار الشهبندر لوزارة الخارجية عين جميل مردم ، وهو من أعضاء « الفتاة » القدماء ، مستشاراً للوزارة لتأمين انسجام العمل فيها . وكان من الطبيعي أن تهتم الوزارة قبل كل شيء بأمر الدفاع ، فوسع قانون التجنيد ، وجعلت مدة الخدمة الفعلية الاجبارية ستة أشهر في قانون التجنيد الذي سن حينما كان فيصل في اوروبا في سفرته الثانية ، وطرح على الاكتتاب قرض وطني بنصف مليون دينار سوري (وكانت قيمته ليرة ذهبية فرنسية) وهذا القرض كان بضمان أملاك الدولة وبفائدة قدرها ٦ بالمئة ليصرف في وجوه الدفاع الوطني .

ولما كانت غاية الحكومة السورية الاولى هي استقلال سورية ، فقد دفع ذلك بعض الضباط السوريين الى الاستقالة من الجيش والانضمام الى الثوار المناضلين في جبل عامل وجبال العلويين والجزيرة العليا وأنطاكية ، الأمر الذي فرّق القوى العسكرية الفرنسية وسهّل على الاتراك الانتصار على الفرنسيين في جنوب كيليكيا .

ولما كانت ثورة الاتراك شديدة ومنظمة ومسلحة بأسلحة حديثة فانها تمكنت من محاصرة مدينتي كلس وعنتاب اللتين جمع فيهما الفرنسيون

الكثيرين من الأرمن الذين شتتوا في الحرب ، فأهاج ذلك القيادة الفرنسية ، وطلبت من فيصل تسهيل نقل الجنود والعتاد الفرنسية عن طريق سكة حديد حلب ، فرأت الوزارة أن تستفيد من الفرصة السانحة فطلبت لقاء ذلك دفع حصة سورية من ايرادات الجمارك وفقاً لاتفاق حيفا وهي ١٥٠ الف جنيه مصري عن حيفا ومثلها عن بيروت وطرابلس تدفع شهرياً ، والاعتراف باستقلال سورية استقلالاً تاماً ، فرفض غورو ذلك وأجاب بأنه لا يتمكن من أن يوافق على شيء ينافي ما جاء في بيان الحكومة الفرنسية الاخير سيما وان الكولونيل تولا كان قد فهم من محادثاته مع رئيس الوزارة السورية السابق رضا الركابي بأن الرئيس يميل الى مساعدة فرنسا في شمال سورية ، وأن الملك لم يعترض على ذلك . وهذا ما نشره الركابي بخط يده بهذا الخصوص :

« ولم تمض على حفلة البيعة أسابيع حتى بدأ الترك بالعدوان على حدود سورية فقرر الجنرال غورو أن يوجه الى الشمال قوة من الجيش الافرنسي المرابط في الساحل بطريق الخط الحديدي (بيروت ، رياق ، حلب ، قطمة) وأوعز الى ممثليه في دمشق بأن يطلبوا من الحكومة السورية السماح للجيش الافرنسي بالمرور في سورية ، فاستدعاني جلالته ، إذ كنت رئيساً للوزارة ، وسألني رأيي فعرضت عليه الموافقة ، على أن نضم نحن أيضاً ، قسماً من جيشنا الى القوة الافرنسية ، لأن الدفاع عن سورية يقع في الدرجة الاولى ، على عاتق السوريين ، ولولا ان عدوان الترك وقع في وقت كانت فيه قوة السوريين غير كافية ، لما سمحنا للافرنسيين بالدفاع عن بلادنا . ولكن فرنسا أخذت على عاتقها مهمة الدفاع عن بلادنا كخليفة لنا أو منتدبة ، فوجب علينا والحالة هذه ،

أن نشكر لها صنيعها ونشاركها في الدفاع ، بضم قسم من جيشنا الى جيشها ، وربما أدى هذا الأمر في المستقبل الى حفظ صلات المودة وروابط الصداقة بيننا ، فأظهر سروره لرأيي وارتياحه لفكري ، ولكنه أراد في الوقت نفسه أن يستشير بعض رجال السياسة ، فلما استشارهم أشاروا عليه بعكس ما رأيت ، وأصروا عليه وتعصبوا لرأيهم ، فاعتمد على أمانتهم وصدقهم ورفض ما طلبه الافرنسيون ، فاضطر الجنرال الى نقل الجيش بحراً ، الى شمالي اسكندرونة ، ونقله من هنالك براً الى منطقة الحرب فانقضى الوقت بدون فائدة ، فاضطرت فرنسا الى حل الخلاف بينها وبين تركيا سلمياً على أساس التفاهم ، فأرسلت معتمدها فرانكلان بويون الى أنقرة ليتفق مع الأتراك على حسن الجوار ، فأملوا ارادتهم على فرنسا ، فخسرت سورية بعض بلدان المنطقة الشمالية وتبدل شكل الإدارة في لواء اسكندرون .

ان ثقة جلالته برأي الذين استشارهم وايمانه بصدقهم واعتماده على حسن نيتهم ، كل ذلك أدى الى توتر العلاقات السياسية بينه وبين الافرنسيين . فازدادت العقبات في سبيل تحقيق أمانينا ووصلنا الى الوضع الحاضر الذي نحن فيه .

وقد أدى هذا الرفض الى زيادة التوتر وزيادة الجفاء وقرب موعد الساعة الحاسمة ، وكان ذريعة جديدة أضافها غورو الى الذرائع الاخرى التي توسل بها لضرب ضربته الكبرى » .

إلا أن موقف الوزارة لم يلن مطلقاً . ولقد سافر وزير الحربية الى الشمال واتصل بالقواد الترك تأميناً لتعاون سورية مع الأتراك في

مقاومة الاحتلال الفرنسي ، فوعد اولو الأمر بالجواب بعد استطلاع رأي حكومة مصطفى كمال رئيس مجلس الأمة الكبير . وكان هذا من الاسباب التي دعت الفرنسيين لعقد الهدنة مع الأتراك في ٣٠ آذار ١٩٢٠ إذ انهم وقد تعذر عليهم امكان احتلال سورية وكيليكية ، رجحوا التخلي عن الأخيرة رغم ثروتها العظيمة التي كانت محط أنظارهم لأنهم يزعمون بأن لهم في لبنان ذكريات قديمة ويرون في الكثير من الموارنة مؤازرين يعتمد عليهم ولا يصح اهمالهم واهمال تراث فرنسا الادبي في لبنان .

ناهيك عن ان التخلي عن سورية يجعل وجودهم في لبنان متعذراً سيما وقد ملكوا حرية العمل في سورية الداخلية . وكانوا الى ذلك يرغبون في مقاومة السياسة البريطانية في الشرق الأدنى وتركيا بعد أن احتلت بريطانيا المضائق ودفعت بجيوش صنيعتها اليونان الى احتلال ازمير . وعقب هذه الهدنة سحبت الجيوش الفرنسية من تركيا وترك الكثير من العتاد كمونة لها وحشدت فرنسا هذه الجيوش على حدود سوريا الداخلية انتظاراً لما بيتته . وقد بلغ عدد الجيش الفرنسي لدى بدء الحركات العسكرية لاحتلال سورية ، ما يقرب من المئة الف جندي .

وعاد من أوروبا في هذه البرهة ، أي قبل أواخر شهر أيار ، نوري السعيد ، وهو مقتنع بأن أكبر خدمة يمكن أن تسدى لسورية هي سفر الملك لأوروبا تثبيتاً للوضع القائم في سوريا وعدم فسح المجال ليصبح الانتداب استعماراً مقنعاً ، ولكن الهياج في البلاد كان قد بلغ

أشده والاصوات تشق الحناجر دفاعاً حتى الموت . لذلك رأت الحكومة ارسال وفد وزاري الى أوروبا للدفاع عن حقوق البلاد عوضاً عن تلبية دعوة بريطانيا المتكررة لفيصل للسفر الى اوروبا . وصادف ذلك حلول شهر الصوم المبارك ، فأقام بهذه المناسبة جلالة الملك مأدبة افطار كبرى في ٢٥ أيار دعا إليها رجالات البلاد ومفكريها من مختلف النزعات وخطب فيها آخر خطاب له فقال :

« أريد بهذه المناسبة ، أن أقول بعض كلمات أعلم أنها تهم الأمة كثيراً ، إن هذه الكلمات منتظرة من الحكومة لا مني ، لأني غير مسؤول ، ولكني أستسمح رئيس الوزارة فأقول :

ان الأمة اليوم في شوق عظيم الى معرفة حالها ومصيرها ، لقد أبلغونا القرار الذي وضع في سان ريمو ، بشأن مستقبل البلاد بصورة مجملة ، فيئس البعض من جراء ذلك وظن أنه قضي على مستقبلنا وأن كل سعي نبذله لا يأتي بفائدة وقال القسم الأعظم من سكان البلاد : لقد قضي علينا ونحن لا نريد أن نستعبد فلنمت شرفاء .

هاتان هما الفكرتان السائدتان اليوم وكلتاهما غير مطابقتين للحقيقة ، لأنه لم يقض علينا بالفناء لنيأس ، ولا قضي علينا بالاستعمار لكي نقول يجب أن نموت شرفاء .

بماذا قضي علينا ؟ من المعلوم أنه اتخذ قرار يعترف باستقلال سورية على ما يقال وجعلها تحت الانتداب ، ولكن ما هو هذا الانتداب ، وما هي كيفيته وهل هو يقضي علينا أم لا ؟ فهذا ما لا يزال مجهولاً .

لقد اتخذت الامة قراراً من قبل أعلنت فيه استقلالها وقالت انه

يجب على الأمم أن تعترف به ، فكما اننا اتخذنا قراراً يوافق مصلحتنا فقد اتخذوا هم أيضاً قراراً لأنفسهم يلائم مصلحتهم ، وكل من الفريقين يدعي الحق لنفسه ، ولكن ما بينهما من الود لا يجعل أحدهما يعتدي على حقوق الآخر ، وإن كان كل منهما ينظر الى مصلحته قبل مصلحة سواه .

الامة السورية أعلنت استقلالها وفقاً لمصالحها ، أما الدول فمع اعترافها بهذا الاستقلال فقد اشترطت له شروطاً تلائم مصالحها أيضاً ، وعندما أعلنا استقلالنا قلنا باحترام مصالح الجميع لنكون في تآلف مع الشعوب التي حاربنا معها ، ثم ان الدول وضعت شرطها وقالت لنا تعالوا نؤلف بين مصالحنا ومصالحكم .

فيظهر من هذا انه لا ضير علينا حتى الآن ، وان أبواب المذاكرات ما زالت مفتوحة لكلا الفريقين ، ويجب أن يعلم انه ينظر إلينا اليوم كأمة مستقلة .

ان كلمة الانتداب لا حد لها ولا معنى صريح وقد رفضتها الأمة رفضاً باتاً ، ولا يقبلها أحد يريد الحياة ، فهي كلمة مطاطة تفسر طوراً بأشد أنواع الاستعمار وتارة بأخف ضروب المعاونة الودية التي لا تمس الاستقلال ومع ذلك فقبولها عار على كل أمة تريد الحياة .

أرجو من الأمة أن تعرف أن رئيسها أو حاكمها أو ملكها الذي انتخبته هو على هذا المبدأ لا يرضى أن يقال ان المملكة التي هو رئيسها تحت قيود مملكة أخرى ، فالأمة التي عاشت قروناً عديدة ومدنت العالم لا يمكن أن تتقيد بهذه القيود ، وأريد ألا يكون رفض الأمة للانتداب اعتماداً على القول فقط .

تذكرون جميعكم انني كنت أقول دائماً ولا سيما بعد رجوعي من اوروبا أن الاستقلال يؤخذ ولا يعطى . أنتم تطلبون مني الاستقلال وأنا أطلب منكم الوسائل . تذكرون اننا لما كنا تحت سلطة الاحتلال وكانت الحكومة بدون قوة اجرائية والأمة محتاجة الى القوة أي الى الجند أردت أن أظهر للأمة ضرورة التجنيد فتطوعت جندياً بسيطاً ولم يكن في الامكان حينئذ وضع قانون للتجنيد بسبب الاحتلال ، فلما جلا الجيش البريطاني عن البلاد رأت الحكومة ضرورة التجنيد لحفظ النظام أولاً وللمدافعة عن البلاد ثانياً فوضعت قانون التجنيد ورأينا الفرق بين الجند عند كان متطوعاً وبقي أكثر من سنة دون أن نتمكن من تنظيم قطعة للعرض فضلا عن الدفاع ، على أنه لم يمر شهران على وضع القانون حتى رأينا أن لنا جيشاً ولو قليلا ، ونظاماً ولو في حالة الطفولة . ولكن الحكومة ترى أن هذا الجيش لا يكفي لحاجة البلاد داخلاً وخارجاً ولا سيما أن هذا القانون استثنى قسماً عظيماً من الخدمة .

ان الأمم تنظر الينا من وجهتين : الاولى نظرة صديق يريد منا أن نظهر بمظهر منظم عظيم ، وتخشى وقوع حادث مكدر ، يعكر علينا ويفسح مجالاً لاظهارنا بمظهر الهمجية ، والثانية نظرة فريق ربما يطمع فينا ، فالحكومة مجبرة على ايجاد القوة ، التي تفرح صديقها ، وتدعم كيانها ، وتحافظ على نظامها لا سيما وان المناطق السورية المحتلة هي في حالة فوضى أخشى أن تسري الينا ، وتسيء سمعتنا في الخارج ، فيجب أن تسهر الحكومة على حفظ النظام في الداخل وعلى ايجاد قوة تجعلنا محترمين من أصدقائنا وأعدائنا وان كنت لا أعرف أن لنا عدواً .

ان الأمة تريد الاستقلال وترى أن كل وزارة وحكومة لا تعلن انها دفاعية لا تصلح لها ، فالأمة التي تطلب هذا يجب أن تقدم الوسائل اللازمة له من المال والرجال .

يجب ألا يتسرب اليأس الى نفس أحدنا ، وعلى المفكرين والعقلاء وأرباب الصحف أن يحولوا دون ذلك ، فنحن سنعيش ولن يمس استقلالنا بسوء ، ولا شك ان هذه الامة التي بذلت عشرات الالوف من الضحايا في غاليسيا والقفقاس وايران والروملي خدمة لمصالح غيرها لا تتأخر عن بذل اضعاف ذلك دفاعاً عن كيانها وحريتها ولو كانت خارجة من حروب طويلة مهلكة .

ولما كان من غير المستطاع ايجاد جيش بلا مال فقد أصدرت الحكومة قرضاً مضموناً ، يمكنها من ايجاد قوة تضمن حياتها المقبلة ، فأرجو من الأمة أن تقبل عليه ، وتثبت للعالم المتمدن أنها لا تحتاج من الخارج حتى ولا للمال ، فلديها كل شيء عند اللزوم .

لقد اعتادت الحكومات أن تصدر قروضاً عند وقوع الأزمات ، وعندئذ يكون اقبال الأمم على القروض مقياساً لحياتها ، فأريد أن يصادف هذا القرض اقبالاً عظيماً ولا سيما انه مضمون برهائن تعود بفائدة عظيمة على حاملي اسناده ، فأستنهض الهمم الى الاقبال على القرض والجندية ولا شك في أنه لا يتأخر عن ذلك إلا من كان عدواً للوطن .

ان جميع الحاضرين هنا هم أعين هذه الأمة ، التي ترى صالحها ، واتجاهها ، فعليهم أن يسعوا لارشادها الى هاتين الغايتين الشريفتين : المال والجندية ، فيكونوا بذلك خير مساعد لحكومتهم وأمتهم .

هذا ما أرجوه من الامة وأوصيها بالانصراف الى الجد والرزانة في جميع حركاتها وسكناتها ، أما الذين يقولون بالاستماتة في سبيل الحياة الحرة والموت الشريف فاني اندس في فكرتهم وأعد نفسي فرداً من أفرادهم واذا دنت التهلكة أكن أول من يموت ولكني اطمئنهم على انه لم يحكم علينا بالاعدام ، فهذا الحكم لم يصدر ولن يصدر ، وعلينا أن نستعد ونتروى وألا تكون حركاتنا تابعة للخيالات بل للماديات والمحسوسات .

ان مسألة سوريا ، من أعظم مشاكل العالم التي يصعب حلها فلا يحكم فيها نهائياً بمجرد قول جريدة أو خطبة شخص مسؤول أو غير مسؤول ، فالحكومة التي رئيسها امامي اسأله انا والامة عن نتيجة الحالة وهي تنتظر اليوم نتائج الامور .

اريد من الامة ان تثبت الى النهاية وان تنتظر النتيجة برباطة جأش ، وتمد حكومتها بالجنود والمال ، وتبذل جهدها والتوفيق منه تعالى وارجو ان نكون في العام القادم حول هذه المائدة وقد نسينا هذه الايام العصيبة » .

ومن أجمل المصادفات إذ ذاك ان أحرار جبل لبنان ومجلس ادارته تألموا من ازدراء حاكم الجبل القومندان « لابرو » وغيره من الموظفين الفرنسيين لكل ما هو وطني ، فقرروا الاتصال بالملك فيصل ، وأخذ موافقته على أن يكون الجبل مستقلاً ، وأن يكون بينه وبين سورية اتحاد اقتصادي ، وان يسافر اعضاء مجلس ادارته المنتخبين من الأهلين لأوروبا للمطالبة بذلك على ان تسهل حكومة دمشق سفرهم وتقوم بنفقاتهم ، فتسقط بذلك اكبر حجة لفرنسا في تبريرها احتلال جبل لبنان والساحل

السوري . وكان لمساعي كل من الأميرالاي سعيد البستاني قائد درك جبل لبنان الذي استقال من منصبه لعدم تمكنه من تحمل غطرسة الفرنسيين ، ورياض الصلح وعارف النعماني وأمين ارسلان تأثير كبير في الوصول إلى هذا القرار الوطني الرائع . وكان في مقدمة الذين وقعوه سعد الله شقيق البطريرك وابن اخيه الياس الحويك ، والموقعون يمثلون لبنان وينطقون بلسان ابنائه . وهذا هو نص القرار المذكور :

« ان مجلس ادارة جبل لبنان النيابي المؤلف نظاماً من ١٣ نائباً وفي الوقت الحاضر من ١٢ نائباً عاملاً بسبب خلوّ مركز احد نائبي كسروان المستقيل ، قد وضع نهار السبت الموافق ١٠ تموز سنة ١٩٢٠ بأكثريته الكبرى القرار الآتي :

« انه لما كان اللبنانيون ، منذ اعلنت الدول العظمى ، حق انشاء الحكومة الوطنية ، لشعوب هذه البلاد قد طالبوا وما زالو يطالبون ، تأييد حقوقهم بتأسيس حكومة وطنية مستقلة .

« ولما كان استقلال جبل لبنان ، ثابتاً تاريخياً ، ومعروفاً منذ أجيال طويلة وموقعه وطبيعة أهليته الموالفة للحرية والاستقلال منذ القدم مما يستلزم استقلاله وحياده السياسي أيضاً لوقايته من المطامع والطوارىء ، وكان مع ذلك من أهم مصالحه وراحته شعور الوفاق وصفاء العلاقات مع مجاوريه ، وقد دل على ذلك ما أحدثه التقاطع من ثوران الجهلاء لارتكاب الحوادث المؤلمة المقلقة المتسلسلة من السنة الماضية إلى هذه الآونة .

« فبناء على ما تقدم قد بذل هذا المجلس مزيد الاهتمام توصلاً لوفاق يضمن حقوق البلدين المتجاورين سورية ولبنان ومصالحهما ودوام حسن

العلاقات بينها في المستقبل ، وبعد البحث في هذا الشأن ، وجـد انه من الممكن الوصول الى ذلك بمقتضى البنود الآتية :

١ — استقلال لبنان التام المطلق .

٢ — حياده السياسي بحيث لايحارب ولا يحارب ويكون بمعزل عن كل تدخل حربي .

٣ — اعادة المسلوخ منه سابقاً بموجب اتفاق يتم بينه وبين حكومة سورية.

٤ — المسائل الاقتصادية يجري درسها وتقرر بواسطة لجنة مؤلفة من الطرفين وتنفذ قراراتها بعد موافقة مجلسي لبنان وسورية .

٥ — يتعاون الفريقان في السعي لدى الدول للتصديق على هـــذه البنود الأربعة وضمانة أحكامها .

« ولأجل التمكن من العمل بحرية وبمعزل عن ضغط وتأثير خارجي ولأجل السعي الناجح لدى المراجع الايجابية ، لتقرير أحـكام البنود الأربعة المتقدم بيانها والتي هي مطالب الأمة اللبنانية ، ومصلحة لبنان الحقيقية المنزهة عن المآرب والأغراض الخصوصية ، وبالنظر لنيابة هذا المجلس عن الشعب اللبناني القـانونية والمؤيدة مؤخراً أيضاً بأصوات أكثرية الشعب الكبرى قد قررت أكثرية المجلس موقعة هذه المضبطة الانتقال والتوجـه بالذات لملاحقة ومتابعة تقرير مضمون البنود الآنف بيانها ، في أعمال القضية والمراجع الايجابية وابلاغ هذا القرار بكامله الى المقامات الرسمية والسعي بالطرق الممكنة » .

سعد الله الحويك (نائب الرئيس) خليل عقل ، سليمان كنعان ، محمود جنبلاط ، فؤاد عبد الملك ، محمد الحاج محسن ، الياس الشويري ،

وتخلف العضو الثامن وهو الياس بريدي مع أنه متضامن مع الأعضاء الموقعين بسبب مرضه وأرسل نسيبه ميشيل قاصوف فاشترك في اجتماعاتهم ، ووعد باللحاق بهم .

ومن سوء الحظ أن جواسيس الافرنسيين علموا بذلك قبل ميعاد سفر هؤلاء الأعضاء منفردين الى دمشق في ١٠ تموز . فألقت السلطة الفرنسية القبض عليهم وحكمت عليهم بالنفي مدة طويلة ، ونفي معهم الأمير أمين أرسلان الى أرواد ثم لجزيرة كورسيكا . ثم أصدر الجنرال غورو قراراً بالغاء مجلس الادارة .

وبعد أن أصبح الموقف حرجاً في سورية اضطر الملك لاظهار رغبته بالسفر لأوروبا لمواصلة مساعيه السياسية لتأمين مطالب البلاد رغم مخالفة حكومته ومستشاريه الخصوصيين ، ونصيحة أعضاء المؤتمر السوري ، تلبية للدعوات المتكررة التي كان يتلقاها من المسؤولين الانكليز . فأرسل معتمده نوري السعيد يصحبه الكولونيل تولا ليبحث مع الجنرال غورو ما ينبغي اتخاذه عدة للسفر ، فلم يقبل غورو طلب الملك قبل البت بما يشترطه للموافقة على سفره وأبلغ مطالبه شفهياً لنوري السعيد . فعاد نوري السعيد لدمشق في ٥ تموز ١٩٢٠ وأبلغ الملك وحكومته مطالب الجنرال غورو التي اشترطها للموافقة على سفر الملك وهي :

١ ــ الاعتراف بالانتداب الافرنسي رسمياً .

٢ ــ قبول النقد السوري والسماح بالتعامل به في المنطقة الشرقية (سورية الداخلية) .

٣ ــ اباحة نقل الجنود الأفرنسيين بسكة حديد بيروت رياق حلب .

٤ ــ الغاء التجنيد الاجباري في المنطقة الشرقية .

٥ - معاقبة المجرمين الذين استرسلوا في معاداة فرنسا .

أما اذا سافر الملك عن طريق حيفا قبل الموافقة على هذه المطالب فان الحكومة الافرنسية لن تعترف عليه ، وزاد غورو بأنه أعدَّ انذاراً رسمياً بمطالبه هذه سيوجهه عما قريب .

ويظهر أن غورو أتم اعداد كل شيء لتنفيذ خطته التي كان يعمل لها منذ تعيينه مفوضاً سامياً ، لاحتلال سورية ، اذ ان رئيس وزراء فرانسا ميلران كان قد ألقى في ١٨ شبـاط ١٩٢٠ خطاباً أمام لجنة الشؤون الخارجية صرح فيه بأن الضرورة تقضي بارسال ٣٠ الف جندي أخرى لسورية لاحتلال أراضي الموصل وحلب ودمشق .

فاضطر الملك ازاء هـذه الطوارىء للعدول عن السفر ، وأرسل حالاً للمرة الثانية نوري السعيد لاقناع الجنرال غورو بالعدول عن ارسال الأنذار والموافقة على تأليف لجنة دولية مختلطة لحسم الخلافات الموجودة فلم يتمكن السعيد من تغيير شيء في تطبيق الخطة الموضوعة ، وكان الافرنسيون قد أخمدوا ثورة جبل عامل وغيرها بارسال قوى كبيرة لتلك المناطق كي يتفرغوا لمهاجمة سورية .

وقبل ارسال الأنذار بيومين احتلت مفرزة افرنسية محطة سكة حديد رياق الكبرى في البقاع ، كما تقدمت قوة أخرى من جرابلس الشمالي حلب وعسكرت على نهر الساجور .

وبما ان الجنرال غورو لا يعترف بحكومـة دمشق ولم يكن الملك يرغب في التهرب من المسؤولية في الأوقات الحرجة بحجة كونه عدم مسؤول قانوناً ، فقد أسرع وأبرق للجنرال غورو محتجاً بشدة على احتلال

رياق خلافاً للاتفاقات القائمة ، وعلى تقدم القوى الافرنسية من جرابلس لضفة نهر الساجور ، وطلب ايضاحاً عن هذه الاعمال غير الودية التي يجهل سببها ، وأعقبها بهذه البرقية :

« نقل الي اللواء نوري السعيد ما دار بينكم وبينه ، من حديث بشأن الخطاب (الانذار) الذي ستوجهونه الي بواسطة الكولونيل كوس ولم يصل حتى الآن .

ان احتلال سكة حديد حلب — رياق الواقعة ضمن المنطقة الشرقية مخالف على خط مستقيم لمذكرة ١٥ ايلول سنة ١٩١٩ الخاصة بجلاء الجيش البريطاني عن البقاع والاتفاقات التي عقدت بعد ذلك بين المسيو كلمنصو وبيني مدة اقامتي في باريس » .

فاذا كنتم لا تتقيدون بما جاء في هذه المذكرة ، وفي هذه الاتفاقيات فأنا مستعد للعمل في الدائرة التي ترسمها لنا » .

ورغبة في اجتناب كل سوء تفاهم في هذا الشأن ، أقبل أن أمنحكم الضمانات اللازمة لسلامة نقلياتكم ، على سكة حديد رياق — حلب » .

وأرسل سكرتيره الخاص ، في اليوم نفسه بالنيابة عن فيصل ، مذكرة الى قنصل ايطاليا العام بصفته عميد هيئة القناصل لابلاغها الى زملائه وايصالها الى دولهم قال فيها : « لقد احتلت رياق قوة افرنسية بقيادة الكبتن هاك حاكم زحلة العسكري ، ووصلت قوة أخرى الى نهر الساجور.

« وقد حدثت هذه الحوادث فجأة ومن دون موافقتنا بل من دون اطلاعنا عليها قبل وقوعها ، وهي لا تتفق مطلقاً مع التأكيدات التي نلناها ، محافظة على الحالة الحاضرة .

« ورغبة منا في انقاذ السلام وفي المحافظة على روابط الصداقة والود حتى النهاية لم نتخذ حتى الساعة أي تدبير في مقابل هذه الأعمال العدائية .

« ويظهر لي بجلاء ووضوح أن الثقة التي وضعناها في حلفائنا الافرنسيين ستنتهي باحتلال بلادنا كلها ، وبت صلات الصداقة والود بيننا وبينهم .

« وفي الختام اني آسف لابلاغكم بأننا نعتبر الحركة الجديدة للجيش الافرنسي ، في داخل منطقتنا عملاً عدائياً تقع تبعته كاملة على عاتق مسببه » .

كما أرسل الملك لدول الحلفاء برقية مطولة بالمعنى ذاته .

وتلقى الملك في ١٢ منه الرد الآتي من معتمد فرنسا بدمشق :

طلبتم بتاريخ ١٠ تموز معلومات عن ماهية الحركات العسكرية التي اقتضت وصول قطارات مشحونة بالجنود الافرنسية الى المسلمية (شمالي حلب وتقع على بعد ٦٠ كم منها) فلي الشرف ان أبلغكم كما بسطت ذلك لمرافقكم من قبل ، ان الجنرال غورو أعلمني ان ما جرى كان عبارة عن ابدال جنود المخافر الأمامية أمام جرابلس بجنود غيرها .

ثم قال المندوب بأن الجنرال غورو كلفه ابلاغ سموه الملكي بأنه بسبب احتلال قوة من الجنود السورية لمجدل عنجر (هو مركز حربي مهم يطل على سهل البقاع الجنوبي ويسيطر عليه ويحرس مدخل وادي الحرير المؤدي إلى دمشق) اضطر لاحتلال المعلقة ورياق الواقعتين في البقاع أيضاً .

فأجاب الملك غورو بواسطة معتمده بالجواب الآتي :

« لقد اتخذت مجدل عنجر الواقعة بين مدخل وادي الحرير ، وبين صحراء الديماس ودمشق من جهة وبين البقاع من جهة أخرى وبحكم

وضعها الجغرافي ، مركزاً من مراكز اجتماع الجيوش للمحافظة على الأمن في هذه المقاطعة كلها منذ احتلال الحلفاء وهي في الوقت نفسه الممر الطبيعي للقبائل في غدوها ورواحها بين الشرق والغرب الأمر الذي يبعث السلطات السورية على التمسك بها والمحافظة عليها .

ولقد عززت القوات المرابطة فيها ، على اثر الأخبار المزعجة الواردة في الأيام الأخيرة عن حشد الجيوش على حدود منطقة الاحتلال الافرنسي ، ولذلك لا يمكن اعتبار ما جرى سوى تدبير دفاعي رأت الحكومة السورية ان الواجب يقضي عليها باتخاذه من باب الاحتياط فقط .

فاجتناباً لكل سوء تفاهم ولما كنتم تسوغون احتلال المعلقة ورياق بوصول القوة التي وصلت الى مجدل عنجر أبلغكم اني مستعد لتخفيض قواتنا واعادتها الى ما كانت عليه من قبل اذا كنتم تدللون على شعوركم الودي بالجلاء عن رياق والمعلقة المحتلة بجيوشكم » .

وأمر الملك في ١٤ منه بارسال البرقية الآتية الى رستم حيدر مندوب العرب في مؤتمر الصلح بواسطة السفارة الايطالية في باريس :

١ ـ احتل الجيش الافرنسي رياق من دون اخبار ولا ابلاغ سابق ، ولما كانت النية متجهة الى اتقاء الحرب فلم تقاوم أقل مقاومة وبالطبع فقد يضطر الجيش السوري في المستقبل الى مقاومة كل حركة عسكرية جديدة لأنه من الممكن استمرار هذه الحالة .

٢ ـ صرح الجنرال غورو بانه وضع شروطاً يريد أن يمليها علينا وقد بدأ بتنفيذها من دون أن يبلغنا اياها رسمياً ، ومع اننا طلبناها فلم يرسلها الينا رسمياً حتى الآن .

٣ـ تقابل ميولنا ونياتنا السليمة ، بأعمال عسكرية من الجهة الاخرى .

٤ ـ يعارض الجنرال غورو في سفر الملك الى اوروبا .

٥ ـ لما كان الجنرال غورو في وقوفه هذا الموقف العدائي يخالف قرارات مؤتمر السلام وسان ريمو فيجب أن يعد مسؤولاً عن كل ما يقع في سوريا .

نص الانذار :

ووصل ظهر يوم ١٤ تموز ١٩٢٠ الكولونيل نيجر ، فزار والكولونيل كوس معتمد فرنسا ، القصر الملكي ، وسلما الملك الانذار الافرنسي وهذا نصه :

أتشرف باسم الحكومة الفرنسية أن أبسط لسموكم للمرة الاخيرة ، الموقف الذي وضعتنا فيه حكومة دمشق منذ ابتداء السنة الحالية .

سادت السكينة في سوريا ، إبان الاحتلال الانكليزي ، ولم يتعكر صفو الأمن ويبدأ الاضطراب فيها إلا لما حلت جنودنا محل الجنود البريطانية وقد أخذت هذه الاضطرابات تزداد منذ ذلك الحين .

على ان هذه الاضطرابات أثرت في رقي سوريا ونظامها السياسي والاداري والاقتصادي أكثر من تأثيرها في سلامة جنودنا ، وفي الاحتلال الافرنسي للمنطقة الغربية .

فحكومة دمشق تتحمل كل التبعة ازاء سكان سوريا الذين عهد مؤتمر الصلح الى فرنسا بأن تمتعهم بحسنات ادارة مؤسسة على الاستقلال والنظام والتساهل والثروة .

ان أماني الولاء والتعاون التي أظهرتها فرنسا لسموكم بتأييدها حقوق السكان الذين يتكلمون اللغة العربية ويقطنون في القطر السوري بحكم أنفسهم بأنفسهم كأمة مستقلة ، قد أجاب عليها سموكم معترفا بأن لسكان سورية مصلحة كبيرة في طلب المشورة والمساعدة من دولة كبيرة لتحقيق وحدتهم وتنظيم شؤون الامة نظراً للتضعضع الذي أصاب البلاد من الارهاق التركي والاضرار التي نتجت عن الحرب . وتلك المشورة والمساعدة ستسجلها جامعة الأمم عندما تتحقق بالفعل ، وقد دعي سموكم الملكي الى فرنسا للقيام بهذه المهمة باسم الامة السورية .

عندما كنتم تفاوضون الحكومة الافرنسية في شهر كانون الثاني كانت العصابات الخارجية من دمشق تجتاح المنطقة الغربية فأرسل الي مسيو كلمنصو البرقية الآتية :

« عندما بلغني هجوم البدو في شمالي سوريا وجنوبها قلت للأمير فيصل اني اتفقت معه موقتاً على بعض المبادىء واني احافظ أتم المحافظة على كلامي لكن يجب أن يقابل خطتي هذه بمثل ما فيها من الاخلاص وأن يجعل سلطته محترمة من مريديه فاذا لم ينفذ هذان الشرطان تنفيذاً دقيقاً ، فالحكومة الافرنسية ستستأنف حريتها في العمل وتستعمل القوة لتأييد النظام واحترام الحقوق التي لها من المؤتمر » .

على أن البيان الآتي يوضح جلياً كيف ان حكومة دمشق لم تنقطع عن انتهاج خطة معادية مخالفة تمام المخالفة لسياسة التعاون التي رمى إليها رئيس الوزارة وتعهدتم بتطبيقها :

١ — ان اصرار حكومة دمشق على رفض السماح للسلطة الافرنسية

باستعمال سكة رياق ـ حلب الحديدية استعمالاً حراً هو عمل عدائي بحت . فالحكومة لا تجهل أن تلك السكة لا بد منها لاعاشة احدى فرقنا الافرنسية في الشمال وتمكينها من القتال ، وهذه الفرقة تقاتل قوات معادية تابعة لتركيا التي انتزع الحلفاء الظافرون سوريا من ربقتها وهي لا تقاتل إلا دفاعاً عن حدود حكومة سوريا الجديدة التي يجب أن تربطنا بها روابط المصلحة وعرفان الجميل .

ان حكومة دمشق هي التي وضعت مبدأ تنظيم العصابات واستخدامها ضد جنودنا المحتلة . وهذا المبدأ قد أعلنه قائد الفرقة الثالثة في حلب صراحة يوم ١٣ نيسان بالقول الآتي : لما كنا لا نستطيع أن نعلن الحرب رسمياً على الافرنسيين فيجب علينا أن نحكم البلاد بالعصابات التي تجهز عليهم تدريجياً . وسيقود هذه العصابات ضباط فاذا استشهد أحدهم تعيل الحكومة عائلته .

ويكفي تعداد الأدلة الآتية على دقة تنفيذ هذه الخطة :

في ١٣ كانون الاول ١٩١٩ هوجم موقع في تل كلخ بتحريض السلطة الشريفية في حمص .

وفي أواخر كانون الاول ١٩١٩ ذبح محمود الفاعور الذي قلتم لي يا صاحب السمو انه صديقكم الشخصي (بدر) من مسيحيي مرجعيون وهجم على جنودنا في ٤ كانون الثاني رافعاً العلم الشريفي .

وفي ٥ كانون الثاني تحقق وجود الجنود الشريفية بين الذين هاجموا جنودنا تحت قيادة ثريا بك في قرق خان ثم في الحمام .

وفي حزيران ثبت وجود زعيم ورئيس وستة ملازمين و ٣١٧ رجلا

من الجيش الشريفي بين العصابات التي كانت تعمل في جبهة مرجعيون ، وثبت استعمال معدات مأخوذة من الجيش نفسه وهي ٤ رشاشات ثقيلة و ٣ خفيفة و ٥٠ صندوق ذخيرة . وظهر أيضا اشتراك محرضي المنطقة الشرقية في الاضطرابات التي امتازت بمذابح عين ابل وفتنة فرق الشيعة .

ثم ان منظمي العصابات محترمون كل الاحترام في دمشق لا سيما صبحي بركات الذي لا يجهل أحد مساوئه إلينا . وعندما لم تكن العصابات ترسل من المنطقة الشرقية كانت الفتنة تثار في المنطقة الافرنسية نفسها .

وبهذه الأعمال وقعت اعتداءات عديدة على المسيحيين ولا سيما في جسر القرعون في ٢٩ كانون الاول حيث تقع التبعة على الضابطين الشريفيين : أحمد بك وتحسين بك .

وقد ساعد الشيخ صالح العلي ، بطل الفوضى والبغضاء لنا ، مساعدة مؤثرة ومستمرة في جبال النصيرية .

ومن الممكن تعداد كثير من هذه الامثلة وقد عرضناها على سموكم الملكي في حينها .

٢ — رأى سموكم الملكي ادخال أشخاص مشهورين بعدائهم لفرنسا في حكومته ، وكان تأثير المحيط شديداً عليكم حتى انكم لم تتمكنوا من السفر في الوقت المناسب تلبية لدعوة مؤتمر الصلح ، وقد انتخبت الوزارة من اناس من تلك الفئة التي لا تقتصر خطتها على اهانة فرنسا ورفض مساعدتها بل تتناول المجلس الأعلى الذي منح فرنسا الانتداب على سورية .

ان رفض انتداب فرنسا رفضاً باتاً في ١٨ ايار الماضي ، هو خطة عمياء قد تجر نتائجها المصائب على سورية .

٣ – ان التمنع الاقتصادي الظاهر في رفض ورق النقد السوري الجديد الذي أصدره البنك السوري لحساب فرنسا ومنع جميع المعاملات التجارية والمالية مع فرع بنك سوريا في المنطقة الشرقية هو دليل جديد على عداء مضر بمصلحة البلاد أيضاً وكذلك منع نقل الحبوب الى المنطقة الافرنسية مبتدئاً من حماه فدمشق لحلب .

ثم ان السلطة الادارية الشريفية ، اجتازت حدود المنطقة الشرقية وتقدمت تدريجياً داخل حدود المنطقة لتظهر انها قد توسعت توسعاً تقصد منه إحراجنا .

في شهر آذار وضع مخفر شريفي في الخالصة ثم رفع العلم الشريفي على القدموس بعد ذلك بقليل . وفي نيسان جعلت حكومة حلب القصير قضاءً شريفياً ثم نصبت قائمقاماً شريفياً في جسر الشغور .

٤ – ان من كان صديقاً لفرنسا أو موالياً لها في المنطقة الشرقية يكون مشتبهاً به من السلطة ويعامل معاملة سيئة للغاية في أغلب الاحيان . ومن الأدلة الظاهرة على ذلك ان فارس غنطوس ونسيب غبريل اللذين ضمنت حكومة دمشق رسمياً رجوعهما الى راشيا أسيئت معاملتهما ووضعا في السجن بعد رجوعهما .

وفي ٢٢ كانون الثاني هوجم وفد من دروز حوران جاء للسلام عليّ أثناء عودته في وادي القرن وقتل عدد من رجاله .

ولدينا أمثلة عديدة على ذلك ولا سيما في حلب .

أما من كان عدواً لنا فانه يحترم في المنطقة الشرقية ويحمى من كل شيء ويحل على الرحب والسعة ، فقد احتفل بالدنادشة احتفالاً كبيراً

في دمشق ولم يمس بسوء أمين محيو الذي نسف مستودع العتاد الحربي في بيروت ، ثم ان سموكم الملكي سعى مؤخراً لرجوع كامل بك الاسعد الثائر المشهور الى المنطقة الغربية ، وهو قد نفي بسبب فتن بلاد الشيعة وعليه قسم عظيم من تبعتها . أما سكان المنطقة الغربية الذين أكسبهم عداؤهم لنا عطف الحكومة عليهم فعددهم عظيم أيضاً .

ان بث الدعاية ضد فرنسا في المنطقة الغربية قد ألبسته حكومة دمشق اشكالاً خبيثة ارادت السلطة الافرنسية أن تغمض عينها عنها لأنها قررت اتباع خطة التساهل الى النهاية . وآخر هذه الاعمال وأظهرها شراء القسم الاعظم من أعضاء مجلس ادارة لبنان ، باثنين وأربعين الف جنيه مصري . وقد ألقت مخافرنا القبض على هؤلاء الاعضاء في ١٠ تموز بينما كانوا ذاهبين الى دمشق لبيع بلادهم منكرين الاماني التي أعرب عنها مواطنوهم بالاجماع تقريباً منذ عهد بعيد .

ان صحافة دمشق التي تفرط الحكومة في شد أزرها تواصل دائماً حملاتها على كل ما هو افرنسي وتقبح السلطة المحتلة في المنطقة الغربية ، وترد كل مساعدة تعرضها فرنسا وتمنع مقاصدها الحسنة نحو سوريا .

بمقتضى هذه الحقوق يجب على قائد جيش الحجاز المحتل قطراً سورياً لا بد أن يظل عثمانياً الى أن يقضي تنفيذ المعاهدة بتغييره ، ألا يعمل بغير هذه الصفة وأن يحافظ على الحالة الراهنة التي هو مارس عليها . ولكنه تصرف عكس ذلك متخذاً صفة السيادة العليا وقد تقرر التجنيد الاجباري ونفذه منذ شهر كانون الاول ١٩١٩ مع ان البلاد لا تزال بلاداً أجنبية ، وهذا العبء الثقيل الذي لا يجدي نفعاً قد أكره الشعب

عليه حتى في المناطق التي لها شكل خاص كالبقاع ، ونفذ في اناس مستثنين منه كاللبنانيين والمغاربة المقيمين في المنطقة الشرقية ، ولاقى هذا التجنيد مقاومة عنيفة أدت في بعض الاحيان الى اراقة الدماء .

ثم ان المجلس الملقب بالمؤتمر السوري الذي تألف واجتمع بصورة غير قانونية اسن القوانين بل يحكم باسم حكومة ودولة لم يعترف بوجودها ، وفضلاً عن ذلك فقد قدم المنصب الملكي لسموكم الملكي بدون حق ولا وكالة مما وضعكم كما عبرتم عن ذلك في موقف المتمرد على مؤتمر الصلح .

ولم تحترم الامتيازات الاجنبية فان أحد رعايانا الأمير مختار الذي يمثل اسرة كبيرة اشتهرت منذ القدم باتصالها بفرنسا قد اوقف ايقافاً معيباً في حلب .

وليست الاتفاقات السياسية محترمة أيضاً فان لواء من الجيش الشريفي ارسل الى مجدل عنجر رغم الاتفاق الذي تم في كانون الاول الماضي مع المسيو كلمنصو والذي يقضي بألا تحل في البقاع قوة شريفية أو افرنسية .

٦ — لم تستطع السلطة الافرنسية حتى الآن ان تنظم البلاد التنظيم الذي تنتظره منها اذ اضطرت الى صرف قواها وجهودها لقمع الفتن المتوالية ، ومواصلة المفاوضات السياسية العقيمة مع حكومة دمشق ، فهي والحالة هذه غير مسؤولة عن هذا التأخر بل تتحمل العبء العسكري والمالي الذي تقضي به الحالة التي أوجدتها حكومة دمشق ، ولا يمكن إلا أن تؤثر التكاليف في الميزانية السورية سواء بفقد الدخل الذي ينشأ عن استمرار الفوضى أو بالاشتراك في نفقات السيادة التي تلحق بها في المستقبل .

على ان حالة الفوضى التي أوجدها مثيرو الفتن في البلاد وقد بلغت حداً كبيراً دعا الى استحضار قوات كبيرة أعظم عدداً مما يدعو اليه استبدال جنود انكليزية ابان السكينة .

* * *

فهذه الاسباب تدل دلالة كافية على انه لا يمكن بعد الآن أن نعتمد حكومة جاهرت فرنسا العداء كل المجاهرة وأخطأت نحو بلادها خطأ عظيما بظهورها عاجزة عن تنظيمها وادارتها ، لذلك ترى فرنسا انها مضطرة لأخذ الضمانات التي تكفل سلامة جنودها وسلامة السكان في البلاد التي نالت من مؤتمر السلام مهمة الوكالة عليها ، لذلك أتشرف بأن ابلغ سموكم الملكي أن هذه الضمانات هي :

١ — التصرف بسكة رياق — حلب الحديدية لاجراء جميع النقليات التي تأمر بها السلطة الافرنسية . ويؤمن هذا التصرف بأن يراقب مفوضون عسكريون افرنسيون جميع ما ينقل في محطات رياق وبعلبك وحمص وحماه وحلب تعضدهم قوة مسلحة مخصصة للمحافظة على المحطة واحتلال مدينة حلب التي هي نقطة مواصلات هامة لا يسعنا أن نتركها تسقط في يد الترك .

٢ — قبول الانتداب الافرنسي .

ان هذا الانتداب يحترم استقلال أهل سورية ولا يناقض مبدأ الحكم بسلطة سورية تستمد قوتها من ارادة الشعب ولا ينطوي إلا على معاونة بشكل مساعدة وتعاون من الدولة المنتدبة دون أن يتخذ مطلقاً شكل استعمار أو إلحاق أو ادارة تنفذ رأساً .

٣ — قبول الورق السوري :

تصبح هذه العملة وطنية في المنطقة الشرقية فتلغى جميع الاحكام المتعلقة بالبنك السوري في المنطقة الشرقية .

٤ — تأديب المجرمين الذين كانوا أشد أعداء لفرنسا .

ان هذه الشروط تقدم جملة ويجب قبولها جملة أيضاً بلا أدنى فرق خلال أربعة أيام تبتدىء من منتصف ليل ١٥ تموز (أي ١٤ تموز الساعة ١٢ ليلا) وتنتهي في ١٨ منه الساعة ١٢ (أي الساعة ١٢ ليلا) .

فاذا جاءني علم من سموكم قبل انتهاء هذا الموعد بقبول هذه الشروط فيجب أن يكون صدرت أوامركم في الوقت نفسه الى المراجع اللازمة لكي لا تعارض جنودي الزاحفة لاحتلال المواقع المعينة .

ثم ان قبول الشرط الثاني والثالث والرابع والخامس يجب أن يؤيد رسمياً قبل ١٨ تموز ، أما تنفيذه بالتمام فيكون قبل ٢١ تموز الساعة ١٢ (نصف الليل) . واذا كان سموكم الملكي لا يشعرني في الوقت اللازم بقبول هذه الشروط فأتشرف بأن ابلغه بأن الحكومة الافرنسية تكون مطالقة اليد في العمل ، وفي هذه الحالة لا أستطيع أن اؤكد بأن الحكومة الافرنسية تكتفي بهذه الضمانات المعتدلة .

ولا تقع على فرنسا تبعة المصائب التي تحل بالبلاد فهي قد برهنت على تساهلها زمناً طويلا وفي الآونة الاخيرة ، فحكومة دمشق هي التي تتحمل جميع أعباء مسؤولية فصل الخطاب الذي لا أنظر إليه إلا آسفاً ولكني مستعد له بمتانة لا تتزعزع » .

كما الحق بالانذار طلب اقالة حكومة الأتاسي . وكان لهذا الانذار

تأثير عظيم في نفوس السوريين إذ أنهم وان كانت نوايا فرنسا غير مجهولة منهم ، ما كانوا يتوقعون مثل هـذه المطالب القاسية المخالفة للاتفاقات القائمـة ولأبسط أسس العدل والانصاف . ومن الطبيعي أن يكون الاتجاه تقوية المقاومة وعدم الخضوع للانذار ، لاسيما وان الحكومـة أعلنت في المؤتمر السوري بكل وضوح أنها حكومة دفاع وطني وباشرت فعلاً باعداد العدة لذلك . هذا مع العلم بأن الأمير وحكومته بعد أن تبلغوا انذار الجنرال غورو الشفهي بواسطة نوري السعيد وقبل أن يتسلموا الانذار الخطي ، سعوا لتقوية جبهة الدفاع التي كان قوامها أبناء الطبقة الوسطى والطلاب من سكان المدن ، فكانوا ينادون بالدفاع والبذل والتضحية في سبيله ، كما رأت الحكومة أن من الحكمة تحريك ضمير العالم المتمدن لتأييد قضية سورية الحقة بطلب التحكيم الدولي في الخلاف الناشب بين الجنرال غورو وسورية وتهديده الذي لا يتوافق مع مبادىء الحق والعدالة التي طالما جاهر بها الحلفاء .

وقد القى وزير الحربية يوسف العظمة في المؤتمر السوري ، بحضور وزير الخارجية ورئيس الوزارة في ١٣ منه ، بيان الحكومة عن الموقف وهـــذا نصه :

أيها السادة

نرى من الواجب أن نبسط على مسامعكم خلاصة ما يقع في هـذه الدقيقة الحرجة ، تعرفون خطة الوزارة وتذكرون أننا قلنا في بيانها الذي نال استحسانكم أننا سنحافظ على صلات الصداقة مع جميع الحلفاء ولا سيما مع فرنسا وانكلترا ، وتعلمون أيضاً أننا حافظنا على هذه الخطة

ساعين لتحقيقها وتحقيق آمال الأمة التي أعلنتها للعالم على لسانكم انتم ممثلوها في هذا المؤتمر الموقر .

بدأت المفاوضات وسارت في طريق حسن وتلقينا ما تعلمونه من قرارات مؤتمر سان ريمو المعترف بسورية دولة مستقلة ، ومن التبليغات غير الرسمية من حليفتنا بريطانيا التي تشير إلى الاعتراف بجلالة ملكنا ملكاً على سورية علاوة على تأييد الاستقلال المذكور .

وعزمنا في المدة الأخيرة على ارسال وفد إلى أوربا لاتمام المفاوضات وحل المسألة السورية حلاً نهائياً يحقق آمال الأمة وسعادتها ، ولنبرهن للعالم والدول كلها أننا لا نعادي أحداً ولا نقاوم قرارات مؤتمر السلم ما دامت ضامنةً لاستقلالنا وشرفنا . وقد عزم جلالة الملك على السفر بالذات حباً بانهاء المفاوضات ، وكنا واثقين بأننا سنتلقى البشائر بتحقيق آمالنا التي هي آمال الأمة معاً .

وبينما كنا مثابرين على خطتنا العملية آملين خيراً من سفر الوفد تحت رئاسة جلالة الملك اذ حصل ما لم يكن في الحسبان ، احداث الحالة الحاضرة الخطيرة التي نريد أن نبينها لكم وهي :

ان الجنرال غورو أراد وهو مستفيد من تحشيداته العسكرية أن يعرقل أو يمنع سفر جلالة الملك لأسباب لا نعلمها ، وقد أظهر لوفدنا بعض الشروط التي قال انه يريد أن يطلبها منا ، ولكننا لم نطلع بعد على نصها الرسمي ولا يمكننا أن ننظر إلى هذه الشروط بصورة رسمية أو نعتقد انها صحيحة أو نبلغكم اياها مكتوبة من يد رسمية .

وإذا نظرنا الى بعض هذه الشروط نراها ليست مخالفة فقط ، لمطالب

الأمة ورغائبها وعزمها القطعي على محافظة استقلالها بل تخالف بالوقت نفسه ، روح المقررات التي اتخذت بين الدول في مؤتمر سان ريمو وتخرق حرمة هذه القرارات التي تعتمد عليها حكومة فرنسا أيضاً ، إذ أن هذه الشروط اذا كانت صحيحة تخل في أساس استقلالنا ، والسيادة التي اعترفت بها الدول في مؤتمر سان ريمو ، وقد حشد الجنرال جيوشاً على حدود المنطقة الشرقية من الشمال والغرب ، وربما كانت غايته من ذلك تعزيز الشروط المذكورة التي نكرر بأنه لم يبلغنا اياها بصورة رسمية حتى هذه الساعة ، وأرسل جنوده لتعزيز القوة الافرنسية في رياق وصرح حاكم زحلة الافرنسي لقائد المحطة العربي في رياق انه احتل رياق احتلالاً عسكرياً ، وأعاد الجنرال القوة التي كانت احتلت المعلقة في العام الماضي .

وقد تلقينا البارحة من الكولونيل كوس ، عن لسان الجنرال غورو ، أن احتلال رياق والمعلقة هو مقابل تعزيز قواتنا في مجدل عنجر وهي نقطة عسكرية وضعت لتأمين الأمن الداخلي في ذلك الجوار فقط وذلك منذ ابتداء الاحتلال ، وتعزيزه من قبلنا أخيراً ليس إلا تدبيراً اضطررنا أن نتخذه بعد أن رأينا تحشيدات الجنرال على حدود منطقتنا .

فحكومتنا بعد أن احتجت على معاملة الجنرال غورو التي لا تلتئم مع التحالف وطلبت احالة القضية إلى التحكيم الدولي ، تعلن إلى الأمة وإلى العالم أجمع ما يلي :

١ ــ نحن لا نريد إلا السلام والمحافظة على استقلالنا وشرفنا الذي لا نتحمل أن تشوبه شائبة .

٢ — نحن نبرأ من كل تهمة نوصم بها ، ويراد بها الايهام بأننا نريد الاخلال بعلاقاتنا مع حليفتنا وحلفائنا .

٣ — نحن لا نرفض المفاوضات ومستعدون أن ندخل بها ، وها ان الوفد تحت رئاسة جلالة الملك مستعد الذهاب لمواصلتها ، ونحن نقبل كل حل لا يمس استقلالنا وشرفنا ويكون مبنياً على أساس الحق والاستقلال .

٤ — اننا مستعدون كل الاستعداد ومصممون كل التصميم على الدفاع عن شرفنا وحقوقنا بكل ما أعطانا الله من قوة .

هذا هو الموقف الحاضر ايها السادة ، بسطناه لحضراتكم والله معنا ، اذ لا نريد الا حقنا والدفاع عن كياننا » .

وأعقب ذلك اعلان الادارة العسكرية العرفية ، ثم اتصال الملك بالمركيز باتيز نودي مانكي قنصل ايطاليا العام في سورية وعميد القناصل في دمشق ، وكان يعطف على قضيتنا لاتفاق ذلك مع مصالح حكومته ، وتسليمه له برقية احتجاج على انذار الجنرال غورو ومنعه من السفر لاوروبة للاتصال بمؤتمر السلم بطريقة لا تتفق مع مبادىء العدل والانسانية ، ولكن ذلك لم يفد شيئاً ، وكذلك كلف الملك القنصل العام تبليغ برقية لحكومته نظراً لتعذر ارسالها بسرعة بغير تلك الواسطة ، ولقناصل الدول في دمشق ليبلغوها لحكوماتهم التي يرجو الملك منها تبليغ ذلك الى جمعية الامم أيضاً ، وطلب تأليف لجنة تحكيم دولية لحسم هذه المشكلة ، متعهداً بالخضوع لقرار لجنة التحكيم راجياً تدخل الدول حقناً للدماء ولمنع خراب البلاد ، ولم تعقب هذه المحاولات اي نتيجة . وكأن العرب لم يكونوا من الحلفاء ، فلم تحل مراجعاتهم دون توجيه انذار الجنرال

غورو بالمطالب الواردة فيه، ودون تصرفاته الاستبدادية، وكذلك لم تفد البرقيات التي ارسلت لرستم حيدر مندوب الحجاز في مؤتمر السلم لاعلامه بكل ما تقدم ليعمل كل ما في وسعه لتحقيق مطالب الملك وحكومته. ولما كان من الظاهر ان دمشق هي هدف الحركات العسكرية الفرنسية، فقد عززت حاميتها كما عززت القوات العسكرية المعسكرة في مرتفعات مجدل عنجر، خط الدفاع الاول عن دمشق. فاحتج غورو على ذلك، رغم تهديداته التي كانت تتوالى، وكأن الدفاع عن النفس محرم. فنتج عن ذلك كله ان انقسمت الوزارة بخصوص قبول الانذار او التريث والانتظار، وكان القائلون بقبول الانذار يرون استحالة التغلب على الجيش الفرنسي الكثير العدد والعدة.

هذا مع العلم بانه لم يكن بين الوطنيين المثقفين، وكنت في مقدمة هؤلاء، اذا استثنينا منهم الشيخ كامل ومن يتبعه من البسطاء، من يعتقد بامكان التغلب على جيش فرنسا الكبير سيما والتدخل بالسياسة كان يعمل عمله الضار بين ضباط الجيش السوري الناشىء، ولم يعد كالجيش الفاتح المتحد الكلمة والمستميت في سبيل مثله العليا فقط، ذاك الذي حرر سورية بقيادة فيصل، لكن المقصود كان المقاومة المستميتة مدة طويلة على ذلك يؤثر في ضمير العالم المتمدن الخارج من مجزرة الحرب العظمى وحكوماته القائلة بان الحق يعلو ولا يعلى عليه، او الاستماتة في سبيل الدفاع، فتسجل سورية والعرب صفحة مشرفة في سبيل الدفاع عن كيانها وكرامتها. ولتفعل القوة ما تشاء لان النتيجة واحدة مهما كانت الظروف التي تسمح لفرنسا بان تعسكر جنودها في أي بقعة

من بقاع الوطن العزيز . ويكون ذلك قد تم رغم رغائب الشعب وبعد تقويض أركان حكومته الوطنية .

وبعد وصول انذار الجنرال غورو اظهر وزير الدفاع يوسف العظمة وهو من أعضاء « الفتاة » ومن اشد القائلين بالدفاع حتى النفس الاخير، يؤيده في ذلك من الوزراء ساطع الحصري المربي الذي يجعل للمثل العليا المقام الاول في كل أعماله ، نشاطاً كبيراً ، وسعى لاستتمام الاستعدادات العسكرية اللازمة في الجهات المختلفة . وبما ان جبهة مجدل عنجر هي أهم جبهة لأنها ستكون معرّضة للهجوم الفرنسي الاساسي ، فقد طلبت الوزارة من الملك تعيين الأمير زيد لقيادتها مع القيادة العامة للجيش ، للافادة من نفوذه الأدبي وسمعته العسكرية العظيمة ، وتعيين ياسين باشا الهاشمي أكبر قادة العرب الذي عاد من الرملة في ١٦ أيار ١٩٢٠ رئيساً لأركان حربه ، فتم ذلك حالاً كما عين يحيى حياتي لقيادة منطقة حمص وحماه ، وكانت فرقة حلب بقيادة محمد اسماعيل وفرقة درعا بقيادة اسماعيل الصفار . إلا أن الهاشمي اعتذر عن القبول ، وعلل ذلك للأمير زيد بقوله ان الجيش أضعف من أن يصمد للمقاومة وللدفاع ، خصوصاً وان مستودعات السلاح تكاد تكون خالية من العتاد ، فأسرع زيد وأبلغ هذا الوضع الخطير لفيصل ، فاستولى علينا الهلع والألم إذ لم نكن نتوقع أن يكون وضع الجيش سيئاً لهذا الحد ، فاذا كنا لا نعتقد بسهولة الانتصار على الجيش الافرنسي ، إلا اننا كنا واثقين من الصمود في وجهه ولو أسابيع معدودة . فدعا الملك مجلس الوزراء للاجتماع بغية بحث هذا الأمر الخطير ، فنفى يوسف العظمة ما قاله الهاشمي بشدة ، وأصر على المقاومة وتحمل تبعة ذلك بصفته وزير الدفاع المسؤول . على

ان ثقتنا بالهاشمي جعلتنا ننظر الى ما قال بعين الجدّ ، ففاتحت العظمة مستفسراً ، فأيد لي ما قاله في مجلس الوزراء ، وأسرَّ إليَّ بأن الهاشمي قد يكون مأخوذاً بالغيرة حين ألقى قنبلته هذه بعد إذ أصبح مركزه في الجيش ثانوياً .

وعلى الأثر ناقش فيصل وزير دفاعه على انفراد في الأمر ، واتفق معه على عقد مجلس عسكري من أمراء الجيش لدراسة الموقف وتفهم الحقيقة والبت في الخطة الواجب اتباعها .

وبذل العظمة غاية جهده ليحصل على تأييد قادة الجيش فيما قاله ، واجتمع مجلس الدفاع العسكري في البلاط برئاسة الملك في اليوم الثاني ، بتاريخ ١٦ منه ، وحضره الهاشمي وتخلف العظمة عن الحضور ، فلم تكن بيانات المجتمعين صريحة ، فأصرَّ فيصل على ابداء الرأي الحاسم . فاجتمعوا على حدة ، ثم اتفقوا خلال الاجتماع على رأي موحد أبلغوه لفيصل ، وهو انه اذا كان الهجوم قوياً وحمي وطيس القتال ، فليس لدينا من العتاد ما يمكّن جيشنا من أن يقاوم أكثر من خمس دقائق .

وفكرت تلقاء هذه النتائج الخطيرة ، بالحصول على معلومات من قنصل ايطاليا العام عن عدد وعدة الجيش الذي سيعتدي علينا إذ قد يكون على علم بشيء من ذلك ، فأجابني بأن القوة الافرنسية المتجمعة بالشمال وحده ، بعد هدنتهم مع الاتراك ، لا تقل عن ٧٥ الفاً كاملة العدة ، فخرجت من مقابلته قاصداً وزارة الدفاع حيث قابلت الركن مصطفى وصفي ، فوجدته يجهل مقدار القوة العظيمة التي حشدتها فرنسا لمهاجمتنا ، واستولى عليه العجب لما سمع مني . وعدت من لدنه فوراً

الى البلاط حيث عرضت كل ما حصلت عليه لفيصل ، فزاد ذلك في آلامه وتذمره من الهاشمي الذي كان المسؤول الاول عن الجيش الى ما قبل اعتقاله في تشرين الثاني ١٩١٩ ، وكان من أشد المتحمسين للمقاومة ، وقد علل الهاشمي موقفه بقوله ان الافرنسيين أتوا بقوى كبيرة في الاشهر الستة الاخيرة . أما نحن فلم نزد استعداداتنا الحربية زيادة تذكر . كما ان فيصل حمل على العظمة مستغرباً موقفه ، ومما قال لي والألم يحز في نفسه ، ان الحكمة أصبحت تقضي علينا بمسالمة فرنسا .

على ان هذه الاحداث كانت تنتشر في أوساط دمشق السياسية والوطنية محدثة التبلبل العظيم ، وراجت الاشاعات منتشرة عن اتجاه الحكومة لقبول الانذار ، الأمر الذي دعا المؤتمر السوري لعقد جلسة صاخبة في ١٥ تموز حمل خطباؤه فيها على الوزارة بشدة ونادوا بضرورة التمسك بقرار المؤتمر القاضي بالدفاع عن الاستقلال التام والوحدة حتى النهاية ، ذلك القرار الذي نالت الحكومة ثقتها من المؤتمر بعد قبوله ، واعلانها أنها وزارة دفاع وطني . وختم المؤتمر جلسته بقرار يطلب من الحكومة فيه اقرار اقتراحاته الآتية ونشرها على الأمة وهي :

١ — الاستقلال التام والوحدة السورية ورفض الهجرة الصهيونية .

٢ — ملكية الملك فيصل على الاساس النيابي الدستوري .

٣ — ابقاء المؤتمر منعقداً يراقب أعمال الحكومة المسؤولة أمامه الى أن يجتمع مجلس النواب بموجب القانون الاساسي ، قراراً واحداً لا يقبل التجزئة ، وان المؤتمر السوري لا يعترف باسم الامة السورية بأية معاهدة واتفاقية أوبروتوكول يتعلق بمصير البلاد ما لم يصادق عليه .

وكنت من أشد العاملين في المؤتمر لاصدار هذا القرار رغم انني كنت على علم تام بوضعنا العسكري ، لأنني لم أكن أستسيغ توقيع عقد استعبادنا بأي شكل كان ، وتحت ضغط أي ظرف قاهر .

وكان من أثر هذا كله أن اضطربت دمشق وهاج الناس وقامت المظاهرات مطالبة بالدفاع حتى الموت ، إلا أن ذلك لم يمنع الحكومة من قبول الانذار في ١٧ تموز بعد أن استوثقت من فقدان العتاد وضعف الجيش .

واجتمعت في البلاط بالعظمة فسألته كيف وقع بهذا المأزق الحرج ، وبرغم انني من مقاومي قبول الانذار لكنني لا أستسيغ الانزلاق مع سياسة الشارع ، فكان جوابه بأنه كان يرمي الى اختداع الافرنسيين ولا يخطر له على بال انهم يقدمون على مهاجمة حلفائهم حرباً ومجلس الصلح لما يزل منعقداً . وهنا كشفت له عن رأيي بأنه كعسكري لا خبرة له بالسياسة ، كان ينبغي عليه أن لا يورط نفسه في أمر خطير كالذي أقبل عليه .

وبعد أن تسلم الملك قرار الحكومة دعا أعضاء المؤتمر لاجتماع خاص في قصره ، وخطب فيهم شارحاً وملمحاً للأسباب القاهرة التي اضطرته ليجنح الى مسالمة فرنسا ، فهاجت ثائرة بعض الاعضاء من سكان فلسطين والساحل ، وردوا عليه بشدة ، وذكّروه بماضيه الوطني ، مرددين بأنه لا يليق به أن يقبل عن رضى تحطيم الافرنسيين لاستقلال سورية ، فتألم لما سمع كثيراً ، إلا أنه تغلب على تأثره وأنقذ الموقف بكياسته ، إذ اقترح أن يكتب كل واحد من الاعضاء رأيه الشخصي ويسلمه إليه

من غير أن يطلع عليه أحداً لأن ذلك أدعى للروية والتعقل، واعداً بتنفيذ القرار على ما تأتي به الاكثرية. ولكن هذا الاقتراح لم يحققه أحد من أعضاء المؤتمر الذين سارعوا فقرروا الاجتماع في مقر مؤتمرهم.

وظهر عند اجتماعهم أنهم لم يكونوا على رأيٍ جميع، فالأعضاء من المنطقة الغربية والجنوبية (فلسطين) كانوا مندفعين بحماس واصرار الى التمسك بمبدإ الدفاع. أما سكان المنطقة الشرقية (سورية الداخلية) فكانوا بأكثريتهم ميالين الى الاعتدال. ولذا التزموا جانب الصمت.

وتوالت جلسات المؤتمر، وكلها يعبر عن الهياج الوطني الذي ملأ الصدور، والتحامل على الحكومة، وقد اعتذرت الحكومة عن حضور المؤتمر لايضاح الحالة وبيان خطتها، قبل عودة الرسول الذي أوفدته لمفاوضة الجنرال غورو في شروط انذاره.

ونتج عن ذلك قيام المظاهرات وهياج الشعب، وراجت سوق الشائعات عن عزم الحكومة على توقيف بعض الوطنيين المتطرفين استجابة لمطالب غورو، ولا اساس لذلك من الصحة، واضطر الأمير بهجت الشهابي مدير الشرطة العام الى الاستقالة لأنه كان من اعضاء «الفتاة» وقد قررتْ المقاومة مهما كانت الظروف.

وبما ان غورو طلب تغيير الوزارة القائمة، وكانت الظروف الحرجة تستلزم ان يكون رئيسها قوياً، ففكر الملك باستشارة ياسين الهاشمي بتأليف الوزارة فردد بالقبول، ثم اعتذر، وكانت هيأة ادارة «الفتاة» أبلغته قرارها بالمقاومة، ولم اكن واياه في عداد اعضائها اذ ذاك، وقد استنبأته خبر ما عزي اليه من وجوب قبول الانذار، وقوله لساطع

بصراحة إن الجيش لا يصمد امام هجوم مركز للعدو اكثر من دقائق معدودات ، مخالفاً بذلك ما كان صرح به قبل اعتقاله ، فعلل ذلك بتغير الظروف ، وبحشد الافرنسيين قوى واعتدة جديدة كثيرة ، واستتلى فقال بأن واجبه العسكري يحتم عليه عدم اخفاء الحقيقة عن القائد العام ، رغم قرار الجمعية بالمقاومة . وانتقد تفاؤل العظمة واعترافه لساطع بأنه كان يود اختداع الافرنسيين ، وابدى عظيم استغرابه في ان ينهج رجل عسكري مثل هذا النهج مع زملائه الوزراء ، ثم دعم ما كان قد صرح به من اننا لا نملك للخمسة عشر الف بندقية المختلفة الانواع في حوزتنا ، سوى مئتين وخمسين طلقة لكل بندقية ، وقذائف المدفعية اقل ، فلم يعترض على اقواله احد ، الا ان قرار الجمعية بالمقاومة ظل قائماً .

وكان للبرقية التي ارسلها نوري السعيد وعادل ارسلان اللذان كان اوفدهما الملك لاستشارة اللنبي الذي كان يزور حيفا اذ ذاك بما يجب اتخاذه لوقف الانذار ، والرجاء بالتوسط للوصول لذلك ، تأثير وأي تأثير على موقف فيصل ، اذ اشار القائد الانكليزي بوجوب قبول الانذار ، وزاد بأن حرر الى الملك كتاباً خاصاً يصر عليه فيه بضرورة النزول عند حكم الانذار .

ورغب الملك ايضاً في معرفة رأي الكولونيل تولا الذي عينته وزارة الخارجية الفرنسية لمرافقته عند زيارته الاولى لباريس ، واصبح يقدر مزايا فيصل وحسن طويته ، فأشار عليه بقبول الانذار ، وأيد ذلك الكولونيل كوس معتمد فرنسا في سورية ، وقد لمح تولا في حديثه

الى ان الجنرال غورو يستحثه الشوق لدخول دمشق دخول الظافرين وعلى رأسه اكاليل الغار ، فقبول الانذار يحول دون ذلك ويكفل منافع فرنسا وسورية في آن واحد ، ثم زاد على ما تقدم بأن ليس في حوزة سورية غير مئتين وخمسين طلقة لكل بندقية واقل من ثمانين قذيفة لكل مدفع .

ومن الغريب انه وكوس كانا يرددان ذلك كثيراً لدعم رأيهما بضرورة الاتفاق مع فرنسا بدون ان يكترث احد بأقوالهما ، بل من المؤلم ان يصبح ما قالاه حقيقة ثابتة . ووقع ان اجتمعا بي ، فأصرا عليّ بأن اقنع الملك بقبول وجهة نظرهما ، واني لأذكر قولهما متسائلين : ألا قل بربك يا دكتور ما ذا تجدي بنادقكم بعد نفاد ذخيرتها ؟ أيكون بينها وبين العصي اختلاف ؟ وهل للعصي ان تقاوم ماضي السلاح الحديث ؟

لم تبق هذه الحقائق اي مجال لاختلاف الرأي بين الملك والوزارة ، فقرروا قبول الانذار بعد تفهمهم حقيقة الموقف واطلاعهم على بيانات ساطع الحصري . فأشارت الحكومة على الملك في ١٧ تموز بقبول الانذار فأبلغ الملك الجنرال غورو بتاريخ ١٨ تموز قبول الانذار بكتاب أرسله مع الكولونيل تولا ، فأجابه غورو في ١٩ منه بالرد التحريري الآتي :

« لي الشرف أن أتسلم كتابكم المرسل بواسطة الكولونيل تولا المنطوي على قبولكم مبدئياً وشخصياً بشروطي فأذكر سموكم الملكي بأنه ليس المقصود من مذكرة ١٤ تموز قبولها وانما المقصود هو تنفيذ أحكامها بأعمال رسمية ، تعمل قبل ١٨ منه على أن يتم تنفيذ ما ورد فيها بكامله ، قبل ٣١ منه عند منتصف الليل .

ولما كنت قد مددت المدة ٢٤ ساعة اجابة لطلبكم ، فسأكون محقاً اذا لم أمددها مرة أخرى قبل أن أتلقى نبأ القبول رسمياً وفعلياً من جانب سموكم باعمال تعملونها وقد أشير إلى ذلك في الفقرة الرابعة من مذكرة ١٤ منه .

ولكي أدع لكم وقتاً كافياً لقبول المطالب رسمياً وتنفيذها فقد قررت الا تتحرك جيوشي قبل ٢١ تموز عند منتصف الليل . وأكد الجنرال جوابه بالتاريخ ذاته بالبرقية الآتية :

حدد يوم ١٨ تموز موعداً لقبول أو رفض مذكرة ١٤ منه ، ثم مددت المهلة حتى ١٩ منه عند منتصف الليل ، لا لقبول الشروط رسمياً بل للبدء بتنفيذها رسمياً مع العلم بان تنفيذها بكاملها يجب أن يتم قبل ٣١ منه ، وبناء على ذلك فلن أقبل أي مهلة بعد التسهيلات التي جرت .

واذا كان لا بد من اعطاء وقت كاف لاجل قبول الشروط والبدء بتنفيذها فاني اقرر ان جيوشي لا تتحرك حركة قبل ٢١ منه عند منتصف الليل .

وبعد قبول الانذار ، بدأت الحكومة بتنفيذ أحكامه فأمرت بتسريح الجيش في ١٨ منه وقد نفذ ذلك ، الا ان يحيى حياتي آمر منطقة حمص وحماه الوسطى الذي كان يتعاون تعاوناً وثيقاً مع متصرف حماه زكي قدري رئيس تشكيلات دفاع المتصرفية الوطنية ، رفض ذلك وكان أمين سرها كاظم الجزار ، فأخذ المتصرف على عاتقه وضع صندوق مال المتصرفية تحت أمر آمر المنطقة ليصرف منه على نفقات الدفاع . وقد زاد تسريح الجيش الاستياء فعمّ دمشق كما زاد التهجم على الحكومة . وكان الشيخ كامل في مقدمة المحرضين باسم اللجنة الوطنية فلم تر الحكومة

بدأ من تأجيل انعقاد المؤتمر شهرين ، وتلا قرار التأجيل يوسف العظمة بحضور رئيس الوزارة في الساعة التاسعة من صباح ٢٠ تموز ، فملا ضجيج الاعضاء وهموا بالخطابة فأجابهم الوزير بلهجة قوية ان القانون يحتم عليهم الانصراف فانصرفوا . وعقد مجلس الوزراء بعد ذلك فوراً اجتماعاً وضع فيه نص مذكرة جوابية لغورو بقبول انذاره وكل مطالبه ختمت بالجملة الآتية :

« ولن يطول الوقت حتى تدرك حكومة الجمهورية ان هذه الأزمة الشديدة التي اجتزناها لم تكن سوى نتيجة سوء تفاهم واسع النطاق بينها وبين الشعب السوري الذي قاتل جنباً الى جنب مع الحلفاء وضحى في سبيلهم » .

وسلم الملك المذكرة المذكورة في اليوم ذاته للكولونيل كوس مندوب فرنسا بدمشق وفق ما أشار به غورو ، وقد أهمل كوس ايصال تبليغه لغورو بقبول كل مطالبة ، مع ان كل الامكانيات كانت متيسرة له واكتفى بارسال برقية لغورو بواسطة مكتب التلغراف عن ذلك ، قيل انه قد تأخر وصولها قليلا ، الا ان هذا التأخير لم يكن له أهمية من الوجهة القانونية بعد أن انتهت موافقة الملك إلى الجنرال غورو في حينها وانتهى اليه الرد على وصولها . وكان من المرتقب بعد تحقيق كل ما طلبه غورو ، أن تعد هذه المشكلة منتهية وينظر في التنفيذ ، إلا ان الكولونيل كوس وقد تسلم من الملك مذكرة الحكومة المفصلة بقبول انذار غورو وفقاً لما طلبه بحذافيره وبابتداء التنفيذ قبل الوقت المحدد ، لم يلجأ للحال الى ايصال محتويات البرقيـة بالوسائل المتعددة التي كان يملكها سيما وان منطقة الاحتلال الافرنسية لم تكن تبعد عن دمشق أكثر من ساعة ونصف ، متذرعاً بان أسلاك البرق كانت تحت التصليح

فتأخر وصول البرقية ، واعتبر غورو هذا التأخير مبرراً لالغاء جميع ما تم ، وشرع بعملياته العسكرية .

واذا تأخرت برقية المعتمد الافرنسي بدمشق للجنرال غورو مدة جزئية لأسباب تتعلق بالمندوب الافرنسي ، او قد تكون لاسباب قاهرة اخرى ، فليس ثمة ما يعد مبرراً لالغاء ما تم ، ثم ان الاقدام على عمل عسكري عدواني ليس له ما يبرره من الوجهتين العسكرية والحقوقية . هذا فضلاً عن ان الجانب الافرنسي لم يغب عنه البدء بتطبيق المطالب الواردة في الانذار وأهمها سحب قوى الجيش السوري من مجدل عنجر وتسريحها .

وما كادت هذه الاخبار تذيع في دمشق وبخاصة قبول الحكومة انذار الجنرال غورو حتى هاج الشعب هياجاً عظيماً لعدم تبينه حقيقة الموقف ، وكان الشيخ كامل القصاب في مقدمة المتحمسين ، وكنت أؤيده دوماً لدى الملك ، ثم انتشرت الدعايات ضد الحكومة معللة قبول الحكومة الانذار بحرصها على التمسك بالحكم مع ان استقالتها كانت من شروط الانذار .

وهاجم المتظاهرون عند المساء ، بعد أن اغروا بعض افراد الجيش المسرح بالانضمام اليهم ، قلعة دمشق وكان في مقدمتهم عثمان قاسم (من جمعية الفتاة) يطلق النار من مسدسه في الهواء مشجعاً اياهم ، والأصوات تملأ الفضاء بسقوط الحكومة ، ووجوب الاستيلاء على الاسلحة والاضطلاع بمهمة الدفاع ، وقد انضم الى المتظاهرين كثير من الرعاع الذين اطلقوا سراح المسجونين في القلعة ونهبوا كل ما وصلت اليه أيديهم ، ولم يمكن كبح جماحهم الا بعد تدخل الامير زيد وياسين الهاشمي واللجوء الى القوة ، وأصبحت دمشق في ٢١ منه هادئة .

وفي خلال هذه الفتنة كان بعض المتظاهرين يرسلون حناجرهم باتهام فيصل بالاشتراك مع حكومته بعملها الشائن . وقد حمل ذلك بعض ذوي الأغراض فوسعوا فيه ما وسعهم حتى انهم لم يتورعوا عن الزعم بأن المتظاهرين تآمروا على الفتك بالملك . فلما ان اطلع فيصل على ذلك تأثر تأثراً عظيماً على شكل لم نعهده فيه من قبل ، ولقد سمعته يقول مهتاجاً : أهذه هي مكافأتي على جهودي التي طالما بذلتها في سبيل بلادي ؟ فأهدد بالقتل وأوصم بوصمات يعلم الله اني بريء منها ! ألا ليت زعماء المتظاهرين الآن ، كانوا قد أصغوا لنصائحي واتبعوها مهتمين باعداد المعدات للدفاع والكفاح ، اذن لما تورطنا في موقفنا الحرج ، ولما انتهينا الى هذه العاقبة الأليمة .

وبعد جهد جهيد أمكن كبح جماح الشعب الهائج وتهدئة ثائرة الملك المتألم . ومن المحزن أن تفاجأ البلاد يوم ٢١ تموز بعد كل التضحيات التي أقدمت عليها الحكومة ، بخبر زحف الجيوش الفرنسية باتجاه مجدل عنجر ودخولها وادي الحرير متجهة نحو دمشق بعد انسحاب الجيش وتسريحه استجابة لانذار الجنرال غورو . فسأل الملك الذي كان يسيطر على أعصابه أكثر من جميع رجال حكومته الكولونيل كوس عن أسباب هذا الأمر ، فأبدى عجبه واستعداده للسفر حالاً للحيلولة دون زحف الجيوش الفرنسية الى دمشق وهو الزحف الذي لا مبرر له .

واحتاطت الحكومة للامر فأوقفت ما لم يكن قد تم تسريحه من قوى الجيش ، وأمرت القوى المنسحبة بالوقوف في المواقع التي وصلت اليها . فأبرق الملك الى الجنرال غورو قائلاً : « على الرغم من المشكلات التي توقعتها مقدماً (يقصد هياج الاهلين) فقد قبلت كتابة ورسمياً كل

ما طلبتموه في انذاركم ، وسرحت الجيش العامل طبقاً لاحكامه ، والغيت الخدمة العسكرية الاجبارية مما سبب استياء أبناء شعبي كما يشهد بذلك قناصل الدول في دمشق . ولقد دهشت حينما علمت أن جيوشكم تزحف على دمشق رغم قبولي جميع الشروط الواردة في الانذار بلا قيد ولا شرط مما يعد انتهاكاً للعهود المقطوعة وخرقاً للحقوق الخاصة والروح الأدبي العام ، فكل تبعة تنجم عن هذا العمل الغريب تقع على عاتق مسببها ، وأطلب منكم في الختام اتخاذ التدابير اللازمة لسحب جيوشكم بسرعة » .

وأبلغ الملك صورة عن هذه البرقية الى الكولونيل ايستون المعتمد البريطاني في سورية ولقناصل بقية الدول راجياً تبليغها لحكوماتهم بكل سرعة .

وقد أبلغ الكولونيل كوس الملك جواب الجنرال غورو الذي علل سبب الزحف بتأخير وصول البرقية التي ارسلها عند استلامه مذكرة الحكومة السورية المفصلة عن قبول الانذار ، بسبب انقطاع أسلاك البرق ، وأن مسؤولية قطع العصابات السورية لأسلاك البرق تقع على عاتق سورية ، فحكومة دمشق تجني الآن ثمر ما زرعته سابقاً ، وأن زحف الجيش الفرنسي سيستمر الى أن يصل الى مدخل دمشق . وسيأمر الجيش بأن لا يدخلها اذا لم يجد الجيش الفرنسي مقاومة عند احتلاله محطات السكة الحديدية بين رياق وحلب ، ومدينة حلب نفسها . وأشار كوس بارسال معتمد من قبل الملك لمقابلة غورو في عاليه عله يتمكن من تدارك الأمر . فأسقط في يد الملك بعد ما تأزمت الأمور الى هذا الحد ، ولم يبق دونه الا التفكير بانقاذ البلاد من ثورة أهلية بدأت طلائعها بالظهور مساء ٢٠

تموز وعدم اعطاء فرنسا مجالاً للزعم بأنها دخلت العاصمة دمشق برضاء أهلها وبدون اراقة دماء .

فأشار على حكومته بأن تعلن قرارها باستعمال السلاح لوقف العدوان الفرنسي ، واستدعى الشيخ كامل القصاب زعيم اللجنة الوطنية يومئذ وخاطبه قائلاً : لقد نزلت أنا وحكومتي على الرغبة التي طالما ناديتم بها لمقابلة العدوان بالقوة وقبلت قولكم بأن القوى الوطنية مستعدة للاضطلاع بتلك المهمة ، فهيا أرنا همتك وعلى الله التوفيق .

وأسرعت قيادة الدرك والجيش فجمعت فريقاً من الجنود الذين كانوا سرحوا ، وارسلت كل ما أمكن جمعه من قوى الى ميسلون للدفاع فيها عن دمشق ، ونادى منادي الجهاد في دمشق ، وانشرح وجه المدينة وعادت اليها حركتها بعد الجمود القاتل الذي كان يخيم عليها ، وقامت المظاهرات الحماسية ، وهرول بعضهم باتجاه ميسلون لصد العدوان وهم مسلحون بالبنادق أو بالسيوف أو المسدسات أو العصي بدون ميرة وأعتدة . وقد اضطر الكثيرون منهم الى العودة بعد أن تأكدوا من صعوبة ما يرغبون الاقدام عليه لان الحرب في الجبهات العسكرية تحتاج الى جيش مدرب وعتاد وفير وتنقليات منظمة .

وقد ذكر الهاشمي في القصر الملكي أن الشيخ كامل القصاب طلب مقابلته في مقر عمله ليطلعه على المجهود العظيم الذي قام به فدخل عليه وبعد أن قال له انظر الى الشعب المتحمس ، قدم له من طرف جبته بضع مئات من طلقات البنادق المختلفة الاجناس ، كما انني سلمت بدوري لصديقي عزت دياب ٣٠٠ ذهبة عثمانية وهي كل ما كنت أملك للمساهمة

في شراء عتاد للبنادق ، فشكر الهاشمي القصاب ورجاه الاستمرار في مسعاه الوطني ، وضحك ضحكة كلها ألم وقال : أبمثل هـذا العتاد وهؤلاء المتطوعين الذين يظنون الحرب كالمظاهرات والنزهات يمكننا أن نصد الجيش الفرنسي سيما وحرب العصابات تختلف عن الحروب النظامية ؟.

وبعد أن تأكد الملك أن الحالة في دمشق لم تعد تهدد بالثورة التي قد ينتج عنها نهب المدينة وخرابها ، لجأ الى آخر ما يمكن اللجوء اليه ، وقرر وحكومته ارسال مندوب للتفاهم مع الجنرال غورو فأبرق له في اليوم نفسه (٢٢ تموز) قائلاً :

« على الرغم من قبول جميع الشروط الواردة في مذكرة ١٤ الجاري وعلى الرغم من زحف الجيش الفرنسي وتقدمه نحو دمشق ورغبة في حقن دماء تسيل بلا طائل أطلب منكم في الدقيقة الاخيرة أن تصدروا أمركم الى الجيش بايقاف أعماله الدخول في محادثات تدور على القاعدة المبينة في برقيتكم المبلغة اليوم ، يسافر اليوم الى طرفكم أحد أعضاء الحكومة ومهمته التعاقد معكم باسمها » .

واجتمع مجلس الوزراء وقرر أن يكون الموفد لمقابلة غورو وزير المعارف ساطع الحصري ، فوافق الملك ، وأرسل مرافقه جميل الالشي لاستدعاء ساطع لمقابلته قبل سفره ، ولاحظ ساطع ان المرافق لم يعد معه لغرفة الملك حسب الاصول بل تخلف في غرفة الوزراء وقد أعطى الملك لوزيره برقيته للجنرال غورو المؤرخة في ١٨/١٩ تموز عن قبول الانذار وجواب الجنرال غورو الذي يشكره فيـه ويطلب منه ارسال قبوله الشروط بالتفصيل .

ولما كان مجلس الوزراء لم يطلع بعد على هاتين البرقيتين ، فكان

ذلك من دواعي سرور ساطع الحصري لاعتقاده بأن هاتين البرقيتين تسهلان مهمته كثيراً وتسقطان الحجة التي تذرع بها الفرنسيون للزحف على دمشق . وعندما عاد ساطع رأى الالشي يتكلم باهتمام مع الوزراء الذين كلفوه بأن يكون معه ضابط سوري بالنظر للظروف القائمة ، فلم يمانع الحصري ، فتقدم منه الدكتور شهبندر ومعه جميل الالشي واقترح عليه أن يستصحب الالشي معه ، فقبل لأن مهمة الضابط الذي سيرافقه ليست الا شكلية وبسبب الحركات العسكرية القائمة ، ولم يذكر اسمه في كتاب اعتماد الوزير المفاوض . ثم غادر ساطع ومعه الكولونيل تولا وجميل الالشي دمشق قاصداً عاليه وأعلمنا ساطع عند عودته انهم صادفوا في الطريق كثيراً من الجنود وقوافل النقليات السورية العائدة من مجدل عنجر مما أوجب توقف السيارة من حين لآخر . وكان الالشي يسأل الجنود عن عددهم وعتادهم ووجهتهم ، الأمر الذي لا يصح ذكره أمام ضابط يعرف العربية من ضباط الجيش المعتدي ، فاضطر ساطع الحصري لاسكاته بكلمات تركية مرات عديدة .

وكأن لسان حال ساطع كان يقول بأن ذلك خطأ عظيم ، وقوله ولا شك هو الحق لو ان الافرنسيين ايسوا على علم بحالة جيشنا وعتاده قبلنا نحن ، كما مر ذكره ، الا ان الارتباك السائد لم يسمح لي بالأخذ والرد في هذا الشأن ، مع العلم بأنني متألم جداً من موقفه تجاه فيصل بعد خروجنا من دمشق وهو مرافقه ومن مقربيه .

ولما اقتربت السيارة من وادي القرن ، علموا من الجنود السوريين بأن الجنود الفرنسية وصلوا الى مدخل الوادي مساء ، فصدتهم نيران حاميتنا المتراجعة ، وبعد قليل ظهر مقر الحملة الافرنسية المتجهة لدمشق

في الجديدة ، فنزل الكولونيل تولا وقابل قائد الحملة الجنرال غوابيه ، ثم استصحب ساطع الحصري وقدمه للجنرال ، وابتدر ساطع الجنرال قائلاً : ان الحكومة السورية قبلت كل شروط الانذار وسرحت الجيش كما شاهدتم ذلك . والظاهر ان ما نشاهده من تقدم الجيش الفرنسي نتج عن سوء تفاهم يؤسف له . وانني قاصد مقابلة الجنرال غورو للتفاهم معه ، فأرجو أن تأمروا بوقف جيشكم حيث هو ، فأجابه الجنرال بأنه رجل عسكري وليس عليه الا تنفيذ الأوامر . ومع ذلك أستطيع أن أؤخر الزحف بشرط قبولكم الشروط العسكرية التالية :

« سحب الجيش السوري الى ميسلون على أن تكون للجيش الفرنسي حرية الحركات في هذه المنطقة . ونقل مؤن وذخائر الجيوش الفرنسية من رياق الى التكية بدون أن تصادف أي ممانعة » .

فقبل ساطع هذين الشرطين لتأخير الزحف على دمشق عله يتفاهم مع غورو ، وعاد الى سفوح ميسلون وأبلغ الامير زيد ويوسف العظمة ما اتفق عليه وكانا يعملان فيها لاعداد معدات الدفاع ، فسر ذلك العظمة اذ انه كان رجاه أن يعطيه اطول وقت ممكن لتنظيم الدفاع وانتظار وصول المتطوعين الى ميسلون . وعند الفجر وصلت السيارة الى المريجات ، وكان في طريقها كميات عظيمة من المهمات الحربية . وعندما وصلوا الى عاليه قابل الجنرال غورو ساطع دون تأخير وبادره الحديث باعادة ذكر الاسباب التي دعته الى اصدار أمره بزحف الجيش ، اذ أن برقية كوس عن استلامه مذكرة الحكومة السورية التفصيلية بقبول شروط الانذار وصلته متأخرة نصف ساعة ... نصف ساعة فقط ... ! فسعى ساطع لاقناعه بأن مذكرة الحكومة السورية المفصلة عن قبولها

شروط الانذار وبدئها فعلا بتطبيق أحكامه سلمت الى ممثل فرنسا قبل الوقت المعين بست ساعات فلم يشأ الجنرال أن يقبل أي حجة منطقية . ثم فاجأه ساطع بقوله ان فيصل أبرق له بتاريخ ١٩/١٨ عن قبول سورية الانذار وانه أجاب شاكراً . ولم يكن المنطق شأنه وقيمته لدى الجنرال وتمسك بتأخير برقية ممثله نصف ساعة . كما أنه لم يصغ لحجة ساطع بأنه كان عليه اصدار الأمر للقوة الافرنسية عند وصول البرقية ، بالتوقف حيث وصلت من سهل البقاع التابع لسورية ، ثم في الجديدة حيث كانت قد وصلت بعد ذلك وفيها كل ما تحتاجه الجيوش من موقع موافق ، كتوفر المياه والمواصلات . بل سلمه مذكرة هذا نصها : انه وان تكن طرق التنفيذ المنصوص عليها في الانذار لم تنفذ خلال المدة المضروبة ، ولما كان الامير قد اتخذ تدابير التنفيذ فالجنرال غورو مستعد لوقف زحف الحملة على دمشق بالشروط الآتية :

١ – تصدر حكومة دمشق منشوراً (الحقت مسودته بهذا البيان) يوضح الاسباب التي حملت الجيش الافرنسي على الزحف وعلى التوقف (والبيان يضع كل المسؤوليات على عاتق سورية خلافاً للواقع) .

٢ – تستقر الحملة في الاماكن التي بلغتها ، وتحد من الشرق بمسيل التكية وتظل فيها ريثما يتم تنفيذ شروط الانذار كاملة ، تلك الشروط التي قبلها الامير وتخفض تدريجياً بنسبة تنفيذ الشروط .

٣ – تظل سكة حديد رياق – التكية في خلال هذه المدة تحت مطلق تصرف الافرنسيين .

٤ – تسترجع الحكومة الى دمشق القوات العسكرية الشريفية المرابطة غربي شمالي مسيل التكية وفي المنطقة نفسها ، بما في ذلك قوات الدرك

وذلك رغبة في سلامة الجيش الافرنسي ، ويجعل الدرك الباقي في هذه المنطقة تحت أمر السلطات الافرنسية المحتلة .

٥ ــ تمتنع حكومة دمشق من الآن عن مد يد المساعدة للعصابات التي تعمل في المنطقة الغربية وخصوصاً عصابة الشيخ صالح العلي .

٦ ــ ان وقوع الاضطرابات التي نشأت عن أعمال العصابات التي أوصلت الحالة الى هذا الحد وحوادث ٢٠ تموز في دمشق وقد اثبتت خطر تسليح الشعب تسليحاً عاماً . ان هذه الاعتبارات تجعل من الواجب على الجنود المسرحين أن يسلموا أسلحتهم الى المستودع العسكري على أن ينزع سلاح الشعب تدريجياً .

٧ ــ تقيم في دمشق لدى الحكومة بعثة افرنسية مفوضة تمنح الاختصاصات الآتية :

أ ــ اختصاصات موقتة ، تقوم بمهمة المراقبة على تنفيذ الشروط التي قبلتها الحكومة .

ب ــ اختصاصات دائمة ، تدرس طريقة تطبيق الانتداب في المنطقة الشرقية ، أي تعاون في تنظيم وفي قيام الوزارات بالخدمات العامة .

توضع هذه البعثة تحت اشراف الكولونيل كوس ، وتؤلف من الفروع الآتية :

فرع عسكري ، فرع مالي للضرائب والمحاسبات العامة ، وأملاك الدولة والمساحة والبريد .

فرع اداري ــ لاعمال الاسعاف والصحة .

فرع اقتصادي ــ المزراعة والمناجم والأشغال العامة .

فرع للعدلية والشرطة .

فروع للتعليم العالي .

٨ — في حالة عدم تنفيذ شرط من هـذه الشروط أو في حالة الاعتداء على الجيش الافرنسي في أي جهة من الجهـات تسترد الحملة حريتها المطلقة في العمل .

ثم طلب الجنرال غورو من ساطع قبول هـذه المذكرة والتوقيع عليها ، فاعتذر عن التوقيع قبل استشارة الوزارة والملك سيما وقد لاحظ بأن البند الأخير إن هو الا حجة لاحتلال دمشق وعدم الاكتفاء باحتـلال حلب . فلم يقبل الجنرال اعتذاره وبرغم ما تذرع به ساطع من الوسائل والحجج لاقناع الجنرال لم تلن قناته . وعندئذ اضطر ساطع لاستمالته بطريق العواطف ، فقال انه لم يطلب منح سورية مهلة جديدة لأن الجنرال غوابيه وافق على عقد هدنة تنتهي في صباح ٢٤ تموز . فهل يرغب الجنرال ان يفسخ هذه الهدنة التي وقعها جنرال فرنسي مع العلم بأن هذا مرتبط بشرف فرنسا ؟ واستتلى بكثير من الجمل العاطفية الى أن قبل الجنرال طلب ساطع . وللحال أسرع ساطع ليمتطي السيارة مع رفيقيه حرصاً على الوقت أن لا يضيع . ويقول ساطع : الا أن تولا ما لبث أن دعا جميل لمقابلة الجنرال ، فرجاه بالتركية ألا يطيل المقابلة وألا يبدي أي رأي ، ومع ذلك فقد استمرت المقابلة نصف ساعـة ، ثم تسلم ساطع من الجنرال رسالة إلى الملك . ولما امتطوا السيارة للعودة إلى دمشق فوجيء ساطع من قبل تولا بأن الانسب أن تقلهم السيارة إلى رياق ، ومنها يستقلون القطار الى دمشق ، فكان هذا ايذاناً بتأخير الانذار الجديد عن الوصول في الوقت المناسب ، فيبدأ الفرنسيون حركاتهم العسكرية لاحتلال دمشق ، ولكن ساطع اعترض على هذا التدبير بشدة

على غير جدوى ، وبعد أن تحقق عملياً بأن القطار لن يصل لدمشق إلا متأخراً قبل تولا أن يواصلوا سفرهم على سيارة من المعسكر الافرنسي بعد أن بارحتهم السيارة التي أقلتهم لرياق ، فوصلوا دمشق ليلا وقصد ساطع لتوه إلى القصر الملكي حيث أطلع الملك على ما تم ، وسلمه شروط الجنرال غورو الجديدة والكتاب الخاص الذي يطلب فيه ابعاد الوطنيين المتطرفين من حوله ليتمكن من أن يطبق على سورية الانتداب الذي قبلته فرنسا بتكليف من جمعية الأمم ، والانتداب الذي يفيد سورية ولا يتعارض واستقلالها . وبعد أن اطلع الملك على الانذار والرسالة أمر أن يجتمع مجلس الوزراء في صباح اليوم التالي في قصره ، وكان هذا اليوم آخر يوم من أيام الهدنة الجديدة التي تنتهي في منتصف ليل ٢٣ تموز ، وقص ساطع على الوزراء حقيقة الموقف جازماً بأن الجنرال لا يتحلحل عن احتلال دمشق . وكان من الظاهر أنهم لا يشاطرونه رأيه كما أن الملك نفسه بدأ يشك في ذلك بسبب موقف وزرائه ورسالة الجنرال غورو الشفهية التي رفعها اليه بعد مقابلته لجميل الالشي والتي يظهر منها كثير من الاغراء ، ويستشم منها اعتماده على الملك ملمحاً بأن سبب الاختلاف هو وجود الوطنيين المتطرفين من حوله .

لكن هذا التفاؤل لم يدم طويلا إذ أن الكولونيل كوس زار القصر والمجلس مجتمع ، وقدم برقية جديدة من الجنرال غورو يطلب فيها تقدم الجيش الفرنسي إلى ميسلون لضرورات عسكرية زيادة على الشروط المرسلة مع ساطع . فاستوثق الوزراء عندئذ بأن ما يرمي اليه الجنرال هو احتلال دمشق بعد أن كانوا جميعاً بدون استثناء مالوا الى قبول الانذار الأخير .

وتغير الموقف فلم يعد مجال لقبول الشروط الجديدة ، ولذا طيرت للحال برقيات الاستغاثة لكافة الدول ، وطلب من ساطع الاجتماع بقناصل الدول في مقر عميدهم ممثل ايطاليا ولو ان ذلك من خصائص وزير الخارجية ، فشرح لهم ساطع ما انتهت اليه الحالة المؤلمة . أما المركيز دوباترينو فكان يظهر العطف على قضيتنا . واما قنصل الولايات المتحدة فقد أجاب بأن حكومته قد نفضت يدها من السياسة الاوربية . ومن الغريب جداً أن لا يتحمس قنصل ايران فيعطف على قضيتنا حتى ولو بالتزام الصمت ، وعاد ساطع على الاثر يعرض على الملك ما قام به . وفي تلك الاثناء دخل الشيخ كامل القصاب على الملك وخاطبه بايمان واعتماد على النفس قائلا : اما وانك قررت الدفاع فانني اعدك بتجنيد عشرة آلاف متسلحين بالبنادق حتى هذا المساء . ولكنه لم يف بوعده ولم يتمكن من تحقيق شيء ، وفي مساء ٢٣ تموز عاد الكولونيل كوس طالباً جواب الحكومة على الانذار وقد أعد نص برقيتين احداهما بالقبول والثانية بالرفض ، وكانت عباراتها جافة ، فلم يوافق مجلس الوزراء الذي كان منعقداً برئاسة الملك وأقر الرد التالي :

« نحن نأبى الحرب ، بيد ان قبولنا لمذكرتكم الاخيرة يعرضنا لحرب اهلية ، ويجعلني انا وكل عضو من اعضاء الحكومة عرضة للتهلكة . نحن على استعداد لتنفيذ انذار ١٤ تموز بكامله . وقد نفذنا حتى الآن اربعة بنود من بنوده ، ونتعهد بشرفنا بأن ننفذه باخلاص اذا ما جلا الجيش الفرنسي عن الاماكن الجديدة التي احتلها » .

فلم يرد الجنرال على هذه البرقية إذ انه كان مصمماً على متابعة الزحف الى دمشق .

ولما كان ياسين الهاشمي قد اختلف مع العظمة فقد سلّم القيادة في ميسلون الى الاميرالاي تحسين الفقير وشريف الحجار ، فأسرعت قاصداً ميسلون لأطمئن على الموقف فيها . فلم آنس ما يشجعني إذ لم يكن هناك إلا عدد لا يزيد على الالف من المتطوعين مسلحين بأسلحة مختلفة ينقصها العتاد ، وجيش قليل العدد لا يملك من الذخيرة الحربية إلا اليسير ، لكن تحسين الفقير شجعني وقال لي ان مواقعنا منيعة وسنرد الغازين على اعقابهم ان شاء الله . وفي اليوم نفسه ، في يوم الجمعة ٢٣ تموز ، نشرت القيادة السورية البلاغات الرسمية الثلاثة الآتية :

١ — حالما اعلن الدفاع عن البلاد وقفت قواتنا التي كانت راجعة من مجدل عنجر غربي خان ميسلون فتعرضت لها القوات الافرنسية المتقدمة ، وفي طليعتها خمس دبابات فوقعت مصادمة بين مدفعيتنا والدبابات فحطمت مدفعيتنا ثلاثاً منها واكرهت الدبابتين الباقيتين على التقهقر سريعاً .

وكان قطار عسكري سائراً من رياق الى جهة حمص ، فاقفلت قواتنا الوطنية الخط الحديدي قرب القصير ، وتدهور القطار ، فانفجر ما فيه من المواد الحربية ولم يرد علم عما أصاب الموجودين في القطار من التدهور والانفجار .

وكانت دورياتنا في بعلبك سائرة للمحافظة على الأمن فتعرضت لها قوة افرنسية ، وبعد مصادمة انهزم الافرنسيون تاركين مركبة وسبعة قتلى وثلاثة جرحى .

وحامت طيارة فوق مواقعنا فأكرهتها مدفعيتنا على الانسحاب سريعاً نحو الغرب .

وزحفت قوة نظامية افرنسية مؤلفة من كتيبتين الى يحفوفا فقابلها الوطنيون وردوها الى رياق بعد ما كبدوها خسائر فادحة .

٢ — كل من كان عنده شيء من التجهيزات العسكرية كالألبسة والاحذية والخيم الصغيرة والكبيرة وما أشبه ذلك ، فالقيادة العامة ترجوه أن يتبرع بها للجيش الذي يدافع عن الوطن ، ويذب عن الاعراض ويسلمها الى اللجنة الوطنية وفروعها لمدة ثلاثة أيام ، ويأخذ مقابل ذلك وصلاً ، وبعد مضي هذه المدة اذا وجد شيء منها عند احد يصادر منه .

٣ — من يود أن يتبرع للجيش بشيء آخر ينفع الجيش في هذا الوقت الخطير كألبسة وقمصان وأحذية وأقمشة الى غير ذلك من لوازم الجيش فالمرجو منه أن يراجع الغرفة الثالثة للميرة وفي الملحقات قائمقام القضاء ويقدم ما يريد تبرعه ويأخذ وصلا بذلك .

٤ — نرجو من حمية الأهالي ، المتهافتين على التجنيد ، الا يتسارعوا الى المحطات طالبين سوقهم ، اذا كانوا بدون سلاح ، لأنه قد أصبح في الجيش الوف من الذين تهافتوا اليها بدون سلاح ، وخير ما يفعلونه ان يراجعوا دار التعليم في الثكنة العسكرية .

« القيادة العامة »

ولدى عودتي الى القصر شاهدت يوسف العظمة هناك ، فقال لي بأنه آت من مقابلة ساطع ، وأنه اودع ابنته الوحيدة أمانة في عنقه وعنقنا نحن أصدقاءه . ثم دخل على الملك يصحبه مرافقه ياسين الجابي الذي اخبرني بأن الوزير لا يجد فائدة من الدفاع ، فأدخل معه وابذل قصارى الجهد لتنفيذ رغبة الأمة في الدفاع . فدخلنا معاً وسلم على الملك

سلاماً عسكرياً وقال : أتيت لتلقي أوامر جلالتكم ، فأجابه الملك : بارك الله فيك ، اذن انت مسافر لميسلون ؟

— نعم يا مولاي اذا كنتم لا تودون قبول الانذار الاخير .

— ولماذا كنت تصر على الدفاع بشدة ؟

— لانني لم اكن اعتقد بأن الفرنسيين يتمكنون من دوس جميع الحقوق الدولية والانسانية ويقدمون على احتلال دمشق ، وكنت اتظاهر بمناورة المقابلة بالمثل .

— فأجابه فيصل : وهل يسلم الشرف الرفيع من الأذى

حتى يراق على جوانبــــه الدم

— اذن فهل يأذني جلالة الملك بأن أموت ؟

— بعد ان انتهت الأمور الى هذا الحد يجب علينا ان نموت جميعاً شرفاء ، وننقذ البلاد من حرب أهلية أيضاً .

— اذن فانا أترك ابنتي الوحيدة أمانة لدى جلالتكم .

ثم سلم وخرج ليتولى قيادة الجبهة في ميسلون .

وقد خصص فيصل مبلغ عشرين جنيهاً استرلينياً شهرياً لابنة الشهيد يوسف العظمة تقديراً لتضحية أبيها بنفسه ، وكانت تصلها بانتظام .

وفي صباح اليوم التالي البــاكر الموافق ليوم السبت ٢٤ تموز ، أطلقت المدفعية الفرنسية نيرانها بشدة على المواقع السورية ، وتقدمت الدبابات ، ثم قامت المشاة بالهجوم ، وكان معظم الجيش من الجزائريين والافريقيين والمغاربة ، فنفدت أعتدة المدافع السورية التي كانت تجيب على المدافع الفرنسية ببطء بسبب قلة عــدد قنابلها ، فسهل عندئذ على المشاة التقدم بحماية مدفعيتهم ودباباتهم ، ولم يعد للسوريين نجــاة الا

بالتراجع لكن العظمة أبى الا أن يثبت للمقاومة ، واقفاً يشرف على العمليات العسكرية وبيده منظاره ، الى أن استشهد ، وتراجعت عندئذ القوى السورية بعد أن صمدت نحو ثلاث ساعات . وقد أنحى الكثيرون على الحكومة السورية بالائمة لاسراعها بتسريح الجيش تنفيذاً لمطالب الجنرال غورو ، لكن الموقف كان يستلزم ذلك ، كما أن النتيجة لا يمكن أن تنتهي إلى غير ما انتهت اليه ، وأكثر السوريين لم يكن يعتقد امكان مخالفة الاتفاقيات المعقودة بتلك السهولة اذا تجنبنا الصدام المسلح ، كما ان الارستقراطيين والحزب الذي شكلوه ، كانوا من أنصار التفاهم مع فرنسا ، وإذا أضفنا إلى هذه العوامل كلها ان قلة الاعتدة لم تكن تسمح بالاقدام على المقاومة في جبهات محدودة يكون القتال فيها وفق القواعد والاصول الحربية ، خلافاً لحرب العصابات التي تعتمد على الكر والفر وسرعة التنقل والمفاجأة ، ان هـــذا الوضع المؤلم لا يجعل حجة اللائمين قوية .

وفي صباح ذلك اليوم المشؤوم قصد جلالة الملك قرية الهامة مترقباً أخبار المعركة ، كما انه أمر أخاه الأمير زيد بالتوجه إلى الجبهة ، للاشتراك بواجب الدفاع عن الوطن فرافقته بالسيارة ، وقد شاهدنا في سهل الديماس الطيارات الفرنسية تقذف بقنابلها قوافل المؤن وسيارات الاسعاف التي كانت شارات الهلال الاحمر ظاهرة عليها خلافاً للقواعد الدولية والانسانية ، وهنا نزل الأمير من السيارة وأمرني بالنزول أيضاً مخافة من أن نكون عرضة للهجوم ، وصوب نيران بندقيته على الطائرة التي كانت تطير على ارتفاع منخفض فابتعدت عنا ، وقبل أن نواصل السير مر بنـا متجهاً لدمشق سائق سيارة يوسف العظمة ، والسيارة

فارغة ، فاستوقفناه وعلمنا منه خبر استشهاد الوزير ، وانهيار جبهة المقاومة ، وتراجع المتطوعين مسرعين لدمشق ، فامتنع علينا الاستمرار بالتقدم فعدنا قافلين الى الهامة لعرض حقيقة الموقف على الملك . وبعد أن انتظر قليلاً ، وشاهد بأم عينه قوى الدفاع السورية الراكبة تعود مسرعة وعلى غير انتظام ، أمر بالذهاب لمنزل الأمير زيد عن طريق المزة ، ولم أر من الكرامة مرافقة الملك ، فرجحت مواصلة التقدم باتجاه ميسلون مؤثراً الموت على ما استشعرت من ذل واهانة ، متحدياً كل ملاحظات ومحاكمات الملك القيمة عن ذلك ، إلا أن جلالته بعد أن ابتعد قليلاً عن الهامة أوقف سيارته يسأل عني وعن تخلفي ، وأرسل سيارة خاصة أقلتني اليه لأكون في معيته .

وعند وصولنا الى منزل الأمير زيد قابله نسيب البكري ، وطلب منه أن يعهد اليه بادارة شؤون المدينة ، فلم يمانع في ذلك ، إلا أننا عرضنا لجلالته بأن حكومته لم تزل قائمة ويستحسن أن يستمر العمل وفقاً لما كان متبعاً بتحمل الحكومة عبء السلطات كلها . فعدل عن ذلك وأمرني بالذهاب إلى المدينة لابلاغ الوزراء حقيقة الموقف وكذلك رئيس البلدية ، لاتخاذ ما يلزم لتأمين سير النظام والأمن ، وعند وصولي إلى مدخل السراي رأيت مظاهرة عظيمة تهتف هتافات وطنية مثيرة ، ويتقدمها بعض المشايخ وعلى رأسهم الشيخ تاج الحسني الذي تقدم مني مستوضحاً ، فبينت له حقيقة الواقع . وهكذا لم تمر بضع دقائق إلا وانصرف الجميع ولم يبق للمظاهرة أثر . ودلفت الى السراي حيث أبلغت الوزارة رسالة الملك ، وانه سيتحول للحال من بيت الأمير زيد إلى الكسوة ، وهو يطلب من أعضاء الوزارة الالتحاق به اليها . وقد أعد

قطار خاص لانتقالهم وليكون مقراً موقتاً للحكومة . ومررت بطريقي الى القصر أمام مقر المعتمد الفرنسي ، فاستدعاني المعتمد بعد أن علم بمروري الى مقره ، وقال لي بلغ جلالة الملك أن لا يبتعد عن دمشق كثيراً ليسهل علينا الاتصال به . وفي عودتي رأيت ياسين الهاشمي قائد موقع دمشق وهو يعترض سير المدافع العائدة من ميسلون بعد أن نفدت ذخيرتها والتي كانت في اسراعها لا تستهدف وجهة معينة ، ويأمرها بالدخول الى ثكنة المدفعية الكائنة على طريق بيروت العام ، وكذا كل ما يمر به من وسائل النقليات العسكرية . ثم عدت الى الملك ورفعت اليه تنفيذ أوامره ورسالة كوس ثم اتجهنا الى الكسوة بالسيارات بعد أن عين الملك نوري السعيد قائداً لموقع دمشق ، وكلفه الاتصال بالكولونيل كوس لمعرفة نوايا الافرنسيين أيضاً . وقررت الوزارة نشر بيان تعلن فيه أن الحكومة خرجت من العاصمة لمواصلة الدفاع عن استقلال البلاد وحقوقها .

وبعد سقوط جبهة الدفاع عن دمشق غادرها لحيفا بعد الظهر كل الوطنيين : سعد الله الجابري والدكتور عبد الرحمن الشهبندر وجميل مردم وسعيد حيدر وخير الدين الزركلي وعثمان قاسم وخالد الحكيم وعمر شاكر وتوفيق اليازجي ويوسف ياسين وبهجة الشهابي وسليم عبد الرحمن ومعين الماضي ورفيق التميمي وعزت دروزه وعبد القادر سكر وغيرهم بأحد القطارين اللذين كانا معدين لنقل الحكومة لدرعا ، كما كان قد غادرها أيضاً شكري القوتلي والشيخ كامل القصاب ونبيه العظمة ورياض الصلح ومحمود الفاعور وفؤاد سليم وعوني القضماني وياسين دياب وشكري الطباع ومحمد علي التميمي ورشيد طليع والشيخ عيد الحلبي ممن أعرفهم . ولم

يسرع رئيس المؤتمر السوري الشيخ رشيد رضا بمغادرة دمشق لاعتقاده بأن التجاوز بالقوة على حقوق البلاد لا يمكن الا أن يحرك ضمير العالم المتمدن . وقد تخلف وزير المالية فارس الخوري في دمشق في آخر لحظة بعد ان أرسل حقيبته الى القطار المعد لنقل أعضاء الحكومة الى الكسوة ثم الى درعا ، كما ان وزير الداخلية علاء الدين الدروبي الضليع مع الحزب الذي يقول بالتفاهم مع الافرنسيين لم يوافق على مرافقة زملائه الوزراء ولم ينشر بيان الحكومة الذي كان قد عهد اليه نشره قبل مغادرتها دمشق . وقد تجمعت الدلائل على انه كان متفاهماً مع الافرنسيين وبذلك لم يعد في الامكان انسحاب الحكومة لدرعا وتنفيذ خطة الملك بتأسيس خط دفاع ثان فيها .

وفي المساء عقد مجلس الوزراء اجتماعاً برئاسة الملك ، وكان قلقاً كل القلق على مصير البلاد . وقد تجنب ابداء الرأي في المجلس والتكلم في أي موضوع حتى لا يؤثر في المجتمعين ، وكان الرأي السائد بأن الفرنسيين ليسوا حسني النية تجاه الحكم الوطني رغم ما يظهر من تفاؤل الكولونيل كوس والكولونيل تولا .

وفي مساء ٢٥ منه وردت برقية من نوري السعيد بواسطة خط برق سكة حديد الحجاز لمحطة الكسوة ، موجهة لرئيس الوزراء تشير الى حصول اتفاق موقت ، وبقاء الحكومة القائمة على أن تعد ما حصل ضد رغائبها السلمية ، وتنشر بلاغاً بذلك . ويقيم الفرنسيون في المزة لمدة موقتة ، ولا يتدخلون بغير تنفيذ المواد الاولية المعلومة . أما الجنود النظامية القديمة فتبقى في القدم بعد أن تحول الى قوى الدرك ، ويبقى الدرك والشرطة داخل المدينة للحفاظ على النظام ، وان وجود جلالته

على مقربة من دمشق ضروري . أنتظر توكيلاً تحريرياً للمفاوضات السياسية . منع التجول بعد الساعة الثامنة ليلا . البلد هادئة تماماً لا تفتكروا .

وكان مضمون هذه البرقية يؤيد ما أفادني به مندوب فرنسا الكولونيل كوس . والظاهر أن البرقية كانت خلاصة محادثة جرت بين نوري السعيد والكولونيل المذكور . فتفاءل بعضهم خيراً بها ، لكنني كنت اعتقد أبداً باستحالة تعاوننا مع الفرنسيين بصورة تضمن لنا الحياة الحرة وتصون كرامتنا ، فلم أعرها أي اهتمام ، كما أن ساطع كان على يقين أن نية الفرنسيين سيئة تلقاء الحكم الوطني والملك ، وان ما يبدونه من الظواهر البراقة إن هو إلا خداع موقت لا رجوة لنا من ورائه . وقد تقدم الجيش الفرنسي ، بعد انكسار الجبهة الوطنية ، نحو المزة فوصلها عند المساء . وزار نوري السعيد مستعيناً بجميل الالشي الذي لم يغادر دمشق مع الملك مع انه مرافقه ، قائد الحملة في المزة ، واستوضح القائد منها عن الوضع ، فأجابه بأن ليس ثمة أية فكرة ترمي الى المقاومة والكيد للجيش الفرنسي ، وان له من الحرية ما يجعله يقوم بأي تدبير على ما يشاء في اطمئنان .

وفي عصارى اليوم التالي تحرك الجيش الفرنسي داخلاً دمشق وأسرع فاحتل ثكناتها . وكان السكان والهين آلمين ، ينظرون الى ما يتعاقب على ناظرهم وكأن على رؤوسهم الطير . وورد على الملك في صباح اليوم الذي قضيناه في الكسوة من الأخبار ما يؤيد ما جاء في برقية نوري السعيد من تفاؤل . فقررت الحكومة أن تستقيل وأن يعهد الى وزير الداخلية علاء الدين الدروبي وهو الذي أعلنت الحقيقة بحسن علاقاته مع الفرنسيين

بتشكيل وزارة يرضى عنها الفرنسيون عساها تتمكن من حل المشكلة القائمة ، وليكون من هذا التدبير ما يحول دون المغرضين باتهام الحكومة انها سلكت مسلك الرعونة ولم تسلك سياسة التروي .

وللحال أوفد الملك كبير الأمناء احسان الجابري للاضطلاع بهذه المهمة ، وهو في هذا العمل انما يقدم في الحقيقة على آخر تضحية ، ويطلق آخر سهم من كنانته صبراً واحتمالاً . وكان أن ألف الدروبي الوزارة لتوه ، من جميل الالشي للحربية ، وعطا الايوبي للداخلية ، وعبد الرحمن اليوسف لرئاسة مجلس الشورى ، وبديع المؤيد للمعارف ، وهم المعروفون بالاعتدال ولا ينزعون الى مقاومة الافرنسيين ومنازعتهم بالقوة ، واحتفظ فارس الخوري بوزارة المالية التي كان يشغلها ، وكذلك احتفظ جلال الدين بوزارة العدلية ويوسف الحكيم بوزارة الزراعـة . ثم باشرت الوزارة أعمالها .

وحدث ان اجتمع احسان الجابري وهو في دمشق بممثل ايطاليا . فعلم منه ان الفرنسيين سيعلنون انتهاء العهد الوطني وملكيـة فيصل ، وقد كلفوا القائلين بالتعاون معهم بتقديم عريضة يدعمون بها قرارهم ، وان بعض هؤلاء انما اعلن بأن بيعة الملك فيصل قد انحلت بعد الفرار من عاصمة ملكه .

واوصى المركيز دوباترنو قنصل ايطاليا العـام بأن يعود الملك الى دمشق ليحبط هذه المؤامرة ، وليكون اخراجـه من قبل الفرنسيين بالقوة ، فاستصوب فيصل هذا الاقتراح بعد بحثه مع الموجودين معه . وهكذا عدنا ادراجنا بالقطار من الكسوة الى دمشق ، وحل الملك في قصره ، بيد أن الوزارة الجديدة لم تنهض بأي عمل ايجابي تحقيقاً

لما كان ينتظره الملك منها ، ولبثت الى أن طلب الجنرال غوابيه قائد الحملة التي احتلت دمشق ، أن يجتمع بأعضائها ، وفي الاجتماع أبلغهم ما يلي : ان الامير فيصل جر البلاد الى شفا الهلاك وانه مسؤول مسؤولية كبرى عن كل ما حدث من اضطرابات دموية في سورية في الاشهر الاخيرة . لذلك لم يعد من الممكن استمراره في حكم البلاد . ثم أمر بأن تدفع سورية عشرة ملايين فرنك تعويضاً عن الخراب الذي سببته في المنطقة الغربية ، ونزع سلاح الجيش السوري وتسليمه للجيش المحتل ، ثم تسليم كبار المجرمين ليحاكموا أمام المحاكم العسكرية ، هذا مع نزع سلاح الاهالي بتقديم عشرة آلاف بندقية ، فنفذت الوزارة الأمر . وحدث مثل ذلك في المدن السورية الكبرى الاخرى .

وعندما بلغ الملك فيصل مضمون هذه المطالب ، أرسل الى الجنرال غورو في ٢٧ تموز برقية احتجاج هذا نصها :

أحتج على التصريح الذي صرح به قائد حملتكم الى حكومتي بتاريخ أمس ، وأتنصل من كل تبعة أردتم أن تحملوني اياها ، واعتبر جميع المكاتبات التي تدور بينكم وبين حكومتي ، أو التعليمات التي تصدرونها اليها مباشرة وبدون علمي ، ملغاة وغير مشروعة أمام جمعية الأمم .

كما انه أرسل في اليوم نفسه برقيـة مفصلة الى اللورد كرزون يحتج فيها على تصرف الفرنسيين في دمشق ، ومثلها لكافة الدول راجياً تدخلها لاحقاق الحق .

وكان رد الفعل الذي أحدثه احتجاج الملك أن سلم الكولونيل تولا الملك في مساء اليوم نفسه أي في ٢٧ تموز الكتاب الآتي :

أتشرف بابلاغ سموكم الملكي قرار حكومة الجمهورية الفرنسية بأنها

ترجو منكم ان تغادروا دمشق بأسرع ما يستطاع بسكة حديد الحجاز مع عائلتكم وحاشيتكم وسيكون تحت تصرف سموكم والذين معكم قطار خاص يتحرك من محطة الحجاز غداً في ٢٨ تموز في الساعة الخامسة صباحاً . فرد الملك على هذا الكتاب حالاً ببرقية احتجاج للجنرال غورو هذا نصها :

ابلغني الكولونيل تولا بكتاب مؤرخ في ٢٧ الجاري قرار الحكومة الافرنسية بدعوتي الى مغادرة دمشق ، بقطار خاص في الساعة الخامسة من صباح غد ، فلي الشرف ان اصرح لكم انني لا اعترف للحكومة الافرنسية بحق نزع الاختصاص الذي منحني اياه مؤتمر الصلح رسمياً لادارة المنطقة الشرقية حين احتلال سورية وتقسيمها الى ثلاث مناطق ثم تأيد عملياً بتاريخ ١٥ ايلول سنة ١٩١٥ بالمذكرة التي قدمها المستر لويد جورج الى كلمنصو وإلي .

وما أنا بمعترف للحكومة الفرنسية بأي صفة في نزع اللقب الذي لقبني به الشعب السوري ، والقوة وحدها هي التي تستطيع نزعه ، ولكنكم تعلمون انه لا عمل لها في الحقوق الخاصة .

وغني عن البيان ، ان دخول جيوشكم الى دمشق بعد معركة قصيرة مع الشعب السوري واحتلال دور المصالح العامة عسكرياً هو خرق لمقررات مؤتمر السلام ، وبالاخص لمبادىء جامعة الامم التي الغت الحرب ووضعت قواعد لحل الخلافات بطريق التحكيم الدولي .

وكذلك فان احتلالكم عصمة البلاد عمل خطير الشأن ، وغير عادل لانه وقع بعد تسريح الجيوش السورية طبقاً لانذاركم المؤرخ ١٤ الجاري وقد قبلته بكامله ، ذلك القبول الذي أظهرتم ارتياحكم اليه في

كتابكم يوم ٢٠ الجاري واقتموني شاهداً لعطفكم على الشعب السوري .

نعم انكم طلبتم في الفقرة الثانية من ذلك الكتاب تأكيداً مفصلا لقبول شروطكم لا جواباً بالقبول ، لأن هذا كان في يدكم ، على أن تأخير وصول هذا التأكيد المفصل وقد سلمته الى معتمدكم الكولونيل كوس قبل انقضاء الموعد بست ساعات لا يسوغ لكم سوق جيوشكم الى دمشق خصوصاً وقد أبلغتكم قبل انقضاء الموعد المضروب للانذار باثنتي عشرة ساعة ، انني بدأت بتنفيذ شروطكم بجد وفي مقدمتها تسريح الجيش السوري .

واقد استخرجتم من هذه الحالة ، وهي تثبت ما عانيته بسبب قبول الانذار حجة للزحف على بلادي فاستقبل عدد من الجند ، اقيم لحفظ الامن والنظام جيشكم كحليف فلم يحل هذا دون اعتقال ضباطكم لهؤلاء كأسرى حرب ، مع ان حالة الحرب غير موجودة .

واذكركم أيضاً بالكتاب الذي ارسلتموه الي مع وزير المعارف ، مندوبي لديكم وما انطوى عليه فقد اعترفتم بأنني غير مسؤول عن تأخير وصول البرقية المفصلة ، وقد اشير اليها آنفاً ، وفي نفس الوقت الذي اعترفتم فيه هذا الاعتراف ، فرضتم علينا شروطاً قاسية ، جديدة يستحيل علي حمل شعبي على قبولها فوضعتموني بذلك بين أمرين كلاهما مخطر ومخيف ، فاما قبول شروطكم الجديدة وفي ذلك الثورة على جيشي وحكومتي فتتذرعون بها للتدخل واحتلال دمشق ، واما الرفض وفي هذه الحالة تزحف الالوف المؤلفة من جيوشكم المسلحة بجميع أدوات التدمير الحديثة وتنتصر على شعب حمل على أن يكون ضدها ، وتدخل دمشق وقد وقع الشق الثاني .

ولو كانت الشعوب تعيش اليوم كما كانت تعيش في القرون الوسطى ، يوم كان الحق للقوة وكان السيف هو الحكم في الاختلافات لكان تصرفكم منطبقاً على القوانين القائمة ، ولكن الحرب العظمى وقد خضنا غمارها في جانب الحلفاء لنفوز باستقلالنا قد بلغت غايتها باقرار مبدأ الحق وسحقت الروح العسكري ، واذا كانت مبادىء مؤتمر الصلح التي اعلنت حرية الشعوب وحقها في أن تحكم نفسها بنفسها ، ليست لغواً من القول ، واذا ظل عهد جامعة الامم وقد وقع عليه الحلفاء والاعداء وهو يلغي الحرب بين الشعوب واستعباد الامم باقياً ومحترماً ، فالقوة العسكرية الافرنسية التي احتلت المنطقة الشرقية التي عهد الي بادارتها انما تمثل الاحتلال الذي لا يمكن الا أن يعد اداة للارهاق ويجب أن يغير كذلك .

وختاماً فان تصرفاتكم تخالف اتفاق سايكس — بيكو وقد وقعت عليها الحكومتان الافرنسية والانكليزية سنة ١٩١٦ والاتفاقات المعقودة في أواخر سنة ١٩١٥ بين الحكومة الانكليزية من جهة وجلالة والدي ملك الحجاز من جهة اخرى والمادة ٢٢ من عهد جامعة الامم وقرارات مؤتمر سان ريمو والتعهدات التي تعهدت بها الحكومة البريطانية ونص معاهدة الصلح المعروضة على تركيا ، والاتفاقات المعقودة بين المسيو كلمنصو رئيس الوزارة الافرنسية السابق وبيني وتخالف في النهاية القوانين العامة ومبادىء الاخلاق الدولية . « فيصل »

وقد سلم نص الاحتجاج الى جميع قناصل الدول في دمشق . الا انه لم يكن بد من تنفيذ حكم القوة الجائر ومغادرة دمشق ، فزار القصر الملكي ليلة السفر عدد من الوطنيين من علية القوم ومن الشباب

الواعي . وذكر الملك أثناء حديثه معهم أنْ ليس من شيمته أنْ يعمل ما عمله الخديوي توفيق ، فيتفق مع الفرنسيين ويستعين بهم على كبح جماح مواطنيه ثم قال بأنني عندما عاينت الخطر بأم عيني ، وأشرت بضرورة اتباع سياسة الاعتدال والحكمة ، لم يستمع الي أحد ، وذهب رأيي أدراج الرياح . ولكن لا بأس فقد يجعل الله بعد عسر يسراً .

* * *

وكنت بعد ظهر ٢٧ تموز في دار ابن عمي خليل مردم واذا بأحد أصدقائي يخبرني بأنه شاهد أوراقاً رسمية في سراي الحكومة وقد تضمنت الحكم باعدامي ونخبة من زملائي الوطنيين من قبل المحكمة العسكرية الفرنسية ، فلم يسترع ذلك اهتمامي بعد أن انهارت آمالنا جميعاً ، وذهبت كل مساعينا أدراج الرياح بفعل السياسة الدولية الغاشمة . وبقيت انتظر حكم القدر وأملي وطيد بوطنية الشعب . وقد أبلغني الملك قبيل منتصف الليل ، أن أكون في محطة الحجاز عند الساعة الخامسة من صباح الغد الموافق ٢٨ تموز فصدعت بالأمر ، ولم يعترض سبيلي أحد .

ومن غرائب المصادفات أن يشب حريق هائل في هاتيك الليلة في دار سامي باشا مردم قرب سوق الحميدية ، فزاد في الكآبة المخيمة على المدينة ، الجاثمة على الصدور . وكأني بالسماء كانت تشاركنا في الآلام فتبدت حمراء لاهبة كأن فيها قطعاً من النيران المتأززة والحمم الغاضبة .

ولم يكن في وداع الملك الا فئة قليلة من الوطنيين . لم يصطحبه في القطار من وزرائه غير ساطع الحصري وسكرتيره الخاص عبد الهادي ومن السوريين كبير امنائه احسان الجابري ومرافقه العسكري تحسين قدري وكاتب هذه المذكرات .

وتحرك القطار من محطة الحجاز في الساعة الخامسة من صباح ٢٨ تموز سنة ١٩٢٠ قاصداً حيفا . وعند وصولنا الى درعا أمر الملك بأن يتوقف فيها قليلا . والغريب ان لا يتعرف على ملك البلاد ، أحد من رجالها الرسميين . وقد اتخذ الملك ومعيته من القطار الذي أقلهم الى درعا مقراً ومسكناً . وسرعان ما انتشر الخبر بين سكان حوران . فأحدث في حوران رجة كبيرة أقبل على أثرها شيوخه وزعماؤه متوافدين للترحيب بالملك ، وقد تجمعت هناك متطوعة العقيل النظامية وفقاً للخطة التي كانت وضعت بعد ان أبلوا بلاء حسناً في مقاومة الجيش الفرنسي ولم يمكنوه من دخول وادي بردى للالتقاء بالقوى الفرنسية التي سلكت الطريق العام فضحوا محتسبين شهداء كثيرين الى ان اضطروا الانسحاب ، وقد أكرمهم الملك فوزع عليهم ما كان قد تبقى في حوزته ، وهو يقرب من سبعة آلاف جنيه لا يملك بعدها ما يستحق الذكر .

ولما كانت درعا مقراً لفرقة عسكرية بقيادة اسماعيل الصفار البغدادي ، فقد أمرها وزير الدفاع في حكومة دمشق جميل الألشي ، بأن تفتح عيونها بقظة ساهرة كيما تحول دون أي مساعدة قد تقدم للملك ، ومع ذلك ، فقد احوج البنزين ثلاث سيارات ملكية ولم يكن متوفراً الا في مستودعات الجيش ، فاعتذر قائد الفرقة رسمياً عن اجابة الطلب في تقديم البنزين المطلوب ، إلا انه من جهة ثانية أشار بصورة خاصة إلى أن القوى التي تحت امرته لن تقاوم من يتظاهر بأخذ البنزين عنوة لسيارات الملك ، وهكذا كان .

والواقع ان معظم الزعماء الذين قابلوا الملك في درعا قد أظهروا استعدادهم لتأييده على ان يكون وبريطانيا على اتفاق بحيث لا يقفون مع

الفرنسيين وجهاً لوجه من غير عون من الخارج . وقد أثر في الملك هـذا التردد من الحورانيين وتمنعهم عن تأسيس خط دفاع في بلادهم قبل الحصول على تأييد صريح من انكلترا واصبح يجزم بعدم امـكان القيام بأية مقاومة ، هذا وان السلطة الفرنسية بدمشق قد اوعزت الى رئيس الوزراء عـلاء الدين الدروبي وهو الرئيس الذي كان قد عين بمرسوم من فيصل ، بأن يبرق الى الملك حالاً بضرورة مواصلة سفره إلى الحجاز ، فلم يتردد في ان يرسل الى متصرف حوران ، برقيـة مستعجلة يطالب تبليغها للملك حالاً والاجابة عليها .

وقد ورد في البرقية ان السلطة الفرنسية ابلغت رئيس الوزراء ان يضع قطاراً تحت امر جلالته للسفر الى الحجاز بطريق معان او حيفا ، بلا توقف في درعا ، فأسترحم من جلالتـكم حفظاً لبلاد حوران من المصائب والخراب تعجيل حركة جلالتـكم مولاي . هـذا وان طائرة افرنسية حلقت فوق درعا والقت منشورات تطلب فيها من الاهلين اخراج الملك فيصل من البلاد ، وهذا نصها :

من الجنرال قائد الحملة الفرنسية الى اهالي درعا وضواحيها .

« ان الامير فيصلاً كان قد تلقى امراً بأن يترك دمشق ويسافر رأساً الى بلاده وتعهد تنفيذ الامر ، اما وقد بلغنا على العكس مما تعهد به انه بقي في درعا وشرع في مخادعة الاهالي ليدفعهم الى اعمال سيئة العواقب ومضرة بصالح البلاد التي لم يبق له فيها اقل علاقة فقد كتب له ان يتابع سفره بلا تأخير ، فنحن الآن ندعو عموم الاهالي ان يكلفوه بأنفسهم بترك بلادهم حالاً اذ ان اقامته بينهم تجعل بلادهم هدفاً للقنابل . والآن نعطيكم مهلة عشر ساعات ليتوجه الامير في ختامها الى

بلاده ، واذا مانع في ذلك يجب ارجاع قطاره الى الشـام » .

وتلقاء هذا الموقف الحرج قرر الملك فيصل مغادرة درعا بعد أن استيقن من استحالة المقاومة فيها ، وكان عليه ان يختار بين السفر الى لواء الكرك الذي هو منطقة نفوذ بريطانية ولو كان جزءاً من سورية التي حكمها الملك فيصل ، لان الفرنسيين لن يتعرضوا له فيها ، او السفر الى حيفا بادىء ذي بدء . ولما كانت غاية فيصل ابعد من الاكتفاء بجزء صغير من سورية وهو الذي دعي فيما بعد بشرقي الاردن ، وكان على يقين من اتفاق بريطانيا مع فرنسا على ان تتخلى لها عن حرية العمل في سورية ، وهو لهذا لا يسعه الاعتماد على بريطانيا في ان تعينه على استرجاع الحقوق المغتصبة الى اصحابها اذا ما اتخذ مركزاً لدفاعه عن قضية سورية في البلقاء لواء الكرك ، سيما وقد افهمه زعماء حوران بكل صراحة بأنهم لا يجسرون على نصرته الا اذا أتاهم بدليل ملموس بتأييد بريطانيا له وان تختلف خطة زعماء البلقاء عن مثل ذلك ، مما اضطره لترجيح السفر الى حيفا بقصد السفر الى اوروبا للدفاع عن الحق المغتصب لدى جمعية الأمم وبريطانيا وغيرها من الدول الغربية . ولم يفكر بالسفر الى الحجاز كما رغبت فرنسا ، وكان قراره هذا ، مما يرضي المسؤولين البريطانيين في فلسطين اذ لا يبقي مجالاً للاحتكاك بينهم وبين فرنسا بسبب قيام فيصل في بلاد تابعة لنفوذهم ، بأعمال تعدها فرنسا عدوانية . فرحب المندوب السامي البريطاني في القدس بسفر جلالته الى حيفا ، واصدر أوامره لحاكمها بتقديم ضروب المساعدة والاحترام اللائق لجلالته .

وهكذا غادر الملك فيصل ومعيته درعا ، في أول آب ، قاصداً الى

حيفا . وقد تريث القطار في محطة العفّولة بعض الوقت حيث قدم لجلالته الشاي من مخزن بيع الاطعمة (الكانتين الانكليزي) التابع للجيش البريطاني ولكننا فوجئنا من محاسبة الجيش اثر وصولنا الى حيفا بطلب ثمن ما قدم لنا .

وقد خصص حاكم حيفا منزل المس (نيوتن) لاقامة الملك ، وكانت هذه السيدة كثيراً ما تعطف على قضية العرب ، وان كان عطفها لايعني انها غير مرتبطة بخدمة حكومتها .

وكان أول عمل قام به جلالته أن أبرق الى والده راجياً ارسال مبلغ كاف من المال لادارة شؤونه وليتمكن من السفر الى سويسرا والاتصال بمجلس السلم وجمعية الامم للدفاع عن قضية سورية الحقة . ولما كان من المتعذر سفره عن طريق فرنسا فقد سافر الى سويسرا عن طريق ايطاليا . وقد انتظر وصحبه في حيفا حتى ١٨ آب كي يسافر الى بور سعيد والابحار منها على باخرة تقصد نابولي . وفي غضون اقامتنا في حيفا لم تنقطع عنا أخبار درعا ودمشق . وكانت تصلنا تفاصيل أعمال السلطة العسكرية الفرنسية الغاشمة وفرضها الغرامات على مختلف المدن ، والاحكام العسكرية الكيفية باعدام الكثير من الوطنيين بدون استجواب أو محاكمة اذ أصدر المجلس العسكري التابع للفرقة الثالثة الفرنسية في ٩ آب الحكم باعدام ومصادرة أملاك كل من الوطنيين السادة :

كامل القصاب ، علي خلقي ، أحمد مريود ، محمود الفاعور ، فؤاد سليم ، صبحي الخضرا ، صبحي بركات ، منح هارون ، شكري الطباع عمر شاكر ، سليم عبد الرحمن ، عمر بهلوان ، عثمان قاسم ، سعيد حيدر ، عبد القادر سكر ، خليل بكير ، حسن ورمضان وعادل ارسلان ،

محمد اسماعيل ، رشيد طليع ، عوني عبد الهادي ، احسان الجابري ، الدكتور احمد قدري ، رفيق التميمي ، توفيق اليازجي ، رياض الصلح خير الدين الزركلي ، محمد علي التميمي ، بهجت الشهابي ، نبيه العظمة شكري القوتلي ، عيد الحلبي ، ياسين دياب ، خالد الحكيم .

وقد زادت هذه المظالم من ألم الملك ، وحفزته الى بذل أقصى الجهود والتضحيات كيما يضع حداً لما يقاسيه قومه . وما أن وصلنا القنطرة على قنال السويس حتى وجدنا فيها السيد عبد الملك الخطيب ، معتمد حكومة الملك حسين ، في استقبال جلالته . فأبلغه أوامر والده المشجعة ووصاياه ، وسلم من سيرافقه جوازات سفر باسم الحكومة العربية الهاشمية . ولما كانت موارد الملك المالية ضيقة استأذنت جلالته بالسفر للقاهرة لأعيش من مزاولة عملي الطبي فيها ، فقدر لي هذا الموقف ، وسمح لي بما طلبت على كره منه . ثم اقتصر من حاشيته على نوري السعيد وساطع الحصري واحسان الجابري ومرافقه تحسين قدري ، وخصص لمن بقي في مصر من رجالات جلالته الوطنيين رواتب تدفع لهم بواسطة معتمد الحكومة العربية في القاهرة ، وتقتطع من مخصصاته من أبيه .

وبتنا ليلتنا في بور سعيد . وفي صباح ١٩ آب غادرتها الباخرة التي تقل جلالة الملك قاصدة نابولي وسافرت أنا وعائلتي الى القاهرة حيث افتتحت عيادة كانت مركزاً للسوريين اللاجئين لمصر نجتمع فيها للتباحث في شؤون الوطن . وكنت أتلقى في القاهرة أخبار الملك بالتفصيل من أخي تحسين .

والى هنا تنتهي خدمتي لوطني تحت لواء فيصل .

* * *

وما كاد يصل جلالته الى ايطاليا حتى سعى الى الاتصال بساسة الانكليز ورجالاتهم الذين رافقهم في الحرب العامة . فصور لهم بجلاء النتيجة المحزنة التي انتهت إليها تضحيات العرب وجهودهم العظيمة طوال الحرب ، جنباً الى جنب مع بريطانيا وحلفائها ، معتمدين على شرف بريطانيا ووعودها . وكان ساسة الانكليز في موقف حرج تلقاء الرأي العام البريطاني والعالمي ، اذ ان لويد جورج رئيس وزراء انكلترا آنذاك ، كثيراً ما اسبغ الثناء على الملك فيصل ، وأفاض بذكر استقامته وخدماته العظيمة في سبيل انتصار قضية الحرية والسلام حتى لقد أعلن في احدى خطبه في البرلمان البريطاني وذلك بتاريخ ٢٩ نيسان ١٩٢٠ قائلاً : « لايسع أحداً أن يجد أكثر استقامة واخلاصاً وأشد رغبة في التعاون مع الحلفاء من فيصل ، في وقت السلم كما في وقت الحرب » . وكان جميع القادة البريطانيين الذين اتصلوا به يذكرون البسالة والتضحية التي قام بهما فيصل طيلة مدة الحرب ، الأمر الذي كان من اكبر العوامل في التوفيق الذي ناله الجنرال آللنبي في جبهة فلسطين .

لذلك لم يكن من السهل على الساسة البريطانيين أن يقلبوا له ظهر المجن ، فاستمهلوه قليلا في ايطاليا الى أن يتفرغوا من المشاكل الدولية التي كانت قائمة حينذاك ثم ينظرون فيما ينبغي اتخاذه لاصلاح الموقف والحد من المأساة التي ذهب ضحيتها .

ولم يكن بوسعهم التأثير على السياسة الفرنسية لما اشتهر عن الساسة الفرنسيين من تعنّف ورعونة ، ولأن انكلترة سبق أن ارتبطت مع فرنسا بمواثيق تخوّلها حرية العمل في سورية .

وبما أن الثورة العراقية قد أضنت بريطانيا حتى لقد أضجّ الممول

البريطاني من النفقات التي يتحملها ـ سيما والحرب العامة قد انتهت ـ وكثير من البريطانيين كانوا ينادون بضرورة الجلاء عن العراق ، فقد رأى الساسة البريطانيون حمل فيصل على تسنم مهام الحكم في العراق بأقل نفقات عسكرية ممكنة تتحملها بريطانيا في ذلك السبيل فنبتت إذ ذاك فكرة ترشيح فيصل لعرش العراق . وبذلك اضطر أن يتخلى عن خدمة سورية موقتاً ، وأن يحصر غاية جهوده في السبيل الجديد الذي خطه له القدر . إلا أنه كان يؤكد للعاملين معه أن ليس ذلك إلا الخطوة الاولى من مجهوده الوطني وانه لن ينسى بيعة السوريين التي في عنقه ، وانه سيتابع العمل للوصول الى تحرير سورية وتحقيق العهد الذي قطعه على نفسه بتحرير البلاد العربية وتوحيدها .

الخاتمة

لم أكد أمسح القلم من كتابة فصول هذه « المذكرات » حتى خامرتني فكرة وضع خاتمة تكون منها كالخلاصة ، تشف عن غاية ما جاء فيها ، وتوضح ما قد يستبهم من حقائقها ، وتلفت النظر الى ما ينبغي الوقوف عنده .

وكدت أرجع عن هذه العزيمة حين عنّ لي أن من حق القارىء ألا أفرض عليه آراء بعينها قد يستخلص غيرها على ما يوافق حرية تفكيره ، ثم لأن الحقيقة لا يمكن إلا أن تنمّ عن نفسها مهما غشّت عليها حجب الاستبهام . إلا أنني عدت فذكرت أن القراء ليسوا سواء وهم أنواع وأصناف في التفكير ، وأنا لم أضع مؤلفي لفئة خاصة دون أخرى ، فلا مناص اذن من الاخذ بالاجمال والاسهاب ، كلٌّ في موطنه . فأنا هنا لا أفرض الرأي فرضاً وانما أستخرج الرأي من بين ركام الحوادث التي أخذ بعضها برقاب بعض على ما يؤدي الى اظهار الحقيقة ناصعة بعيدة عن التأويل والالتباس . وهذا لا يناهض حرية القارىء في استخلاص ما يشاء ، بل بالعكس يمهد له الطريق ويفتح دونه الآفاق مشرقة الى التفسير السديد ، ويحول دون انحصار نظره في الاجزاء التي كثيراً ما تدلّ على غير معناها ، لأن من شروط الحكم أن يؤخذ مأخذ الكمال الشامل غير منقوص ولا مجزّأ .

واذا كان لنا أن نضرب مثلا على ما تقدم فان مثلنا هو الثورة

العربية الكبرى التي عُنينا بوضع هذه «المذكرات» عنها ، فهل كان من الاحسان القيام بها أم لا ؟ وهل كان بطلها الملك حسين أولُ من أطلق أولَ رصاصة فيها في مكة ممن دخل التاريخ مخلصاً ، أميناً ، مصيباً ، أم هو على الضد ؟ وكذا نجله فيصل ، أترانا بماذا نحكم عليه ، سلباً أم ايجاباً ؟ كل هذه الاسئلة اذا أخذها القارىء من بعض وجوهها مالت به الى غير ما تميل فيما لو غيَّر وجهة نظره الى سواهـا ، وفي ذلك دليل ، أكبرُ دليل ، على وجوب الاخذ بالشمول ، وعدم اعتماد القياس مجزّءاً لانه يتحيَّف الحقيقة ولا يحسر إلا عن بعضها .

من أجل هذا رأيتُني أميل الى وضع هذه الخاتمة ، وأحرص على إثباتهـا استتماماً للفائدة واستكمالاً للغاية المنشودة ، وهي تصوير الثورة العربية بصورتها الصحيحة الناصحة من غير تمويه أو تعصب أو نقصان ، وبخاصة انني واكبتُها من ألفها الى يائها ، وكنتُ أحد العاملين فيها وعلى كثَبٍ من أقطابها ما تخفى عليّ خافية .

وإني لأُجمِلُ الرأي في الحقائق الرئيسية ، وهي : نشأة الحركة القومية الحديثة في البلدان العربية الاسيوية وخاصتها في أسيّها ، ثم ما قامت به جمعية «الفتاة» التي أدت دورها كاملاً ، ما تحلحلت قيـد شعرةٍ عن مبادئها التي أعلنتها منذ تأسيسها ، ثم العوامل التي أهابت بالملك حسين الى نفخ الثورة واعلانها على الاتراك وهم في سلطانهم الممتد وتحالفهم مع ألمانيا أقوى دولة على الارض في ذلك العهـد ، ثم كيف تفككت الفكرة العربية وما أصابها من انحلال حوّلها عن وجهتها الجامعة الشاملة ، ثم التحدث عن شخصية فيصل وحكومته بما لها وعليهما ،

وأخيراً فضل السياسة السلبية التي استنّتها سورية الى أن تسنى لها التفلّت من نير الانتداب .

أما الحركة العربية الحديثة فقد انبثقت أول ما انبثقت في الآستانة متأثرة بالروح القومية التي ذاعت وشاعت بين الامم ، وبالشعور الوطني الذي عمّ المشاعر يومئـذ وعمل عمله بين المثقفين في البلاد العربية ، ولم تكن اقليمية كما قد يتبادر الى بعض الاذهان ، لم تكن حجازية أو عراقية أو سورية أو ما الى ذلك ، وانمـا كانت من العرب والى العرب جميعاً دون تفريق ولا تمييز بين الاقطار الناطقة بالضاد . هذه الحقيقة ينبغي ألا ينساها القارىء كي لا تُتّهم الثورة بمـا ليس فيها ، ولا يُتّهم القائمون بها بالنوازع الخاصة ، ولكي يدرك القارىء بانها نتاج شعور عام شامل لا جماعة أو قطر دون غيرهما .

وجمعية « الفتاة » التي كنتُ من العاملين فيها ، والتي أسست كأول حزب وطني للقضية العربية ، انما واكبت الوعي أول انبثاقه ، وكانت في مراميهـا حزباً لكل عربي تحت أي نجم وُجد ، ويستهدف نوال الاستقلال للعرب أسوة بغيرهم من الأمم التي انفردت عن الدولة العثمانية وأدركت حريتها ولم تكن أكثر استعداداً من العرب ؛ ولم تكن الجمعية تضمر أيّ عداء للدولة العثمانية أول الأمر ، ولم تنقلب عليها إلا بعد أن استوثقت من سوء نوايا القائمين على حكمها . ومما يلاحظ أن أعضاءها كانوا من خيرة الشباب المثقف الواعي المتحمس ، وممن تحرروا من عنعنات القديم والجمود ، وتحمسوا بالمذاهب الحرة السائدة في العالم ، ولعل في طريقة الانتساب إليهم دليلا على الطريقة الحرة في السرية

والاستخفاء مما لم يكن معروفاً آنذاك إلا بين جماعة الاحرار المقاومين للاستعمار ، والارستقراطية المتأبية ، والتعسف الغاشم .

وثورة الحسين لم تبتدر خطوتهـا الاولى إلا بدافع من الغيرة على العرب وبغية استنقاذهم من الذلة والصغار ، وتحكُّم الأتراك بأقدارهم والامعان في تعسُّفهم .. والواقع ان الملك حسين تردَّد كثيراً قبل القيام بثورته ، وبذل غاية الوسع في سبيل التفاهم مع الاتراك لانصاف العرب ولم يألُ في النصح لهم ، وما زال حتى يئس وأدرك أن لا خير فيهم وأنهم يبيِّتون الدسيسة لتتريك العرب والقضاء على قوميتهم . ولولا هذا كله ما حرَّك ساكناً لا سيما وان الحرب في أول اندلاعها والغلبة تبدو للعثمانيين باتحادهم مع ألمانيا القوية ، وكفة الحلفاء لا تبين راجحة . والحقيقة ان الملك حسين كان بصيراً فيما فعل ، وكان مضحياً ، وكان في حدسه كالمُلهَم بمصير الحرب . ولولا انضمامه الى الحلفاء لكان مصير العرب مما لا يُحمد بعد أن أحرزوا النصر على العثمانيين وحلفائهم . هذا وقد وسع سيد الهاشميين أن يبث الفكرة العربية قوية بعد أن كانت مضطربة حائرة ، وجعل لها حسابها في الموقف الدولي فرجَّحت كفة النصر في بلادنا كما شهد بذلك أقطاب السياسة والحرب . واذا كان ثمة خطأ فهو خطأ العثمانيين الذين لم يعرفوا كيف يحافظون على العرب في صفهم ، ولم يستسيغوا اعطـاءهم حقوقهم المشروعة ، بل شنقوا أحرارهم ونفوا سراتهم ، وضيّقوا عليهم جوعاً وفاقة ، وأهلكوا قسماً كبيراً منهم عمداً في ساحات القتال .

ان التاريخ ليذكر الحسين بطلاً أوّلَ للثورة العربية الكبرى ، ومؤسساً أول للوحدة العربية المنشودة ، وباعثاً أوَّل للشعور القومي ،

ورسولاً أميناً للقضية العربية ، افتدى نفسه وملكه في سبيلها من غير أن يميل ذات الشمال واليمين أو تأخذه في الحق لومة لائم . واذا كانت انكلترة قد خانت عهده ولم تبرّ بالوعود التي قطعتها له ، فما يلحقه من ذلك نقد أو غميزة إذ ما كان لأيٍّ كان سواه في مثل موقفه أن يستوثق بأكثر مما استوثق . ولطالما خانت السياسة ومارت وضربت بالمواثيق عرض الحائط . لقد وضع الحسين لأمته الأسس وفتح في وجهها السُبل ، وعليها استكمال البناء والانتهاء الى حيث تشاء .

لبثت الفكرة العربية بعيدة عن الاقليمية الى أن دارت بها بعض العوامل فأحالتها غير صورتها ، مُشذّبةً من اطرافها ، ضيقةً محصورةً . ومن هذه العوامل فكرة « الاتحاد السوري » التي عمل لها آل اطف الله وجماعته باخلاص ، ثم ميل بعض ضعفاء النفوس لتلك الفكرة ، وهم ممن يُشترَون بالمال والوظائف من قبل المستعمر ، ثم حرص لفيف من الذوات والارستقراطيين على عنجهياتهم ، فقد رأوا أن الخير لهم في أن يكون لسورية مركزها المرموق وحكمها الذاتي . وهنا ظهر التصدع في الفكرة الوطنية وجبهتها وأخذت الفكرة الاقليمية تذيع منتشرة كواجب لا بد منه .

فاذا انتقلنا من هذا الى الحديث عن شخصية فيصل قلنا انه ما من شك في انه صاحب قدم سابقة في الجهاد ، وصاحب يد سابغة على الامة العربية بما قدم وبذل . وقد بدَت غيرته على أمته منذ كان في دمشق الى جانب جمال الطاغية ، ثم ظهرت عبقريته الادارية وذكاؤه الملتمع خلال حربه للعثمانيين وتجشيمهم الهزيمة تلو الهزيمة ، ثم كان له تبصره السياسي في الاستباق الى دخول دمشق كفاتح عربي الى جانب جيوش

الخلفاء ، وتسلمه مقادة الحكم وتصريفه الامور طبق سياسة حازت رضى الجميع وتأييدهم . والواقع الذي لا ينكر ان فيصلاً كان موفقاً في اوربة بمواقفه الحازمة وسياسته المثلى ، وقد وجد من الرئيس .ولسن خير ظهير . ولكن خذلان انكلترة اياه تنفيذاً لاتفاقها مع فرنسا على اقتسام البلاد المنفصلة عن تركيا ، وانعدال أمريكا عن التدخل في السياسة الاوربية ، ومؤامرة عصبة الامم في توزيع الانتدابات على الامم الضعيفة مخالفة بذلك مبدأ تقرير المصير الذي أعلنه ولسن وارتضته كافة الدول في سياستها ، حالت دون تحقيق غاياته النبيلة . زد على ذلك تعنُّت الفرنسيين واصرارهم على احتلال سورية ولبنان كيفما كان ، وهم الذين يرون في ذلك تحقيقاً لمطامعهم القديمة التي تجلَّت منذ القرن السادس عشر أيام لويس السادس عشر الذي انشأ علاقاته مع موارنة لبنان ، ثم أيام نابليون الثالث الذي أرسل حملته العسكرية للدفاع عن نصارى لبنان عقب حوادث ١٨٦٠ ما بين المسيحيين والدروز ، ولولا استنجاد الدولة العثمانية يومئذ بدول أوربة وتألُّب هذه الدول على فرنسا لما خرجت من لبنان ولبقيت فيه .

مُنيت الدولة الفيصلية بهذه العوامل الضارة في السياسة الخارجية ومنيت كذلك بعوامل هدّامة في السياسة الداخلية ، كتشكيل الاحزاب المناوئة والاحزاب الرجعية والاحزاب الميالة الى المسالمة ، ثم تسريح الجيش الذي دخل دمشق وعدم امكان تسليح جيش جديد قوي يصمد للحوادث ويدافع عن حوزة البلاد .

كل هذه العوامل اصطلحت مجتمعة على فيصل عقبةً في طريقه لم تمكِّنه من اتباع سياسة ثابتة هادئة ، ثم انتهت بسقوط دولته في سورية وانطواء صفحتها أوشك ما يكون .

كان فيصل مخلصاً ذكياً مجدّاً ، وكان يعتمد في سياسته على الرئيس ولسن والانكليز ، ولكنهم خانوه وخانه كثير ممن حوله ، إلا انه حتى في خذلانه لم يبرح في رأينا ظافراً منتصراً إذ لو انحشد ما انحشد من المقاومات والمعاكسات لأعظم انسان لما وسعه أن يخرج منها غير مخرجه ولا أن تكون له نتيجة غير نتيجته ... فهو لم يدع وسيلة أو حيلة إلا تذرع بها ، ماشى تطور الحوادث وقاومها ، وأخذ بالمسالمة والعداء ، وسلك كل طريق لحماية البلاد والفوز باستقلالها ، ولكن العوامل من حوله كانت أقوى منه .

لقد أخطأ وأصاب ، شأن كل انسان ، ولكن ما عساه يفعل هو أو أي داهية في السياسة ، والاتراك قد استغلوا الحركة العربية حتى فازوا بما يريدون من الفرنسيين ، والانكليز عرفوا كيف يساومون على الموصل الغنية ببترولها فتنازلوا لفرنسا عن ضمان حقوق العرب في سورية لقاء تنازلها عن الموصل ، ماذا يسع فيصل أن يفعل ومن حوله لم يتمرسوا على السياسة ولكلٍ من غاياته السياسية وجهةٌ هو موليها ، وتعاكس وجهة سواه ؟ ...

ومما يسجله التاريخ لفيصل بمداد الفخر والقدر ما بثه في النفوس والافكار من روح الوعي والتمرد على الظلم والشعور بالقومية ، برغم ان دولته كانت في عمرها قصيرة ، ولقد رأينا كيف ان الروح التي نفخها قد آتت أكلها في الثورات المتداركة التي نشبت في سورية والعراق وفلسطين ثم امتدت الى الشمال الافريقي ، فنغصت على المستعمرين عيشهم ، وآذتهم في سياستهم ، كما آذتهم في الضحايا التي ذهبت طعمتها . نضيف الى هذا ما اضطلع به فيصل في ميادين الاصلاح الاجتماعي والعمراني

والاداري ، فقد خلف وراءه نزوعاً قوياً الى استحياء الأمجاد العربية كما أسس كثيراً من دور العلم ، واليه يرجع الفضل في وضع أساس الجامعة السورية ، وتجديد الجهاز الحكومي الذي خلفه الاتراك بالياً سقيماً .

ان السياسة السلبية التي اتبعتها سورية منذ عهد الدولة الفيصلية كانت سياسة صائبة رشيدة ، على رغم ما يرد عليها من انتقاد ، ورغم ما جرّت من مصائب على البلاد ، اذ لولاها لما خرجت فرنسا من سورية ولبنان بسرعة بعد الحرب العامة الاخيرة ، ولما وجدت انكلترا وأمريكا ذريعة لتعضيد السوريين واجبارها على الجلاء عن بلاد لا مواثيق تربطها بها وانما هي تحكمها منتدبة من عصبة الأمم وقد زالت من عالم الوجود وتحكمها مغتصبة برغم ارادة السكان ، وهذا مما لا تجوّزه الشرائع الدولية .

والخلاصة هي ان استقلالنا مدينٌ لهؤلاء المخلصين الذين عرفوا كيف يوجهون سياسة البلاد في طريق المقاومة السلبية للحصول عليه ، على رغم ما نالهم من الأذى . . . استقلالنا مدين لاولئك الذين احتسبوا حياتهم في سبيل الوطن . . . استقلالنا مدين للعاملين الذين ثبتوا على العهد ولم يميلوا مع الاهواء ، وكانوا منذ اليوم الاول على علمٍ بأن معنى الانتداب الفرنسي الاستعباد والاسترقاق مهما تلونت صوره وزخرفت قيوده .

﴿ الخطأ والصواب ﴾

الصفحة	السطر	خطأ	صواب
١٦	٨	علي سلوم	على سلام
٣٠	٢٢	للحكم على	للحكم بالاعدام على
٤٢	٧	لكنه استبه	فاشتبه
٤٧	١٢	وهم	منهم
٥١	١٤	شكري	حسين
٥٣	٤	الخبراء	الخضراء
٦٠	١٩	فقط من	فقط هنا من
٦٥	١	يونيو	يونيو ١٩١٨
٧٥	٩	٣/١١	٣/١٠
٧٥	٢٢	٥ تشرين الثاني	٥ تشرين الاول
٧٩	١٢	ثم الاتفاق	تم الاتفاق عليه
٧٩	١٦	بالمصائب	بالمصاعب
٩١	١٤	فابلغت	فابلغ
١١٤	٣	مع	لبيان
١١٨	١٤	لبنان في ١٠/٦/٩١٦	يافا في ١٠/٦/٩١٩
١١٩	١٠	بريطانيا	بريطانيا بطبيعة الحال لاننا نرفض اي استعانة من فرنسا .
١٤١	١١	كان	كأن
١٤٩	١٦	للوطنيين	للوطنيين في العراق
١٧٢	١٧	الامير	الامير ، وبين الركابي وحليفه البكري
١٧٥	١٢	تكلل	يكلل
١٧٨	٥	كان في	كان لها في
١٩٦	١٥	مؤتمر	مؤتمر الصلح
٢٠٤	٢١	٢٤ آذار	٢٤ نيسان
٢٣٠	١٦	بمقتضى	٥ ـ واعتدى على الحقوق الدولية فبمقتضى

مطابع ابن زيدون بدمشق